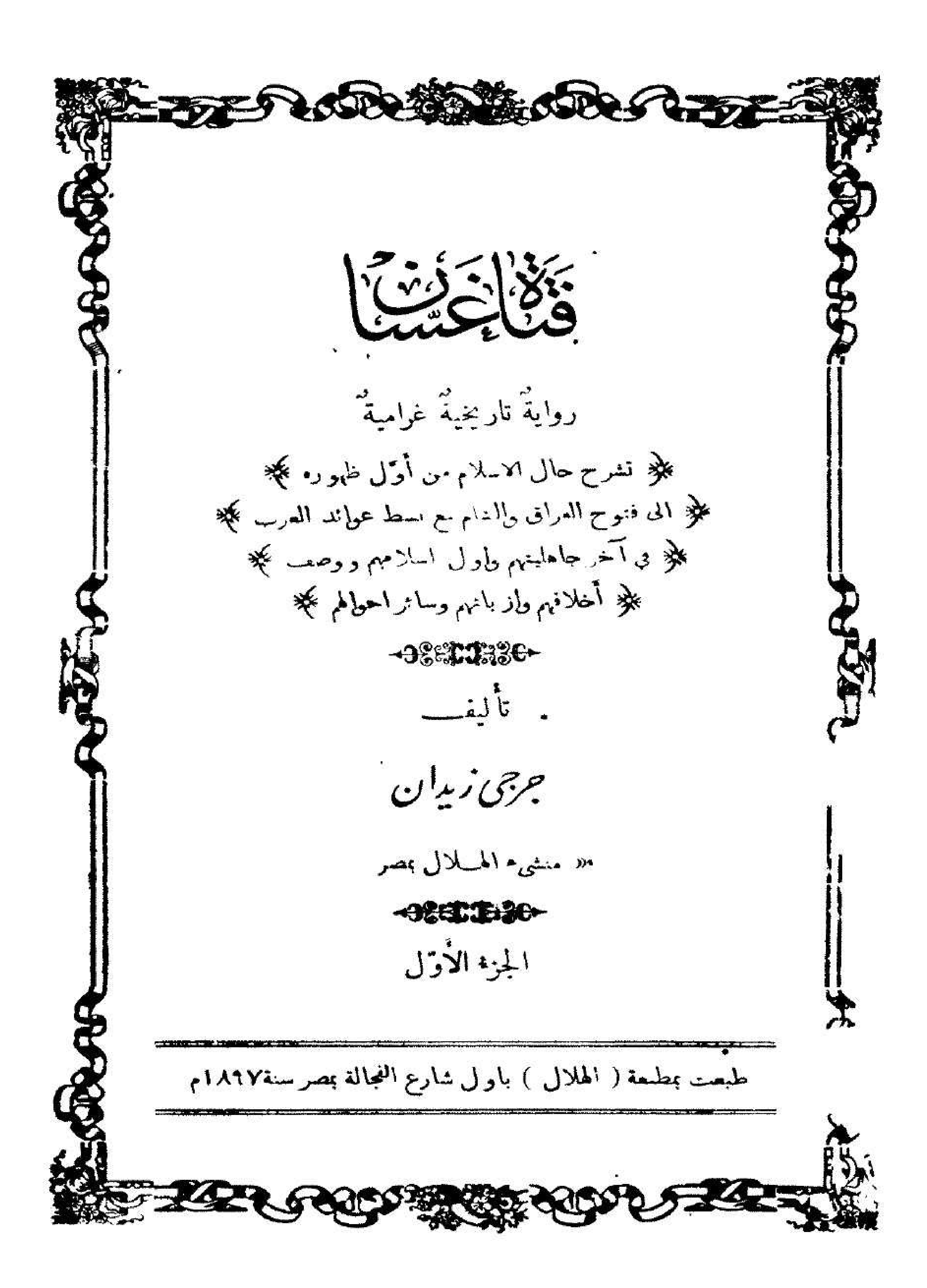


فتاة غسان

رواية تاريخية غرامية

تشرح حال الاسلام من أوّل ظهوره

الى فتوح العراق والشام مع بسط عوائد العرب

في آخر جاهليتهم واول اسلامهم ووصف

أخلاقهم وآدابهم وسائر احوالهم

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال بمصر

الجزء الأوّل

طبعت بمطبعة (الهلال) باول شارع الفجالة بمصر سنة ١٨٩٧م



الفصل الأوّل

ملوك غسان

بنو غسان عرب متنصرة كانوا عمالاً لقياصرة الروم في الشام وأصلهم يمنيون من بني قحطان هاجروا اليمن بعد سيل العرم والعرم سدّ كان بجوار مدينة مأرب باليمن يعرف بسد مأرب تهدّم في القرن الاوّل للميلاد وطافت مياهه على ما جاوره من البلاد والقرى فقلّ سبيل الناس الى الاستقاء فنزح أهلها التماساً للرزق ومنهم الغساسنة نزلوا ضواحي الشام بقرب ماء اسمه غسان فنسبوا اليه (١) واعتنقوا الديانة المسيحية ويسميهم مؤرخو الاسلام العرب المتنصرة ويعرفون ايضاً بملوك غسان . واوّل من عرف منهم جفنة عاش في القرن الثاني للميلاد واتصل الملك بعده بنسله فحكم منهم نحو ٢٧ ملكاً آخرهم جبلة بن الايهم وفي أيامه ظهر الاسلام وفتحت الشام على عهد الخليفة أبي بكر الصديق وانقرضت دولتهم كما سترى . ولكن منهم الآن بقية متفرقة في ضواحي البلقاء واليرموك وحمص (٢)

ومن العرب المتنصرة ملوك الحيرة ويقال لهم المناذرة جمع المنذر ، أو الملوك اللخميون نسبة الى لخم بن عدي وهم من عرب اليمن رحلوا أيضاً بعد السيل واقاموا في العراق وكانوا عمالاً للفرس هناك ونسبتهم الى ملوك الفرس كنسبة ملوك غسان الى قياصرة الروم اي ان كلاً من الفريقين كانوا عمالاً لاحدى هاتين الدولتين

فالغسانيون كانوا يقيمون في حوران والبلقاء وما جاورها وكانوا اشبه شيء بالولاة المستقلين تحت رعاية الرومانيين فيمتازون عن ولاة الروم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية تحت شروط معلومة فيؤدون الجزية ويمدون الرومانيين بالجند من قبيلتهم عند الحاجة وخصوصاً في حروبهم مع الفرس (٣) . او لعلهم كانوا من قبيل أصحاب الاقطاعات والمتعهدين

وكان العالم قبيل الاسلام تتنازعه دولتان عظيمتان الفرس في الشرق والرومان

(١) أبو الفدا (٢) نهاية الارب في معرفة قبائل العرب (٣) تاريخ العرب لويل دسفرجة

في الغرب لا يكاد يفتر النزاع بينهما فيستعين الفرس بالمناذرة ويستعين قياصرة الرّوم بالغساسنة فتولد بين تينك القبيلتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثها الابناء عن الآباء وكثيرًا ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى يكاد يبيد أحدهما الآخر

والنزاع بين الفرس والرّوم قديم وكأنهُ طبيعي بين المشرق والمغرب فقد كانت الحروب متواصلة قبلاً بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرّومان وكانت عاصمة الفرس المداين بالعراق وعاصمة الرّومان القسطنطينية فقضوا اجيالاً متوالية وهم بين حرب وصلح تارة يجردون الجند وطورًا يعقدون الصلح . ففي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد كان ملك الفرس كسرى برويز وامبراطور الرّوم موريسيوس (والعرب تسميهِ موريقي) فثارت في بلاد الفرس ثورة داخلية آلت الى خلع كسرى فالتجأ الى موريسيوس فساعدهُ واعاده الى ملكهِ وكان ذلك داعيًا الى مصالحة وهدنة . وفي سنة ٦٠٢ م قتل موريسيوس قائد اسمه فوكاس (فوقا) وتولى هو الملك مكانهُ وكان على الفرس كسرى برويز المذكور وكان صهرًا لموريسيوس قد تزوّج ابنته ماريا فلما سمع بقتل حميهِ اعتبر معاهدة الصلح بينهما لاغية وحمل بجيشهِ على القسطنطينية متظاهرًا بالانتقام من قاتل حميهِ وهو يضمر الاستيلاء على مملكة الرّوم فظلّت القسطنطينية أثناء حكم هذا الامبراطور في حصار دائم فملَّ الناس حكومتهُ فثاروا عليهِ وارادوا خلعهُ واستدعوا هراكليوس (هرقل) ابن والي القيروان عن الرّوم فجاء سنة ٦١٠ م بعمارة بحرية ودخل القسطنطينية عنوة وقتل فوقا وتولى مكانهُ والفرس قد قاموا على الرّوم قومة واحدة فكان كسرى محاصرًا القسطنطينية بنفسهِ وكان قائد من قوادهِ محاصرًا بيت المقدس وآخر محاصرًا الاسكندرية والناس يفرّون من وجه الفرس من كل صوب فلم تأتِ السنة الخامسة من حكم هرقل حتى استولى الفرس على القدس وفي الثامنة (سنة ٦١٨) دخلوا الاسكندرية واستولوا على مصر السفلى فلاقوا من أهل الشام ومصر ترحابًا وارتياحًا لارتباطهم معهم ومع جندهم الخمسين برابطة الوطن الشرقي والعوائد الشرقية فلبثوا تحت نيرهم عشر سنوات ثم اشتغل الفرس بعصيان بعض ولاياتهم فضعف أمرهم فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجندهِ فاخرجهم من الشام ومصر واعاد المملكتين الى حوزة الرّوم ولم يكد يستريح هرقل من هذه الحروب حتى جاءه المسلمون في اوائل الهجرة مفتتحين وهو لا يزال في سوريا

وحصونهُ لا تزال متهدمة وجيوشهُ متبعثرة وسائر قواتهِ متضعضعة (١).

وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالي الروماني المقيم بدمشق بأمر امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم في القسطنطينية فترد الاوامر الامبراطورية من الامبراطور الى والي دمشق وهو يبلغها الى الملك غسان

وكان كرسي حكومة الغسانيين تارة في عمان بالبلقاء وطوراً في تدمر واحياناً في الجولان وتارة في بصرى عاصمة حوران في ذلك العهد

ففي نحو السنة السابعة للهجرة (٦٢٩ م) كان على الغسانيين في الشام ملكان في وقت واحد أحدهما الحارث بن ابي شمر والآخر جبلة بن الايهم (٢) وكان الحارث يقيم في بصرى وفي مكانها الآن قرية صغيرة اسمها اسكي شام أي الشام القديمة (٣) وسيأتي ذكرها وبجوار بصرى هذه دير بحيراء الذي نزل عنده ابو طالب ومعهُ ابن أخيهِ صاحب الشريعة الاسلامية يوم قدموا الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الاسلامية ببضع وعشرين سنة (٤)

واما جبلة فهو ابن عم الحارث المشار اليهِ وكان يقيم بالبلقاء

الفصل الثاني

﴿ فتاة غسان ﴾

وكان لجبلة هذا ابنة بارعة في الجمال مع تعقل ورزانة اسمها هند ربيت منذ حداثتها على ظهور الخيل فشبت مولعة بركوبها ومجاراة أعاظم الفرسان في حلبة السباق حتى طار صيتها في القبائل واصبحت حديث القوم ومضرب امثالهم قبل ان بلغت العشرين من عمرها

وكانت تقيم غالباً في صرح الغدير وهو قصرٌ بديعٌ شامخٌ بناه ثعلبة بن عمرو أحد ملوك غسان في القرن الرابع للميلاد (٥) في اطراف حوران مما يلي البلقاء من

(١) صموئيل شارب (٢) الأغاني جزء ١٤ (٣) دائرة المعارف (٤) ابن الأثير (٥) ياقوت

حجارة ضخمة فيه غرف واسعة تحدق بها الحدائق والبساتين تجري من تحتها الجداول والسواقي معظم ايام السنة

وكان بجوار القصر سهل واسع الارجاء خصصوه لسباق الخيل في مواقيت معينة من العام ينخرط في سلكه أمهر فرسان البلقاء وحوران وقد يقصده اهل البلاد الاخرى وكانت هند تنزل السباق بنفسها وكثيرًا ما احرزت قصب السبق . وكان ذلك السباق تحت رعاية والدها جبلة فيخلع على السابقين خلعًا يعينها قبل الشروع في السباق ومن نال قصب السبق احتفلوا بالباسه الخلعة في مساء يوم السباق احتفالاً يحضره الشعراء ينظمون القصائد في مدح السابق ثم تحمل هند الخلعة بيدها وتلبسها للسابق فاذا جاء يوم السباق تقاطر الفرسان من انحاء الشام وحوران والبلقاء وغيرها يتسابقون الى احراز تلك الجائزة

ففي سنة ٦٢٩ م (سنة ٧ للهجرة) بث جبلة المنادين ينبئون الناس بسباق ذلك الفصل وهو فصل الربيع وعين له الجائزة درعًا سليمانية كاملة وامر باعداد حاجيات الاحتفال بجوار صرح الغدير حتى اذا دنا اليوم المعين تقاطر الفرسان الى تلك الساحة زرافات ووحدانًا بخيولهم وسياسهم وفيهم جماعة كبيرة من الامراء الغسانيين وغيرهم بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلانس تشبهًا بالروم

وفي صباح يوم الموعد كانت الخيول مصفوفة بجانب السهل صفوفًا غير منتظمة والخيام منصوبة ليأوي اليها الفرسان أثناء السباق في صدرها خيمة جبلة وهي فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر ارضه مكسوة بالبسط والسجاد وقد علقت تلك الدرع في بعض أعمدته ليراها الفرسان ويشتاقوا الى احرازها

فلما اشرقت الغزالة واعدت الخيول شاعت اعين الفرسان نحو القصر في انتظار هند وابيها فاذا بالابواب قد فتحت وخرج جبلة وكان قد جاء من مساء الامس وبات في القصر استعدادًا لحضور السباق فلما أنبئ الناس بخروجه تأدبوا في موقفهم فمرّ بالحديقة ثم فتحت ابوابها فخرج جبلة وحاشيته وعلى رأسه تاج مرصع تنعكس أشعة الشمس عن جواهره فتبهر الابصار (١) وكان طويل القامة أصهب (اي يخالط بياض

(١) ابن الأثير

وجهه حمرة) ذو سبال وعثنون [1] عليه ازار من الديباج المزركش يغطي اثوابه ويديه ويجر وراءه . فمشي والخدم تقود افراسه وراءه معقودة اذنابها وعليها القلائد من الذهب والفضة حتى جاء فسطاطه فجلس في صدره على سرير من خشب العرعر محلى بالذهب وساقوا خيله الى مرابطها في خيمة خاصة بها ووقف في باب الفسطاط الحاجب ووراءه جماعة من الجاسية بعضهم يحمل سيف جبلة وآخر يحمل قوسه ولم يكد يستوي على سريره حتى استأذن الشعراء بالدخول عليه فأذن لبعضهم فدخلوا والقوا التحية وتربعوا على البساط في أرض الفسطاط فلما رآهم جبلة تذكر حسان بن ثابت وكان يختلف اليه كثيرًا ويمدحه فيصله بالهبات الوافرة [2] ولكن حسانًا لما اعتنق الاسلام أقام في المدينة وانقطع عن الغساسنة وغيرهم

وبعد هنيهة خرجت هند بنت جبلة من قصرها تحف بها جواريها وقد يعرف الناس خروجها برائحة طيبها قبل ان يروها فمرّت بحديقة القصر حتى خرجت من بابها واعين الفرسان شاخصة نحوها ولكثرهم اذا يأتي السباق يجتمع بنظرة منها . فمشت من باب الحديقة مشية تدل على صحة ورزانة وكانت ممشوقة القوام ممتلئة الجسم مستديرة الوجه صحيحة اللون مشربة بالحمرة سوداء العينين مع كحل طبيعي لا يكاد يصدق الناظر اليها الا انها مكحلة بالاثمد وكان شعرها اسود مضفورًا قد أرسلت ضفائره خصلة واحدة على ظهرها وفي اطراف الضفائر قطع من النقود الذهبية أو الحلى وفي أذنيها قرطان في كل منهما لؤلؤة كبيرة وجعلت على رأسها تاجا صغيرًا مرصعا وضعته مائلا نحو اليمين . وفي عنقها عقد من المرجان وفي أحد معصميها دملج من الذهب عريض مرصع بالياقوت وفي اصابعها الخواتم من العقيق والزمرد وقد أرخت من كتفها رداء حريريًا مخططًا بالوان بديعة يغطيها الى الرسغ فلا يظهر من اثوابها الا اسفل الحذاء . فتخلف بعض جواريها في الحديقة ورافقتها اثنتان منهن الى الفسطاط وعيون الناس شاخصة اليها عن بعد وهي تنظر اليهم بطرف عينها حياء ورهبة حتى دخلت الفسطاط فترحب بها والدها واجلسها الى جانبه وكان كثير الولع بها حتى تسلطت على عقله ورأيه وكثيرًا ما كان يستشيرها في اموره ثم وقف الاتباع والخدم خارج الفسطاط ومعهن خادمتاها وكان مقعد جبلة وهند هنالك بحيث يشرفان

(1) الأغاني جزء ٢ (2) الأغاني جزء ١٤ و ٢

على ساحة السباق و بريان المتسابقين في اوّل الشوط

ثم سمعوا جلبة وقيل ان ثعلبة بن الحارث بن أبي شمر صاحب بصرى قد جاء بحاشيتهِ فلما سمعت هند بقدومهِ غلب عليها الانقباض حتى كاد يظهر على وجهها ٠ أما جبلة فنهض عن سريرهِ الى باب الفسطاط لاستقبال ثعلبة وكان ثعلبة شاباً قصير القامة خفيف العضل نحيف الوجه كبير العينين والأذنين ليس عليهِ من مهابة الملوك الا ملابسهُ الفاخرة فقد كان لابساً طيلساناً من الحرير مزركشاً يجر وراءه على عادة الرومان وسيفهُ أعقف مرصعٌ يتدلى من حمائلهِ الى يساره وقد اوقف طرفي شاربيهِ انفة وكبرًا واعتدادًا بمنصب والدهِ

وكان الغسانيون يتحدثون بهند وثعلبة ويزعمون انهما لا بدّ من تزوجهما نظرًا لما بينهما من النسبة والنسب ولكن ذلك لم يخرج الى حيز الوجود ولا تخاطب الوالدان بدأ بهِ على ان ثعلبة كان كثير الاعتداد بنفسهِ وربما حدثتهُ خيلاؤهُ ان يترفع عن هند لو خوطب بشأنها ٠ أما هي فكانت خالية الذهن من أمر الزواج ولكنها كانت تستنكف من اخلاق ابن عمها ولا تميل اليهِ ولولا رابطة القرابة ما خاطبتهُ ولا جالستهُ مطلقًا

فلما وصل ثعلبة استقبلهُ جبلة وعانقهُ ورحب بهِ وادخلهُ الفسطاط واجلسهُ على سرير بجانب سريرهِ واخذ يسألهُ عن والدهِ وسبب تخلفهِ عن ذلك السباق فاعتذر عنهُ انهُ في شاغل خصوصي حال بينهُ وبين ما يريد وكان جبلة انما يكرم ثعلبة اكرامًا لمنزلة والدهِ ومراعاة لآداب الملوك فيما بينهم

أما هند فسلمت على ثعلبة سلامًا اعتيادياً وجلست تتشاغل بالتفرج بمنظر ذلك السهل الواسع وما يتراءى وراءه من الجبال وتتظاهر انها مهتمة بمنظر الخيول المتزاحمة هناك

أما ثعلبة فكان يخاطب عمهُ وعيناه على هند لا حبًا لها بل رغبة في اعجابها بهِ وهي كلما التمس اعجابها زادتهُ ازدراء فلما اتم حديثهُ مع عمهِ تحوّل نحوها فسألها عن عزمها هذه المرة على النزول في ساحة السباق فاجابت وهي تنظر الى الميدان انها لا تنوي النزول الآن ولكنها ربما نزلت اذا رأت ما يشوق الى ذلك

ولما اقترب الضحى خرج بعض امراء جبلة واخذوا يهيئون معدات السباق

ويربطونها فنصبوا حبلاً يقف الفرسان عنده اذا عزموا على السباق فيكونون صفا واحدًا على استواء واحد ثم تناول احدهم قصبة طويلة اعدت لذلك اليوم وسار بها الى آخر الساحة فنصبها هناك ممن سبق اقتلعها واخذها ليعلم الحاضرون انه السابق من غير نزاع فيقال لمن اقتلع تلك القصبة انه أحرز قصب السبق [1]

الفصل الثالث

السباق

فلما تمت المعدات على هذه الصورة نودي في الناس ان يتهيأوا للسباق فركبوا جميعًا وجاؤوا واحدًا واحدًا يلقون التحية على ملكهم جبلة فاذا وصل احدهم امام الفسطاط ترجل ودخل فقبل يد جبلة ويد ثعلبة وخرج وكانت هند أثناء ذلك تنظر في وجوه الداخلين كانها تتوقع رؤية فارس تعرفهُ وكانت تفعل ذلك وتحاذر أن يشعر بها أحد فوقع نظرها على احدهم وكان أحسنهم وجهًا في نحو العشرين من عمره يظهر من لباسهِ وملامح وجههِ انهُ ليس من بني غسان وكان ربع القامة أسود العينين حادهما لابسًا قباء عربياً وعلى رأسهِ كوفية من الحرير المزركش شدَّ فوقها العقال فحالما رأتهُ ظهرت عليها البغتة وعلا وجهها بعض الاحمرار ولكنها تجاهلت وتشاغلت ببعض الشؤون فتقدم الشاب الى جبلة فقبل يده وخرج ولم ينتبه الى ثعلبة اما سهوًا او عمدًا فعظم ذلك على ثعلبة ونظر الى هند فاذا هي تشيع ذلك الشاب بنظرها حتى خرج من الفسطاط فاستيقظت عوامل الغيرة في قلبهِ ولا داعي لتلك الغيرة غير ما فطر عليهِ من الحسد والكبرياء لكنهُ لم يفه بكلمة

ثم مرَّ باقي الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا الى الحبل فلم تكن تسمع الاَّ قرقعة اللجم وصهيل الخيل واصوات حوافرها تفحص بها الارض كأنها تلح في طلب السباق ليطلق لها العنان فتجري في ذلك السهل الواسع الارجاء وفيها الادهم والاشقر والمحجل والجنب والمجبب واليعبوب والكميت وغير ذلك من أصناف الخيل

(١) صناجة الطرب

وفيما كان الفرسان يتهيأون للسباق كان جبلة وهند وثعلبة يتداولون في من عسى ان يكون السابق في ذلك اليوم فقال جبلة ما ظنكما ان يكون السابق من هؤلاء الفرسان اليوم فيفوز بهذه الدرع فلم يجب ثعلبة بشيء ولكنه اعتدل في مجلسه واخذ يلاعب شاربيه ولسان حاله يقول انا هو السابق ولا أحد سواي وكان كثيرًا ما يحرز قصب السبق في مثل هذا السباق ولكنه قلما أحرزه عن استحقاق لان المتسابقين اذا عرفوه وعرفوا منزلته من جبلة تساهلوا في الجري معه فيسبقهم ويظن انه انما سبق لمهارته وسرعة فرسه . فلما لم يجب ثعلبة قال جبلة ما ظنك براكب ذلك الجواد المحجل اني اراه يكاد يطير عن ظهره وهو الذي نال الجائزة في السباق الماضي

فخفق قلب هند عند ذكره أما ثعلبة فهز رأسه مستهزئًا وقال هذا غلام غرٌّ يدعي الفروسية وهي براءة منه ولولا الصدفة العمياء ما استطاع نيل تلك الجائزة ولو كنت في مقام ملك الملقاء (يريد جبلة) وكان هذا السباق تحت رعايتي ما اذنت بأن يكون بين فرسانه غريب لا نعرف اصله ولا يليق بنا ان ندخله فسطاط الملك وابنته جالسة لأنه لا يعرف مقام الملوك . فادركت هند ان كلام ثعلبة صادر عن غيرة لأنه لا يطيق ان يمدح أحد في مجلسه

أما جبلة فاتخذ كلامه مأخذ التوبيخ ولكنه جبلة يحمل الاجلال لمقامه مع ما نه فيه حدة الشباب وقلة اختبارهم فاجابه بلطف « وما يمنع ان يكون غريبًا ويدخل علينا ونحن بنو غسان يضرب المثل بحسن وفادتنا وإكرامنا للغريب » فخجل ثعلبة وسكت فاستأنف جبلة الحديث قائلاً ولكني مع ذلك استغرب امر هذا الشاب لسكناه بيننا مسكن الغرباء وكثيرًا ما شاهدته وقد خرج للصيد ومعه حاشية كأنه من ابناء الامراء فمن اي القبائل يمكن ان يكون على اني اراه مبالغًا في اخفاء امره وقد سألت عنه بعض امرائنا غير مرة فلم ينبئوني بشيء عن اصله ولا يعلم أحد ما مقامه بيننا ولكني سمعتهم ينادونه حمّادًا

فظن ثعلبة ذلك حجة للفوز في جداله فقال وهذا مما يحقره في عينيَّ يا عمّاه فانه لا يبعد ان يكون جاسوسًا مرسلاً من ملوك الحيرة فهم ما انفكوا يناوئوننا ويريدون بنا شرًا وخصوصًا بعد أن نالهم ونال الفرس من حملات جنودنا وجنود الرُّوم هذين العامين

فأغضى جبلة عن الجواب ثم جاءه محرّزان الخيول معه فكيف يرى المالك أن يكون سباقها . قال يقسم الخيالة خمسات يتسابق كل خمسة منهم في شوط على حدة فمن سبق أفرد جانباً حتى لا يبقى أحد لم يجرِ في حلبة السباق ثم يتسابق السابقون جميعاً فمن احرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة . فعاد المحرز وأبلغ الامراء المنوط بهم أمر السباق وترتيبه فقسموا الخيالة خمسات فجرت اول خمسة منهم حتى توارت عن النظر لأن مجال السباق يزيد على الميلين فعاد واحد منهم يحمل القصبة فتناولها رجل خفيف العضل سريع الجري معدّ لمثل ذلك فاسرع بها وغرسها مكانها واجلسوا السابق الى جانب وهكذا كل خمسة على حدة

أما هند فكانت عيناها شاخصتين نحو حمّاد فلما جاء دوره تبعته بصرها حتى توارى و رفاقه ولبثت تنتظر عودتهم فعادوا والقصبة في قبضته فافرد مع السابقين . فقال جبلة لثعلبة أرى الرجل قد سبق فاجاب والحسد ملء صدره أبعدُ من يسبق هؤلاء الخمسة سابقاً بل لنرى سباقه مع السابقين . فالتفتت هند وقالت برزانة وهدوّ كمن لا يهمهُ سبق حماد اولم يسبق « وما يمنع ان يكون سابقاً لهم جميعاً كيف نحكم عليه ونحن لا نعلم شيئاً من ضعفه او قوته . نعم يسوءنا ان يكون السابق غريباً ولكن ما الحيلة اذا سبق أنفل هذا العار على بني غسان »

فكان لكلام هند وقع السهام على قلب ثعلبة وانقدت الغيرة في صدره فتبسم كأنه يستخف بقولها وقال « لا يكون له مسابق سواي ولا علامة الفروسية من هذا اليوم » قال ذلك وملامح الغدر وسوء القصد ظاهرة على وجهه فخافت ان يكون قد نوى بالرجل سوءاً فلا يزيد دفاعها الا غضباً وحقداً فسكتت

وعند الظهيرة او نحوها انقضت الاشواط الصغيرة فاجتمع عشرون سابقاً فامر جبلة بالاستراحة لتناول الطعام وعلف الخيل

وكانوا قد أعدوا الاسمطة في صرح الغدير وذبحوا الذبائح فجاءت الاخونة يحملها الرجال الى الخيم على كل خوان منها جفنات وفيها الالوان العربية والرّومية و بعض الخمور

وأمر جبلة ان يجلس الفرسان السابقون معه على خوانه وكان خوانه من ذهب

خالص وجفنات من فضة (١) فجاؤوا ومعهم حماد فلما وقع نظر ثعلبة عليه جعل يتأمله بعين النقد وحماد لا يلتفت اليه فجلسوا على الاسطلة حول السماط ركعًا على ركبة واحدة واخذوا في الاكل واراد جبلة أن يقف في خدمتهم على عادة كرام العرب مع ضيوفهم فاستحلفوه ان لا يفعل او يكفوا عن الطعام فاطاع وجلس معهم والى يمينه ابنته هند والى يساره ابن عمه ثعلبة ولما اكلوا الطعام وتناولوا الحلوى وبعض الخمر تلا بعض الشعراء قصيدة ذكر فيها كرم الغساسنة وحسن ضيافتهم فاطرق جبلة خجلا لأنه يستنكف من ان يسمع مدحه باذنه فلما رأى الشعراء منه ذلك نهض أحدهم وقال مهما بالغنا في مدح ملوك غسان لن نأتي بشيء مما قاله فيهم حسان بن ثابت القائل

لله در عصابة نادمتهم * يومًا بجلق في الزمان الأول

أولاد جفنة عند قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل

بيض الوجوه كريمة احسابهم * شم الانوف من الطراز الأول

يسقون من ورد البريص عليهم * كأسًا يصفق بالرحيق السلسل

يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل

فأمر جبلة حاجبه فاعطى كل شاعر صرة فيها مائتا دينار وخمسة أقمصة (٢) وكانت الشمس قد دنت من الاصيل والخيل استراحت واستراح فرسانها فنودي في الناس ان هيا الى السباق وكان حديث القوم « من يا ترى سينال قصب السبق من هؤلاء المشرين » وكان حماد أقلهم كلامًا وأكثرهم تأملا كأن في نفسه شيئًا يكتمه وقضت هند ساعة الغداء وما بعدها تتأمل وجهه خلسة فآنست فيه جمالاً وكمالاً ورزانة وصعة وكان ثعلبة يراقب حركاتها ونظراتها وينظر الى حماد نظر الازدراء وكان حديثه قاصرًا على الاطناب بما فعله والده أو ما مر به هو من غرائب الوقائع كقوله مثلاً انه ذهب لصيد فلقيه أسد فلم يفر منه بل هجم عليه وضربه فقتله او ما شاكل ذلك من الاحاديث الملفقة وكان الحضور يصغون الى حديثه ويؤمنون اقواله اجلالاً لمقام والده وأكثرهم لا يصدقونه وهو يسرد الحكاية وينظر الى هند يلتمس اعجابها او استغرابها وهي لا تكترث . أما حماد فلم يكن يظهر اكتراثًا

(١) الأغاني ٢ (٢) الاغاني ج ٢٠٠٢

به ولا انشاها له لأنه كان حرًا لا يطيق التلفيق

فلما نودي في العود الى السباق خرج الفرسان العشرون فقال جبلة أرى ان يقسموا الى اربعة اقسام فيتسابق كل خمسة منهم في شوط فمن سبق افرد ثم يتسابق السابقون وهم اربعة فمن سبق فله الجائزة فتسابقوا خمسات فافرد اربعة وحماد منهم كل ذلك وثعلبة لم يركب فرسه ولا نزل السباق انفة واستكبارًا وهو يرجو ان لا يكون حماد من السابقين فلما رآه منهم اوجس خيفة ولو علم انه سيسبق ما عرض نفسه لمسابقته ولكنه كان لا يزال آملاً ان يسبقه مسابقوه فيحوهو من خطر الفشل

ثم اصطف الاربعة بازاء الخيل ووقف الناس على جانبي الميدان ينتظرون نهاية هذا الشوط فاعتدل الفرسان على صهوات افراسهم ووقف جبلة وهند وثعلبة بباب الخيمة ينظرون اليهم وقلوبهم تخفق في انتظار عاقبة ذلك السباق فاطلق الفرسان اعنة خيولهم والناس يتبعونهم بانظارهم وكان جواد حماد متأخرًا عنهم فسرّ ثعلبة بتأخره ظانًا انه سيفشل ولكن هندًا احست ان تأخره لم يكن الا ضربًا من الفروسية فلما تواروا عن انظارهم وقفوا ينتظرون رجوعهم فاذا حماد قد عاد يحمل القصبة حتى اذا دنا من خيمة جبلة سلمها الى هند فصاح الناس صيحة التبشير بالسبق فتناولت هند القصبة وترجل حماد وقبل جواده بين عينيه وكان عند باب الخيمة رجل يحمل وعاء فيه صبغ احمر من دم الصيد ليخضب به صدر الفرس اشارة الى سبقه [1] فلما تقدم ليصبغه اعترضه ثعلبة وقال مهلاً ان السباق لم يتم بعد فعجب حماد وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب فقال جبلة قد وعدنا ابن عمنا ثعلبة ان يبارز السابق فلم يجب حماد بل عاد الى صهوة فرسه ووقف ينتظر ثعلبة فجيء اليه بفرسه وكان من احاسن الخيل عليه قلادة من الذهب الخالص وسرج مرصع بالحجارة الكريمة فركب وهو يكاد يتميز غيظًا وكانت هند في اثناء تلك البرهة فرحة بفوز حماد فشق عليها منازلة ابن عمها له ولكنها علمت نفسها بمثل الناعي وهي تزداد تعجبًا مما تشاهده من حقد ثعلبة على حماد وليس بينهما ما يستدعي ذلك ولكن كثير النفس لا يستطيع تصور هذه الدنايا . ثم أمر جبلة فنودي في الناس ان السباق الآن بين حماد والامير ثعلبة بن الحارث فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط وكان بعض الذين فاز حماد

(١) صباحة الشرب

عليهم يودون ان يكون ثعلبة السابق وبعضهم يتمنون السبق لحماد ليكون لهم اسوة بابن الحارث صاحب بصرى

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها ان فرس حماد قد تعب وفرس ثعلبة لا يزال نشيطاً فلم يمض القليل حتى عاد حماد وفي يده القصبة ووراءه ثعلبة قد ساق جواده الى الفسطاط وابتدر عمه قائلاً انه لم يسبقني هو بل فرسه فانه من خيل الجن او هو من صلب داحس فرس قيس بن زهير ولو ركبته انا ما استطاع أحد سبقي فسمعه حماد يقول ذلك فنزل عن فرسه وقال له اليك فرسي فاركبه واعطني فرسك وكانت هند تنظر اليهما فخافت ان تعود العائدة على حماد وقد شعرت ان حبه تمكن من قلبها في تلك الساعات القليلة ما لا يكاد يتأتى باعوام

أما ثعلبة فقال ما قاله انتحالاً لعذر يغطي به خجله وهو لا يظن حماداً يعطيه فرسه فلما تنحى له عنه لم ير مندوحة عن الركوب فركبا ونزلا الى ساحة السباق حتى توارا عن الابصار فلبث الناس ينتظرون عودتهما وكأن على رؤوسهم الطير وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فارسلت بقية اشعتها الارجوانية على تلك السهول وما وراءها من الجبال والاودية وقد هدأت الطبيعة وسكن جاش النهار

فلما ابطأ الفارسان شاعت ابصار الناس نحو حلبة السباق وملوا الانتظار حتى هم بعضهم بأن يلحق بهما ليرى سبب ذلك التأخر وكثر الهرج والمرج وكان اكثر الناس قلقاً هند فقد شاعت عيناها وخافت غدر ثعلبة ثم ما لبثت ان شاهدت الغبار وبان من ورائه فارسان هما حماد وثعلبة والقصبة في يد حماد فما صدقت ان رأته وقد كاد قلبها يطير من الفرح أما ابوها فشق عليه ان يكون السابق رجلاً غريباً يفوز عليهم جميعاً ولكنه ترحب به فترجل الفارسان ونزلا الى الخيمة فاراد حماد ان يعتذر عن ثعلبة فقال « والله اني لم اسبق الامير ثعلبة الا بقضاء وقدر لانه فارس مبرز يحق لغسان الافتخار به ولو تعود ركوب فرسي قبل الآن لسبقني » فلم يجب ثعلبة ببنت شفة ثم ناول حماد القصبة الى هند فرأتها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بنصال براها بري القلم فارادت السؤال عن سبب ذلك فنظر حماد اليها نظرة خفية كأنه يقول لها لا تفعلي فسكتت وفي نفسها ان تعرف سبب بريها .

ثم تقدم حامل الصبغ الاحمر فخضب به صدر فرس حماد وكان الظلام قد سدل

عليهم يودون ان يكون ثعلبة السابق وبعضهم يتمنون السبق لحماد ليكون لهم اسوة بابن الحارث صاحب بصرى

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها ان فرس حماد قد تعب وفرس ثعلبة لا يزال نشيطاً فلم يمض القليل حتى عاد حماد وفي يده القصبة ووراءه ثعلبة قد ساق جواده الى الفسطاط واتدرعمه قائلاً انه لم يسبقني هو بل فرسه فانه من خيل الجن او هو من صلب داحس فرس قيس بن زهير ولو ركبته انا ما استطاع أحد سبقي فسمعه حماد يقول ذلك فنزل عن فرسه وقال له اليك فرسي فاركبه واعطني فرسك وكانت هند تنظر اليهما فخافت ان تعود العائدة على حماد وقد شعرت ان حبه تمكن من قلبها في تلك الساعات القليلة ما لا يكاد يتأتى باعوام

أما ثعلبة فقال ما قاله انتحالاً لعذر يغطي به خجله وهو لا يظن حماداً يعطيه فرسه فلما تخلى له عنه لم ير مندوحة عن الركوب فركبا ونزلا الى ساحة السباق حتى توارياعن الابصار فلبث الناس ينتظرون عودتهما وكأن على رؤوسهم الطير وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فارسلت بقية اشعتها الارجوانية على تلك السهول وما وراءها من الجبال والاودية وقد هدأت الطبيعة وسكن جاش النهار

فلما ابطأ الفارسان شاعت ابصار الناس نحو حلبة السباق وملّوا الانتظار حتى همّ بعضهم بأن يلحق بهما ليرى سبب ذلك التأخر وكثر الهرج والمرج وكان اكثر الناس قلقاً هند فقد شاعت عيناها وخافت غدر ثعلبة ثم ما لبثت ان شاهدت الغبار وبان من ورائه فارسان هما حماد وثعلبة والقصبة في يد حماد فما صدقت ان رأته وقد كاد قلبها يطير من الفرح أما ابوها فشق عليه ان يكون السابق رجلاً غريباً يفوز عليهم جميعاً ولكنه ترحب به فترجل الفارسان ونزلا الى الخيمة فاراد حماد ان يعتذر عن ثعلبة فقال « والله اني لم اسبق الامير ثعلبة الاّ بقضاء وقدر لأنه فارس مبرز يحق لغسان الافتخار به ولو تعود ركوب فرسي قبل الآن لسبقني » فلم يجب ثعلبة ببنت شفة ثم ناول حماد القصبة الى هند فرأتها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بنصال براها بري القلم فارادت السؤال عن سبب ذلك فنظر حماد اليها نظرة خفية كأنه يقول لها لا تفعلي فسكتت وفي نفسها ان تعرف سبب بريها .

ثم تقدم حامل الصبغ الاحمر فخضب به صدر فرس حماد وكان الظلام قد سدل

ولكنني أعجب لتستره وقد فاتني ان اسأله عن اصله على انني سأرسل اليه واسأله في فرصة اخرى

فقال ثعلبة لا بد من البحث عنه لئلا يكون جاسوسًا او عينًا علينا من قبل اللخميين ملوك الحيرة وكأنني ارى في لهجته ما يدل على ذلك

قال جبلة ولكن ملك العراق قد خرج من ايدي اللخميين لما علمت من مقتل النعمان بن المنذر و ولاية اياس بن قبيصة من قبيلة طي و زد على ذلك ان هذا الشاب لا يظهر في هيئته وشكله ما يدل على جاسوسيته فهو اقرب الى اولاد الامراء منه الى السوقة فاذا كان من اهل الحيرة فهو من امرائهم لان الهيبة ظاهرة على وجهه فشق ذلك المدح على ثعلبة فعمد الى الروغان فقال وهل يؤخذ الناس بظاهرهم فكم من رجل تظنه ملاكًا فاذا خبرته ظهرت لك عيوبه فيجب من اسافل السوقة فارى ان نحمله على الاقرار بحقيقة حاله قسرًا فاذا كان من اهل الحيرة اخرجناه الى بلاده واذا كنت تستنكف من اخراجه فوالدي يخرجه لانه مقيم بقرب بصرى

. قال سننظر في ذلك غدًا فلا نعدم وسيلة نستريح بها وقضيا بقية تلك الليلة بالاحاديث المتنوعة ثم ذهب كل منهما الى منامه في غرفة خاصة بالقصر

الفصل الرابع

هند في غرفتها

أما هند فدخلت القصر فلاقتها والدتها وكانت شديدة الولع بها لانها رزقت اولادًا كثيرين لم تهنأ منهم بسواها فقبلتها وصعدت بها الى طابق علوي ودخلت بها الغرفة وامرت الخدم فاعدوا لها الفراش ثم جاءتها الماشطة بثياب النوم فنزعت حليها والبستها جلبابًا واسعًا من الحرير الناعم الشفاف ثم حلت خصلة شعرها ونزعت ما في ضفائرها وعلى صدرها و في اذنيها ومعصميها من الحلي واستخرجت خلاخلها واعدت لها السرير وهو من خشب الارز في اجمل ما صنع الصانعون عليه الوسائد الحريرية الملونة غطاؤها من ابدع انواع النسيج صنع القسطنطينية وكان في الغرفة مشمعة فيها

بضع عشرة شمعة تفوح منها رائحة العنبر فقد كان من ضروب البذخ عندهم ان يزجوا الشمع بشيء من الاطياب فاذا انير تصاعدت عند احراقهِ رائحة الطيب وكان في جدران الغرفة صورٌ جميلة أكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبهِ وصعوده وكلها متقنة التصوير ملوَّنة بالوان طبيعية وفي بعض جدران الغرفة مرآة هي عبارة عن صفيحة مستديرة من الفضة مصقولة صقلاً خصوصياً حتى صارت كالزجاج تعكس النور وتري الاشباح كمرآة هذه الايام لان الناس لم يكونوا يعرفون المرآة الزجاجية بعد

فبعد ان لبست هند جلبابها وقفت امام المرآة فاصلحت شعرها وثوبها وذهبت الى السرير فجلست عليهِ وهي الى تلك الساعة لم تنبس ببنت شفة وكانت والدتها منذ دخلتا الغرفة جالسة على وسادة تتأمل بجمال ابنتها وقوامها وبما وهبتها العناية من الصحة والعقل وفي نفسها شيء تنتظر فرصة لتبوح بهِ وكانت هند اثناء تبديلها ثيابها غارقة في بحار الافكار تراجع ما مرَّ بها في ذلك النهار من الغرائب وكلما تذكرت حمادًا وسبقهُ لثعلبة وما اظهره هذا من الحسد وما ادعاه من الفروسية وكيف انهُ عاد فشلاً ازدادت احتقارًا لهُ ونفورًا منهُ وحباً لحماد ولكنها كانت مع ذلك شديدة الحرص على منزلة والدها وشرف قبيلتها وخافت ان يتعلق قلبها بحماد ثم تجد انهُ من اصل دنيء فيحول ذلك دون ارضاء والدها وسائر اهلها فتقع في الشقاء وكانت كلما تصوَّرت ذلك اقشعرَّ جسمها فتعلل نفسها بان من كان في مثل هذه الشهامة وهذه الاخلاق مع ما يتجلى في وجههِ من الهيبة والوقار لا يمكن ان يكون دنيء الاصل ثم تعدّ نفسها بكشف حقيقة حالهِ عند ما يلتقيان في دير بحيراء

وكانت والدتها واسمها سعدى في الخامسة والاربعين من عمرها لا يزال الجمال ظاهرًا في وجهها فقد كانت من اجمل بنات غسان وكثيرًا ما تغزَّل بها شعراؤهم ولما تزوجها جبلة حسده كل اهل عشيرتهِ عليها

ثم جلست هند الى السرير بجلبابها وقد ارخت شعرها وحسرت عن زنديها وكانا مستديرين ممتلئين مشرقين يزينها الوشم على اليمين منها صورة الصليب وعليهِ السيد المسيح مصلوبًا وعلى اليسار صورة مريم العذراء تحمل طفلها . ولو رآها حماد في تلك الحال لنطق بقول الشاعر

نالت على يدها ما لم تنله يدي * نقشًا على معصم اوهت بو جلدي
كأنهُ طرق نمل في انامله * او روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها * فألبست زندها درعًا من الزرد

فاتكأت الى وسادة من ريش النعام أهدتها اياها امرأة والي دمشق وألقت رأسها على كفها التماسًا للراحة وقد ضايقها الجلوس معتدلة بين الرجال طول ذلك النهار فلبثت صامتة لا تتكلم وافكارها تائهة فتذكرت القصة التي سلمها اليها حماد عند سبقو الاخير وكيف انها مبرية مع ما لحظت على وجه ثعلبة من دلائل السوء والحقد فارتابت في امره وودت السؤال عن سبب ذلك فمنعها حماد كما تقدم

ثم ابتدأت والدتها بالحديث قائلة لماذا لم تنزلي اليوم للسباق يا هند

قالت لم أرَ مسوغًا لان الفرسان كانوا كثيرين وطال الجدال بين المتسابقين حتى غابت الشمس فلم يبق وقت لركوبي

قالت وما الذي دعا الى هذا الجدال

قالت بعد ان تمّ السباق اراد ثعلبة مسابقة السابق فعاد فشلاً فزادنا خجلاً

فتبسمت سعدى تبسماً خفياً وقالت رأيت الفرسان عديدين فمن نال قصب السبق منهم . قالت وقد ابرقت أسرتها رغماً عنها ناله شاب غريب اسمهُ حماد لا يعرف احد حسبهُ فشق ذلك على والدي وابن عمي اذ لا يليق ان يكون السباق في حمانا ويفوز بقصب السبق غريب

قالت ومن هما الفارسان اللذان تسابقا آخر النهار

قالت هما ابن عمي ثعلبة وحماد

قالت رأيتهما عادا مرّتين

قالت تسابقا اولاً فسبق حماد فانكر ثعلبة ذلك على نفسهِ ونسب السبق الى الفرس فتنازل لهُ حماد عن فرسهِ وركب هو فرس ثعلبة وبالينا بقينا على العار الاوّل لأن ثعلبة عاد مخزولاً هذه المرة ايضًا ومما استغربتهُ ان حمادًا جاء بالقصبة مبتورة كأنها ضربت بسيف

فضحكت سعدى وقالت ألم يخبركم بسبب بريها . قالت لا وكنت عازمة على البحث عن سبب ذلك فرأيت حمادًا لا يريد فكففت

فقالت بورك فيه انهُ بالحقيقة شهمٌ كريم الاخلاق ولا ريب عندي في انهُ رفيع النسب

فطربت هند لامتداح والدتها حمادًا وقالت ما معنى ذلك يا أُمّاه هل تعلمين من أمر هذه القصبة شيئًا

فهمست في أذنها قائلة نعم اعلم يا هند ان تلك القصبة قد قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة . فبغتت هند واشتاقت الى معرفة تفصيل الخبر فاعتدلت على سريرها وقالت كيف وقع ذلك

قالت ان ابن عمك كان عازمًا على الفتك بذلك الشاب سامحهُ الله والله لو فعل ذلك لالبسنا عارًا لا تمحوه الايام

فازدادت هند استغرابًا وقالت لها وما ادراك بذلك يا أُماه

قالت رأيتها رأي العين

فقالت وكيف تيسر لك رؤيتها ونحن أقرب اليها منك ولم نرها

قالت تمهلي لأقص عليك الواقع فاصغت هند بكل جوارحها فنهضت سعدى الى الباب فاغلقتهُ وجلست تقص الخبر وتحاذر ان يسمعها احد فقالت : لما خرجتم جميعًا الى الخيام وخرج اكثر من في القصر اليكم بقيت انا وسليمة المولدة وبعض الخدم وكنا نرى المتسابقين يبدأُون بالشوط ولكننا لا نرى آخره فخرجنا وفي نفسي ان ارى حلبة السباق وكيف يقتلع السابق القصبة فانهُ منظر يفرح القلب اذ ليس ألذّ من النصر .

فخرجنا من بعض ابواب الحديقة الى البساتين المجاورة ومررنا بضفة الغدير لا يرانا أحدٌ حتى وصلنا الى مكان تحت شجرة اشرفنا منهُ على حلبة السباق ونحن على مرمى حجر منها نَرى ولا نُرى فلما كان السباق الاخير شاهدت ابن عمك متأخرًا عن حماد لا لعجز فرسه لأننا رأينا الفرس يستحث فارسهُ ليطلق لهُ العنان وهو يمسكهُ كأنهُ خاف الوقوع عن ظهره ولولا ذلك لكان هو السابق والسبق في الميدان للافراس اذا احسن فرسانها ركوبها واستطاعوا الثبات على ظهورها فخوف ثعلبة الوقوع عن فرس حماد اكثر عارًا عليه من تأخره عنهُ أما حماد فاطلق لفرسه العنان وكان يستقبل عرض الفلاة كما تستقبل الام رضيعها حتى وصل الى القصبة وفيما هو يقتلعها رأينا ثعلبة

هاجمًا عليهِ وقد شهر سيفهُ وهمّ بقتلهِ فاستلقي حماد السيف بالقصبة فقطعت ثم رأينا حمادًا اقتلع ثعلبة من صهوة جوادهِ ورمى بهِ الارض وجثا على صدره فخفنا ان يقتلهُ ثم سمعنا ثعلبة يستجير بهِ ويستعطفهُ فنهض عنهُ وتصافحا وتعانقا وعادا

فما اتمت سعدى حديثها حتى اختلج قلب هند اعجابًا بشهامة حماد وازدادت احتقارًا الثعلبة وقالت لوالدتها اهذا هو ثعلبة بن الحارث ايليق بغسان ان يكون ابن ملكها خسيسًا الى هذا الحد أيليق بهِ ان يغدر بشاب في ريعان الشباب ولا ذنب لهُ الا انهُ افرس منهُ وزد على ذلك انهُ نزيل في بلادنا ولهُ علينا حق الجوار

فرأت والدتها في كلامها حقاً ولكنها لم تشأ ان تمكن البغض في قلبها وحسبت بنفسها الف حساب من جملتها ان ثعلبة ارفع بني غسان مقامًا وليس اقرب منهُ للزواج بهند ولعل جبلة يرغب في ذلك فاذا نفرت منهُ كان نفورها سببًا لتنغيص عيش ابنتها فقالت لها لا بد لنا من تأنيبهِ ولومهِ حتى يرجع الى الاخلق بهِ وبمن كان في مقامهِ ونسبهِ

فسكتت هند لا عن اقتناع ولكنها صبرت نفسها لترى ما يكون من امر حماد غدًا وهي تعلم ان ذهابها الى الدير قد لا يتيسر بغير والدتها فلا يخلو ان تلحظ امر اجتماعها بحماد فماذا تقول لها لو سألتها عنهُ وتعلم ايضًا ان والدتها حادة الذهن سريعة الخاطر دقيقة الملاحظة ففكرت في الامر قليلاً فرأت ان لا بد لها من استطلاع والدتها والاستعانة بها على نيل حماد وقد ارتاحت الى هذا الرأي لما عاينت من انصاف والدتها وامتداحها شهامتهُ ولكنها ودّت قبل كل شيء ان تجتمع بهِ على انفراد لتطلع منهُ على حقيقة حالهِ وتستطلع افكاره ثم تطلع والدتها على الامر بالاسلوب الذي تختاره

فقالت لها مضت عليّ مدة طويلة يا أُمّاه وقد نذرت نذرًا لدير بحيراء لم اوفهِ بعد ويلوح لي ان ما رأيناه في هذا النهار من السوء انما كان لتأخرنا عن وفاء النذر

قالت لعلهُ ذلك فان لهذا الدير كرامات كثيرة ولا صبر لهُ على تأجيل النذور فاسرعي في ايفائهِ . قالت ارى ان اذهب اليهِ غدًا ان شاء الله

قالت ولكنني لا استطيع الذهاب معك في الغد لاني ذاهبة مع والدك الى البلقاء فاذا أجلتِ الذهاب الى بضعة ايام سرنا معًا

فسرّت هند لهذا الحلّ الذي جاء من تلقاء نفسهِ فقالت لا أراني قادرة على التأجيل واخشى ان يزيد غضب الله علينا وانا لا أرى موجبًا لذهابك معي فقد اذهب مع بعض الخدم متنكرة اقضي نهارًا هناك ثم اعود

قالت افعلي مابدالك ثم ذهب كل الى فراشهِ اما هند فلم يكد يغمض لها جفن وهي تتذكر ما مرّ بها بالامس وتفكر في ماذا تكلم حمادًا اذا اجتمعت بهِ في الغد

الفصل الخامس

حمّـاد

أما حماد فانهُ عاد من صرح الغدير تلك الليلة وهو يكاد يعثر باذيالهِ لانشغال بالهِ بهند وما برحت الفاظها ترنّ في اذنيهِ وهي قولها (سنلتقي غدًا في دير بحيراء)

فلما خرج من الصرح لقيهُ خادمهُ وكان ينتظرهُ والفرس بقرب الخيام فنزع الدرع عنهُ وجعلها في خرج على الفرس وركب وسار يطلب منزلهُ وكان مقيمًا في قرية غربي مدينة بصرى وعلى ستة اميال يقال لها غسام [1] ولم يأت حماد الشام الاّ منذ بضعة أشهر جاءها لامرٍ لا يعلمهُ الاّ واحد . فاقام في منزلهِ المشار اليهِ يقضي بعض نهارهِ في البيت و بعضهُ في الصيد فيصطحب رجلاً يظنهُ والدهُ ومعهُ بعض الخدم فيخرجون للصيد في ضواحي البلقاء فيعودون وقد اصطادوا بعض الغزلان او غيرها

وكان قد تعوّد ركوب الخيل منذ صباهُ ومارس الفروسية وفرسهُ من اجود خيول العرب . وكان قد سمع بهند وقرأ شعرًا في وصفها قبل خروجه من بلاده فعلق بها عن بعد ثم دعاه والدهُ ان يصحبهُ الى الشام فعوّل في باطن سرهِ على السعي في التقرّب منها لانهُ يظن نفسهُ دونها مقامًا . فاخذ منذ قدومهِ الشام يتردد الى جهات صرح الغدير راكبًا او ماشيًا يتعلل بالمرور هناك لعلهُ يشاهدها وكان ينزل الغدير احيانًا فتراه ويراها وهي لا تنتبه لمراده وكلما سمع باحتفال عمومي جاءتهُ هند في الكنائس او غيرها اسرع اليهِ وسعى في استلفات انتباهها فكانت اذا رأتهُ ارتاحت

(۱) مري

الى رؤيتهِ لجمالهِ وهيبتهِ ورزانتهِ . فلما كان السباق الماضي حضره لاوّل مرة فاظهر من الفروسية والشهامة وكرم الاخلاق مازادها ارتياحاً الى مشاهدته واتفق انها نزلت ذلك السباق هي بنفسها فتخاطبا وتبادلا رموزاً لا غنى عنها في اوائل الحب فنزل من قلبها منزلاً رفيعاً وصارت تشعر بشوق الى رؤيتهِ اذا غاب عنها على ان ميلها هذا لم يكن يتجاوز حدّ الارتياح ولا خطر ببالها امر الاقتران بهِ على انها فهمت من اشاراتهِ وحركاتهِ وسائر احوالهِ انهُ طامع بها ولكنها كانت تجهل الحب وسلطانهُ فلم يذق قلبها طعمهُ على انها آنست في حماد اخلاقاً واطواراً تنطبق على اخلاقها واطوارها من حيث التعقل والرزانة والميل الى الشهامة والحرية

فلما شاهدتْ ما شاهدتهُ في السباق الاخير من شهامتهِ وحريتهِ تقرّر في ذهنها انها خلقت وخلق لها وهذه اوّل مرة خطر ببالها امر الاقتران بهِ وساعدها على ذلك ما آنست من ارتياح والدتها اليهِ وامتداحها شهامتهُ والثناء على مروءتهِ ولكن امراً واحداً كان يعترضها فيوقفها عن عزمها وهو تستر حماد وكتمان اصلهِ فخافت ان لا يكون ذا حسب يضاهي حسبها او يقرب منهُ او ان يكون على مذهب غير مذهبها فان العرب كانوا اذ ذاك على مذاهب شتى وفيهم النصارى واليهود والوثنيون والمجوس وظهر في اثناء ذلك الاسلام لكنهُ لم يكن قد ادرك الشام بعد . على ان الوثنية والمجوسية واليهودية كانت محصورة في جزيرة العرب فكانت المجوسية في بني تميم واليهودية في نمير وبني كنانة وكندة وغيرهم وكان كثير من اليهود في يثرب ناهيك عن خيبر والاوس والخزرج الذين قدموا يثرب بعد سيل العرم وفيهم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع وماهم بالحقيقة من العرب بل هم حلفاؤهم [1] وكانت عرب تلك الجزيرة يقدمون الشام وبصرى وفيهم الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني وغيرهم وهم انما يقدمون للتجارة فيمكثون ببصرى او في دمشق الشام او غيرها بضعة اسابيع او بضعة اشهر ويعودون [2]

فخافت هند ان يكون حماد وثنياً او مجوسياً فيمتنع الاقتران بينهما فطلبت الاجتماع بهِ في الدير لتتحرى ذلك كلهُ

فلنعد الى حماد ليلة خروجه من القصر فانهُ ساق جوادهُ زميلاً وخادمهُ يجري الى

(١) ابن الأثير (٢) ملطبرن

جانبه وهو يريد ان يدرك منزلة قبل ان يقلق والده لغيابه لانه فارقه من فجر ذلك اليوم ولم يعد يراه

وبيناهو في ذلك سمع وقع اقدام جواد مسرع نحوه وصوتاً يناديه (حماد) فقال نعم يا أبتي ألعلكم خرجتم للتفتيش عني

قال كيف لا نخرج وقد ابطأت علينا في العود وها قد مضى هزيع من الليل ونحن كما تعلم في ديار الغربة

فسكت حماد وسارا معاً على فرسيهما حتى مرّا ببساتين القرية بين اشجارها والناس نيام فوصلا المنزل في اطراف تلك القرية فدخلاه وقد أُنير غرفة بالمصابيح فأسرع حماد الى غرفته فجاؤوه بالماء والثياب فغسل وجهه ويديه ورجليه وبدل ثيابه واتكأ الى وسادة ووالده الى جانبه واسمه عبد الله وهو امير من امراء العراق اللخميين ذوي اليسار وقد بلغ الخامسة والاربعين من عمره قضى معظمها في الاسفار والحروب في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق فحنكته التجارب وعلمته الايام ولكنه انقطع في ذلك العام الى حماد لقضاء مهمة جاء من اجلها الى بلاد الشام

فلما جلسا قال عبد الله ما الذي أخر مجيئك الى الآن يا ولدي

قال ألم اقل لك في مساء الامس اني سائر في هذا الصباح الى صرح الغدير

قال بلى ولكن هل طال مقامكم في السباق الى الآن وهل كان المتسابقون كثيرين

قال نعم يا أبتاه ان السباق لم ينته الى الغروب ثم احتفلوا بالباس الدرع للسابق أما المتسابقون فكانوا كثيرين وفيهم جماعة كبيرة من امراء غسان وفي مقدمتهم ثعلبة ابن الحارث صاحب بصرى

قال ومن هو السابق يا ترى

قال ولدك حماد

فقال لا شلت يمينك هكذا تكون الفروسية فقد سبقت امراء غسان وانت غريب بينهم فهل لبست الدرع واين هي

قال وقد نلت قصب السبق ولبست الدرع بعد جدال طويل ولكنني عاينت من كرم اخلاق جبلة ورجاله ما حقق لنا ما سمعنا عن حسن وفادة الغسانيين اما الدرع فهي في الخرج

فقال عبد الله وهل نزلت فتاة غسان للسباق هذه المرة فقد اخبرني المرة الماضية وسمعتُ من كثيرين انها تحسن الفروسية وكثيرًا ما تنزل ميدان السباق لمسابقة الفرسان

فلما ذكرت هند خفق قلب حماد وظهرت عليهِ ملامح البغتة ولبث برهة يفكر فأدرك عبد الله انهُ يفكر في امرها

قال ما بالك لا تجيب يا ولدي

فانتبه حماد وخجل لما ظهر عليهِ فقال لم افهم مرادك

قال سألتك عن هند بنت الملك جبلة هل نزلت للسباق هذه المرة

قال لا يا ابتاه لم تنزل ولكنها شهدت السباق وختمته بالباس الدرع للسابق . قال ذلك وامارات السرور والهيام ظاهرة على وجههِ

فلحظ عبد الله ان حمادًا يحوم حول الشراك فاراد تحقق ذلك فقال لهُ وكيف رأيت فتاة غسان هل هي كما نسمع عنها من الجمال واللطف

فأبرقت اسرة حماد وطفق يصف جمالها ولطفها وصفًا يدل على تعلقهِ بها فكان يتكلم وعيناه مشرقتان وقلبهُ يخفق وكثيرًا ما كانت تخونهُ الالفاظ في التعبير عن اوصافها

فخاف عبد الله على حماد ان يقع في الشراك فاطرق وظهرت عليهِ مظاهر الانقباض والاسف معًا فاتم حماد كلامهُ وعبد الله مطرق كأنَّ امرًا ذا بال اعترضهُ

فنظر حماد اليهِ وقد عجب لحالهِ وما طرأ عليهِ من التغيير بغتة فقال لهُ ما بالك يا ابتاه اراك قد وقعت فيما أنبئني عليهِ فهل ساءك من امري شيء

قال حاشا يا ولدي ولكنني افكر في هذه الفتاة وما خصها الله بهِ من المواهب والخصال وكذلك تكون بنات ملوك

فسرَّ حماد لاستحسان عبد الله لها ولكنهُ خاف التصريح باكثر من ذلك لئلاَّ ينكر عليهِ الامل بالحصول عليها وهي من بنات الملوك وهو لا يعرف عن نفسهِ الاَّ انهُ من اولاد بعض الامراء

وكان عبد الله من الجهة الثانية راغبًا في تحقق ما اذا كانت هند تحب حمادًا مثل حبهِ لها فقال ارى هندًا قد وقعت من قلبك موقعًا عظيماً.فهل هي عالمة بذلك وهل خطر حماد ببالها

فأثر هذا الكلام في قلبهِ تأثير السهام وعدَّهُ اهانة لهُ حتى كاد يصرح بكل ما في قلبهِ ولكنهُ عاد الى تعقلهِ وحكمتهِ فقال لا اعلم منزلتي عندها ولكنني رأيت منها ميلاً وارتياحًا لي

فقال يظهر ان قلبك خدعك فاتخذت لطفها الاعتيادي الذي تظهر به لدى سائر الناس دليلاً على حبٍ خصوصي لك

قال لا اظن قلبي يخونني او يخدعني فقد علمت من قرائن عديدة انها تحبني

فقال وكيف تحبك وانت غريب ولا نسب ولا نسبة بينك وبينها

قال اعلم انها تحبني . . . . وسكت

فقال عبد الله افصح يا ولدي ولا تخفِ عني شيئًا فانت تعلم اني منقطع عن العالم كلهِ من اجلك فاشرح ما يخطر ببالك ولا تخف فان ما يسرُّك يسرُّني

فقال قلت لك انها تحبني

قال اذًا انت طامع بها

قال لا ادري وكل شيءٍ بقضاءٍ وقدر

فتحقق عبد الله وقوع حماد في شرك الهوى فبغت وصمت وجعل يتلاهى بنتف عثنونهِ وقد همَّهُ ذلك الامر كثيرًا

فلما عاين حماد منهُ ذلك ظنهُ استعظم عليهِ الطمع ببنت ملك غسان فقال لهُ ما بالك لا تتكلم هل ساءك ما ظهر لك مني

فابتدره عبد الله قائلاً لا يا ولدي لم يسؤني ذلك ولكنني افكر في امر عظيم يهمني كما يهمك وقد قطعنا الصحاري والقفار من اجلهِ واراك قد شغلت عنهُ بامر آخر

فقال وما تعني بذلك الامر العظيم وما الذي شغلني عنهُ لم افهم مرادك

فقال ألم نأت من العراق الى بصرى لنفي نذرًا نذرناه لك منذ ٢١ سنة ولم يبق من اجل انتظاره الاَّ بضعة ايام

قال بلى . فقال ما بالي اراك قد شغلت عنهُ بالحب والغرام

فخجل حماد عند سماع ذلك التوبيخ من والده فقال وهل يؤخذ من كلامي اني مشتغل بالحب والغرام . فقال عبدالله اوتظن انني غافل او تحسب دلائل الحب تخفى على البصير

فتحير حماد ولم يدر كيف يدفع قول ابيه ولكنه رأى الافضل ان يبوح له اذ لا غنى له عنه في اتمام قصده فقال وهب اني احببتها واحبتني فما علاقة ذلك بالنذر ونحن انما جئنا لنقص شعر رأسي في دير بحيراء فما يمنع ان نفعل ذلك ولن نفعل شيئاً آخر

قال عبد الله ان هناك علاقة كبرى لا يمكنني التصريح بها الا في اليوم الذي نقص شعرك فيه وستعلم اذ ذاك اموراً انت غافل عنها الآن فلا تلومني على ترددي في امر حبك ابنت ملك غسان . انا اعلم ان حبك لها شرف وخصوصاً اذا كانت هي تحبك ولكني لا استطيع التصريح بشيء الاّ في اليوم المعين لوفاء النذر وهو يوم احد الشعانين فنحن الآن في اواسط الصوم الكبير ولم يبق للموعد الاّ بضعة ايام فتتم السنة الحادية والعشرون من ولادتك فنقص الك شعرك ونكشف حقيقة امرك فتدخل عالماً جديداً وتطلع على اسرار ربما كان فيها ما يحول بينك وبين هند

فعجب حماد لذلك واشتاق الى مجيء يوم الشعانين شوقاً زائداً واخذ يفكر في كلام عبد الله ولكنه قال له وماذا عسى ان يحول بيني وبينها

قال قلت لك اني لا اقدر على التصريح باكثر من ذلك فأرى ان تتبصر وتتأنى ففي التأني سلامة

وكان في عزم حماد ان يطلعه على ما تواعدا عليه من الالتقاء في دير بحيراء فلما رأى منه هذا التهويل كتم امره وسكت ليرى ما يكون بعد اجتماعه بها ثم يكاشف والده بكل شيء على انه حسب تهويل والده حيلة في ترغيبه عن هند

وكان قد مرّ نصف الليل وغلب التعب والنعاس على حماد ولحظ عبد الله منه ذلك فقال هلمّ بنا الى الفراش يا ولدي الى ان يقضي الله بما يشاء ولكنني اوصيك ان لا تقطع امراً او تصله الاّ بعد يوم الشعانين فانك اذا فعلت شيئاً بعد ذلك انما بفعله عن بصيرة

فسار حماد الى فراشه وقد همه امر يوم الشعانين حتى كاد ينسيه هنداً وموعدها وودّ ان يفعل ما امره به والده ولكن عواطفه غلبت عليه فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظمآن للماء فقضى معظم الليل ولم يغمض له جفن وهو يتردد بين حديث الشعانين وحديث هند حتى كان آخر الليل فنام قليلاً

الفصل السادس

مدينة بصرى

واصبح حماد في الفجر فهرول الى ثيابهِ فلبسها وعبد الله لا يزال نائمًا فاراد ان يوقظهُ ليستأذنهُ في الذهاب الى بصرى على سبيل التفرُّج فخاف ان يطلب الذهاب معهُ فعوَّل على الذهاب بنفسهِ خفية

فركب جوادهُ وقد لبس الكوفية والعقال وجعل عليهِ القباء كالعباء وسار شرقًا قاصدًا مدينة بصرى ولم يصطحب احدًا من الخدم اخفاء لما سار من اجلهِ وكانت الطريق بين غسان وبصرى على استقامة واحدة كأنها هُدمت بالمطرقة والفادن والبركار مرصوفة بالحجارة الصلدة على نظام سائر طرق الرومان وقد تأكلت الحجارة من مسير عجلات مركباتهم [1] يحدها من الجانبين حائطان ضخمان ارتفاع كل منهما ذراع .

ولم يسر ساعة حتى اطلَّ على بصرى واوَّل ما شاهد منها حوضها الكبير الغربي الواقع خارج السور وهو عبارة عن خزَّان المياه كبير طولهُ ١٢٥٠ قدمًا وعرضهُ ٦٥٠ قدمًا وكان لبصرى احواض اخرى في الشرق والشمال لخزن الماء خوفًا من الجدب لبعدها عن الانهر والغدران [2]

فلما دنا من ذلك الحوض عرج نحوهُ وتأمل اتساعهُ حتى كاد يحسبهُ بحيرة كبيرة لانهُ كان على معظم امتلائهِ في اوائل الربيع ثم تحوَّل عنهُ الى مرتفع من الارض ليرى بصرى منهُ وهو لم يدخلها بعد ولكنهُ قرأ عنها في كتب الفرس والكلدان ويعرف انها واقعة في جنوبي حوران شرقي نهر الاردن تبعد ٩٠ كيلومترًا عن دمشق جنوبًا شرقيًا و ١٣٠ كيلومترًا من بيت المقدس شمالًا شرقيًا وانها قديمة العهد عاصرت دول اليهود ثم اليونان والرومان [3] فلما دنا منها صعد الى مرتفع فاشرف عليها وقد اشرقت الشمس فاذا هي مربعة الشكل تقريبًا مائلة بقعة كبيرة من الارض المنبسطة وحولها سور يزيد محيطهُ على اربعة اميال وشاهد خارج السور البساتين والاشجار والكرم وسائر

(١) جون مري وغيره (٢) ميريل (٣) الانسيكلوبيذية البريطانية

اصناف الفرس ورأى من وراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الافق وقد أعجبه منظرُ المياه في الاحواض حول المدينة تتلألأ بانكسار الاشعة عنها وشاهد في المدينة بنايات هائلة كان منظرها بوجه الاجمال مغبرًا لان حجرها من الصنف الحوراني الاسمر المشهور فاشتاقت نفسه الى مشاهدة اسواقها فسار نحو بابها الغربي فرأى عنده القوافل وفيها الجمال والبغال والحمير بعضها قادم من العراق يحمل الاقمشة الفارسية وبعضها من اليمن تحمل الاطياب والمر واللبان وشاهد قوافل اخرى تحمل البضائع الرومانية وسائر مصنوعات الشام (١) وتأمل الباب فاذا هو مرتفع هائل الكبر مصنوع على النمط الروماني وفيه العضائد والاعمدة والنقوش على عتبته من الاعلى نقش باللغة اللاتينية لم يستطع قراءته فهمّ بالدخول من ذلك الباب فرأى الشارع مرصفًا بالحجارة والناس يتزاحمون ذهابًا وإيابًا ففضل الترجل والمسير ماشيًا فدخل وقاد الجواد وراءهُ في شارع المدينة الاكبر وهو يقطعها من الغرب الى الشرق ويقطعه شارع آخر مثله من الشمال الى الجنوب وهما أكبر شوارع المدينة ومنهما تتفرع الشوارع الصغيرة والدروب والازقة والحارات على زوايا قائمة فعجب لانتظام تلك الشوارع وحسن هندامها لانه لم يشاهد على نظامها ولا في المداين عاصمة الفرس في ذلك العهد

ولم يكد يخطو في ذلك الشارع بضع خطوات حتى ترأى له عن بعد قنطرة قائمة في عرض الطريق فعلم انها قوس نصر اعتاد الرومانيون بناءها تذكارًا للنصر او لاحتفال يحق به الفخر فلما دنا من القنطرة رآها مؤلفة من ثلاث اقواس قوس متوسطة كبيرة وقوسين جانبيتين صغيرتين وعلو القنطرة اربعون قدمًا وعرضها اربعون وسماكتها عشرون وكلها مبنية باحجار ضخمة قائمة على عضائد مهندمة وفي اعلى القوس كتابة باللاتينية تشوّق حماد الى استطلاع معناها (٢) فالتفت الى احد اصحاب الحوانيت وقد عرف من شكل انفه انه روماني وكلمه باللغة الكلدانية الممزوجة بالعبرانية فاشار الى رجل جالس بالقرب منه كاتبه يطلب اليه ان يترجم له فجاء فسأله حماد عن تلك الكتابة فقال معناها ان بوليوس بوليانوس قائد الفرقة الاولى البرطية بناها (٣) فاعجب ببذخ الرومان وايقن انهم اقرب الى العظمة والترف من ملوك فارس وقال في نفسه اذا كانت هذه حالهم وهم في دور الانحطاط فما هو مقدار عظمتهم وبذخهم

---

(١) بوركهارت (٦) مريل (٣) موجيه

في ابان مجدهم فمرّ من تحت تلك القوس وسار في جهة واحدة فوصل الى مزدحم من الناس عظيم فاذا هو في متصالب الطرق حيث يلتقي الشارعان الكبيران وهناك الحوانيت الكبيرة و باعة الاقمشة الثمينة ولكنه رأى على احد اركان ذلك المتصالب بناء شاهقاً ذا اروقة ونوافذ واعمدة ونقوش بديعة فسأل عنه فقيل له انه هيكل بناه الرومان لعبادة الاوثان قبل تنصر قياصرتهم واما الآن فقد اتخذوا بعضه معبدًا والبعض الآخر يسكنه كبار حامية الرّوم في بصرى (١) ووقف في ذلك المكان والتفت الى ما حوله فاذا هو في منتصف المدينة ومن هناك تمتد اربعة شوارع كبيرة تنتهي عند السور باربعة ابواب غربي وشرقي وشمالي وجنوبي ثم تحوّل الى الشوارع الاخرى ايتعهدها ثم يخرج من الباب الشرقي ومنه يصل الى الدير فشاهد بين ابنية بصرى قصوراً شاهقة معظمها من الكنائس و بعضها من الهياكل الوثنية بنيت على عهد الرّوم قبل تنصرهم وفي جملتها مرسح بديع كانوا يلعبون فيه العاب السباق والمصارعة

وشاهد على تلك الابنية كتابة بعضها نقوش و بعضها اصبغة واكثرها مكتوب باللغة اليونانية واللاتينية و بعضها باللغة النبطية

واخذ يتأمل ما هنالك من الرساتيق والاسواق وفيها التجار واكثرهم من الغرباء و بينهم الدمشقي والحلبي والبدوي والرومي والفارسي والعراقي ثم وصل سوق الصناع فوجد اكثر الصاغة من الفرس والرّوم وصناع الاقمشة الحريرية من الدمشقيين ومرّ بسوق الاسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة واكثرهم من اهل دمشق ولاحظ ان ابنية بصرى على اختلاف اشكالها مسقوفة بالحجر عقدًا على شكل القبو ورأى الناس تتزاحم في الاسواق رجالاً ونساء وفيهم الوطنيون ولغتهم الارامية او النبطية و بينهم الرّوم ولغتهم اللاتينية و بعضهم يتكلم اليونانية وشاهد جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لا يزالون على بدوانهم لانهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها الاّ لحاجة فعرفهم من لباسهم البدوي واعجب لما رآه هناك حتى كاد ينسى موعده مع هند ثم انتبه فاذا بالشمس قد كادت تبلغ الضحى فهرول حتى خرج من الباب الشرقي قاصدًا الدير وقد عادت اليه هواجسه وشواغله

---

(١) مزيل ووادنتن

الفصل السابع

دير بحيراء

فركب جواده وما سار قليلاً حتى وصل الى مرتفع اشرف منهُ على بناء كبير شاهده عن بعد وحوله الاشجار والبساتين [١] وشاهد رجلاً على حمار يظهر من لباسهِ انهُ من اهل بصرى فسألهُ عن ذلك البناء فقال هو دير بحيراء يا سيدي

فساق جواده حتى دنا من الدير وهو يخاف ان تكون هند قد سبقتهُ اليهِ على انهُ يعلم ان المسافة بين الدير وقصر الغدير لا يتيسر قطعها باقل من بضع ساعات فلا يتيسر لها المجيء قبل الظهر فاخذ يتأمل الدير فاذا هو بناءان احدهما كبير وفيهِ قبة فوقها صليب علم انها كنيسة والآخر صومعة على رابية فترجَّل وشد جواده الى شجرة ولو تركهُ مطلقًا ما خاف فراره لانهُ اصيل ومشى نحو الكنيسة فاذا هي مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيراء فدخل صحنها حتى جاء البيعة فرأى المكان ديرًا وفيهِ كنيسة وشاهد الرهبان والقسس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اللاتينية وبعضهم يتكلم اللغة السريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة اهل تلك البلاد بعد السبي وشاهد بعضًا آخر يتكلم لغات اخرى فسأل عن سبب هذا الاختلاط فقال لهُ بعضهم ان مدينة بصرى مركز اسقفية بلاد العرب الكبرى وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنها يرسل الاساقفة الى ما تحتها من الاسقفيات [٢] فدخل البيعة فزار هيكلها وقبل صورها ثم سأل عن دير بحيراء فقيل لهُ هو صومعة بالقرب من هذا الدير

فسار اليهِ فاذا هو على رابيةٍ ولكنهُ عجب لنوع بنائهِ ولم يكد يصدق انهُ بيت لانهُ عبارة عن خمسة احجار ضخمة اربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع ورأى الناس يفتحونهُ ويغلقونهُ بكل سهولة [٣] فسأل رجلاً واقفًا الى جانبهِ يظهر من هيأتهِ ولباسهِ انهُ من اهل دمشق فقال لهُ ما هذا البناء وكيف يصنعون الابواب من الحجارة فأجابهُ ان هذا النمط من البناء كثير في بلاد حوران لان ارضهم صخريةٌ والاخشاب فيها قليلة فيصنعون مصاريع ابوابهم ونوافذ بيوتهم

(١) السيرة الحلبية (٢) انسيكلوپذية الآثار الدينية (٣) دائرة المعارف

من الحجر وقد يبنون منزلاً كثير الغرف وفيهِ النوافذ والابواب والاروقة والسقوف ولا يدخلون في بنائهِ شيئاً من الخشب قط (۱)

فوقف هناك ينظر الى ذلك البناء الغريب ولم يكد يعرف الباب او لم يرَ الناس يخرجون منهُ فصعد الى الصومعة حتى وقف عند بابها فاذا هي غرفة مظلمة أشبه شيء بالمغارة لخلوها من النوافذ الاَّ نافذة ضيقة في بعض جوانبها فدخل فرأى ارض الغرفة حجرًا واحدًا ايضًا وفي جدرانها صورٌ امام كل صورة مصباح ضعيف النور وفي بعض جوانب المكان راهب هرم قد أرسل لحيتهُ على صدره وتجعد جلد وجههِ الاَّ انهُ فانهُ ما زال بارزًا كبيرًا وقد تناول بيدهِ سبحة طويلة وجلس الاربعاء على حجر منحوت كالمقعد ملتفاً بثوبهِ الرهباني والسبحة في يدهِ والناس يدخلون اليهِ يتبركون بتقبيل كفّهِ وهو يحرك شفتيهِ كأنهُ يدعو لهم فمن زاره سار الى الدير لزيارة الكنيسة وبجوار الكنيسة غرف لمن اراد الاستراحة او الاقامة

فتأثر حماد لمنظر ذلك الراهب الهرم اذ تمثلت لهُ فيهِ مظاهر الشيخوخة واضحة وضوحاً تاماً ولكنهُ لاحظ امرًا واحدًا استلفت انظارهُ وذلك انهُ رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان النساطرة في العراق وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك فتقدم نحوهُ وقبّل يديهِ فنظر اليهِ الراهب وتأملهُ كأنهُ عرفهُ وامر بالجلوس فجلس وهو اكثر رغبة منهُ في مجالستهِ لانهُ ودَّ كثيرًا ان يعرف قصة ذلك البناء وكان حماد قد تعلم كل علوم تلك الايام في مدرسة الرها الشهيرة بالعراق فتثقف عقلهُ وصار محبًا للاطلاع فلما رأى في ذلك الراهب ارتياحاً الى مجالستهِ سرَّ سرورًا عظيماً وتربع حالاً فقال لهُ الراهب . ألعلك من عرب العراق يا ولدي

فتعجب حماد لسؤالهِ فقال نعم يا سيدي وكيف عرفت ذلك قال عرفتهُ من ملامح وجهك لاني عاشرت عرب العراق زمناً . وهل انت مقيم هنا ام جئت مسافرًا

قال جئت لأَفي نذرًا عليَّ لهذا الدير

قال وما هو نذرك

قال نذرني والدي ان لا يقصّ شعري اولاً الاَّ في هذا الدير وانهُ لا يقصهُ الاَّ بعد مضي السنة الحادية والعشرين من عمري وسيكون ذلك في احد الشعانين القادم

(۱) قوجيه

فجئت اليوم لنيل البركة والتمتع بنظر هذه الصومعة اذ كثيرًا ما حدثنا اهل بصرى عن الراهب بحيراء . ألعلك انت هو يا سيدي

قال لا ياولدي ان الذي تطلبهُ قد قتلهُ بعض الاشرار غيلة

قال كيف قتلوه ولماذا فاني كثير الميل الى استطلاع خبره . وقد اراد حماد الاشتغال بالحديث لتمضية الوقت ريثما تأتي هند لان الانتظار صعب

الفصل الثامن

الراهب بحيراء

فتنهد الشيخ تنهدًا عميقًا وحملق عينيهِ وقد نسي شيخوختهُ وكأن شبابهُ عاد اليهِ واخذ يمشط لحيتهُ باصابعهِ وقال اما بحيراء فهو من نعم الله على بني الانسان ولا اظن الارض تجود بعده بمثلهِ اما حكايتهُ فقد وقعت على خبير فاعلم ان اسمهُ الحقيقي ليس بحيراء بل يوحنا [1] واما بحيراء فهو لفظ كلداني معناه العالِم المدقق او المحقق لقبوه بهِ لطول باعهِ في سائر العلوم [2]

فقال حماد وهل عرفتهُ قداستكم معرفة شخصية قال اني احد تلامذتهِ وقد تتلمذ لهُ كثيرون غيري من جملتهم سلمان الفارسي [3] اما انا فقد رافقتهُ من اوَّل ظهوره الى أواخر أيامهِ

فازداد حماد ميلاً الى معرفة حقيقة بحيراء فقال وما هي حكايتهُ فقد شوقتني الى معرفتها

فقال اعلم يا ولدي ان المرحوم يوحنا بحيراء كان راهبًا نسطوريًا على مذهب آريوس ونسطور ولا اظنك تجهل هذا المذهب وان يكن اتباعه قليلين لمخالفتهِ مذهب القياصرة

قال حماد نعم اعرف كل شيء عنهُ وقد اطلعت على دقائقهِ في المدرسة على احسن عارفيهِ

(١) اسحق الكندي (٢) الدائرة (٣) مذهب تلميذ بحيراء

فقال الراهب فلا حاجة بنا الى شرحهِ اذًا فانت تعلم ان اساس هذا المذهب انكار الوهية السيد المسيح وان تسمية الها غير جائزة وانهم انحلوا له اسمًا فقالوا يجب ان يسمى كلمة الله وان والدته مريم يجب ان تدعى مظهر الناسوت لا والدة الله (١) قلت الك اني تلميذ بحيراء واعترف لك اني تلميذه في كل شيء ما خلا هذا المذهب فقد قضيت اكثر ايام صحبتي له وانا في جدال دائم معهُ لم يقنع احدنا الآخر اما في العلوم الاخرى فلهُ عليَّ الفضل الاكبر فقد اخذت عنهُ علم الفلك والحساب وعلم الطوالع وسائر علوم هذه الايام وكان لفراستهِ وحسن نظره يظنهُ الناس ساحرًا . وكان يقيم اولاً بدير في ما بين النهرين بالعراق وكنت اختلف اليهِ هناك اتلقى بعض العلوم ولم اكن اعرف ما يذهب اليهِ . فلما اطلع رئيس الدير على انحالهِ الاريوسية غضب عليهِ واخرجه من الدير فسار قاصدًا دير طور سيناء في العقبة على حدود مصر فسرت انا معهُ للانتفاع بعلمهِ وحبًا في خيره لعلي اقنعهُ واردهُ الى مذهب الكنيسة فرحب بنا رهبان طور سيناء واعجبوا بعلمهِ وفضلهِ فاقمنا هناك مدة ثم ورد كتاب من ديره الاول الى رئيس دير طور سيناء ان يخرجه من ديره فأمر بذلك او يتحوَّل عن مذهبهِ فخرج وخرجتُ انا معهُ . واتينا هذا الدير واقمنا في هذه الصومعة معًا الى أمد غير بعيد فانهُ ذهب الى مكان في جزيرة العرب لم يسمهِ ولم اعد اراه من ذلك الحين ثم علمت ان بعض اليهود قتلوه غيلة (٢)

فقال حماد ألا تعلم اسم المكان الذي ذهب اليهِ

قال كلاَّ ولكنني اظنهُ سار الى الحجاز لحادثة جرت معهُ على مشهد مني منذ نيف واربعين سنة

قال حماد وما هي

قال جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب او غيرها ان تقف هنا للاستراحة من حرّ الصحراء والاستقاء فيجلس بحيراء بينهم وخصوصًا اذا كانوا من الوثنيين او المجوس وقد اجلسُ انا معهُ ايضًا فيأخذ في تعليمهم عبادة الله ولا يريد بهم الاَّ خيرًا . وكان يعتقد ان الله ظهر له في الرؤيا وانبأهُ انهُ سيكون واسطة لهداية بني اسماعيل سكان جزيرة العرب لان هؤلاء العرب كانوا يعبدون الكواكب او الاوثان الاَّ جماعة

(١) دائرة المعارف (٢) مذهب تلميذ بحيراء

منهم كانوا نصارى او يهودًا وجماعة اخرى كانت تقرّ بالخالق وتصدق بالبعث والنشور والثواب والعقاب وفئة قليلة كانت تقرّ بالخالق وتنكر البعث (١) فكان بحيرا يفكر ليلاً ونهارًا في مصير تلك الجزيرة واهلها فرأى مرة رؤيا قصها علينا قال « رأيت فتى جميل المنظر شهماً مولده برج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل علمت انه هو الذي سيهدي ابناء جلدته بني اسماعيل الى معرفة الله وان به يقوى امرهم ويشتد ازرهم وتجتمع كلمتهم فيذللون ابناء عمهم بني اسحاق ويتسلطون عليهم مدة توافق ما اشار اليه دانيال في نبوته وانه يخرج من العرب اثنتا عشرة دولة » (٢)

فاتفق منذ نيف واربعين سنة اي في نحو سنة ٤٨٠ بصروية (٣) ان قافلة من قوافل الحجاز وصلت هذه الساحة وفيها جماعة كبيرة من عرب قريش الذين يقيمون في مكة وعندهم مقام شهير يأمهُ الناس من سائر انحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة وعرب قريش هؤلاء كانوا حجاب الكعبة ولهم نسب وشرف يتصل باسماعيل فنزلت القافلة تحت تلك الشجرة الكبيرة التي تراها شرقي هذه الصومعة فظللتهم جميعاً (٤) وعقلوا جمالهم وربطوا حميرهم وانزلوا الاحمال التماسًا للراحة ثم قدموا للاستقاء فخرج بحيرا لمخاطبتهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلامًا جميلاً تلوح عليه ملامح المهابة والنجابة والذكاء فحالما رآه بغت والتفت فقال لي انظر الى هذا الغلام فانه مولود في البرج الذي قلت لكم عنه وهو الذي سيهدي بني اسماعيل ثم سأل كبير التجار عنه فتقدم رجل كهل تجلي في وجهه دلائل الجلال والوقار فخاطبه بشأنه فقال من يكون هذا الغلام فقال هو ابن اخي فأنبأه بحيراء بمستقبله وقال له احذر عليه من اليهود فانهم اذا عرفوه كادوا له كيدًا (٥) وسأله عن اسمه فقال اسمه محمد واسم عمه ابو طالب - واقام اولئك الركب عندنا مدة وقد آنست بحيرا اكرامًا لهم وترحابًا بهم لم اعهده به مع غيرهم ثم ساروا الى بصرى فالشام وعادوا بعد ذلك الى مكة ثم كانوا كلما مروا بنا اقاموا عندنا كالعادة

---

(١) المسعودي (٢) دائرة المعارف (٣) التاريخ البصروي يبتدئ سنة ١٠٥ بعد الميلاد وهي السنة التي اتخذ الرومان بصرى عاصمة لولاية حوران ودعوها تروجانا الحديدة وهو تاريخ مشهور كانوا يؤرخون منهُ فيقولون ان البناء الفلاني بني سنة ٢٠ بصروية مثلاً ويريدون انهُ بني سنة ٥٣٠ بعد صيرورة بصرى عاصمة (٤) ابن هشام (٥) السيرة الحلبية

فقال حماد وهل صحت نبوة بحيرا

قال نعم لأن ذلك الغلام القريشي أصبح نبياً كبيراً تسمى ديانته الاسلام وقد انتشرت سطوته في كل جزيرة العرب ويسمى اتباعه المسلمين ويحدثنا التجار القادمون من الحجاز عن اعماله وحروبه وانتصاره ما يفوق طور التصديق فسكان جزيرة العرب بعد ان كانوا قبائل متشتتة يغزو بعضها بعضاً اتحدت كلها قلباً وقالباً تحت لوائه ولا يبعد ان يحمل بهم على الشام والعراق

فقال حماد واظنني سمعت شيئاً عن هذا النبي يوم كنت في العراق فما رأيك اذا حمل على الشام والعراق

فبهت الشيخ وفكر برهة ثم اغرورقت عيناه بالدموع وقال آه يا ولدي لا أظنه ألا يستولي عليهما جميعاً لما نعلمه من اختلال الاحوال فان قيصر الروم لم يكد ينتهي من حروبه مع الفرس ومعظم قلاعنا وحصوننا لا تزال متهدمة وحكامنا في شاغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التي هي أصل هذا الشقاء ألا ترى بطاركتنا في جدال دائم على أمور ما أنزل الله بها من سلطان فبطريرك الاسكندرية يقاوم بطريرك القسطنطينية ويخالفهما بطريرك انطاكية. وقد كانت ديانتنا واحدة لان السيد المسيح واحد علم تعليماً واحداً فابت مطامع بني الانسان الا الانقسام فتعددت الفرق المسيحية واشهرها ثلاث الآن وهي (١) الملكية القائلون مركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع بين نسطوريوس وكرللس وهم الروم (٢) اليعقوبية القائلون بمقالة كيرللس الاسكندراني ويعقوب البردعاني وساورس صاحب كرسي انطاكية (٣) النسطورية القائلون بقول نسطوريوس [1] وترى الشعوب منقسمة ايضاً مثل هذا الانقسام حتى تمكن العداء بينها حمانا الله من عواقب الغرور

وما أتم الراهب الشيخ كلامه حتى انهكه التعب لما أثر فيه من حال الروم وما خافه عليهم من سطوة العرب فتململ وتنفس الصعداء وتزحزح من مكانه كأنه يطلب الاتكاء. فنهض حماد وقد علم اموراً لم يكن عالماً بها قبلاً ومال ميلاً كثيراً الى معرفة التفصيل ولكنه خاف التثقيل على الشيخ بعد ما آنس من تعبه ومله وشغل عن ذلك

(١) أكندي

باستبطاء هند عن المجيء فودع الراهب وقبل يده وطلب رضاه وخرج فاذا بالشمس قد مالت عن خط الهاجرة فجلس على حجر منحوت قائم تحت شجرة كبيرة لعب النسيم في اوراقها وتطايرت الطيور بين اغصانها فالقى ظهره على جزعها واخذ يفكر بما سمعه من ذلك الراهب فغلب عليه الملل وهو لم ينم بالامس الا قليلاً فغمضت عيناه لحظة رأى فيها حلماً من قبيل ما سمعه من الراهب فخيل له انه سار الى المدينة بالحجاز وشاهد المسلمين عاكفين على صلواتهم وان نبيهم قال له « انت لست حماداً وستلاقي عذاباً ولكنك تجد بعد العسر يسراً »

ثم افاق من صوت صهيل الخيل فالتفت فاذا بفارسين بلباس اميرات البلقاء ووراءهما خادمان وقد وقف الفارسان تحت شجرة بالقرب منه فنهض للحال فرآهما تتلثمان ولكنه عرف من الفرسين انهما هند واحدى خادماتها فتشاغل ببعض الشؤون لئلا ينتبه احد لحاله ولبث ينتظر اشارتها وقلبه يخفق فمشت نحو الصومعة وهو واقف لا يبدي حراكاً حتى صعدت اليها ودخلت الباب فانتظر هنيهة فلم تعد فمشى نحو الصومعة يتردد بين الصعود والبقاء فاذا باحدى الملثمتين قد عادت نحوه فعرف من مشيتها انها ليست هنداً فلما دنت منه قالت له أتعرف تاجراً يبيع الحلى كان واقفاً هنا - فادرك ان هنداً تسأل عنه باسم أحد باعة الحلى لتخفي أمره عن الخادمة فاجاب على الفور انا هو ذلك التاجر فما غرضك

فقالت ان سيدتي تفتش عنك

قال وهل تريد ابتياع شيء الآن

قالت نعم فاين بضاعتك

قال هي في مخزني على مقربة من هذا المكان ولكن الحلى التي ابيعها غالية الثمن لا يستطيع اقتناءها الا الاغنياء . فاذ كانت سيدتك من أهل اليسار أتيتها بما تريد

فتبسمت المرأة تبسم الاستخفاف وقالت نعم انها أقدر نساء حوران والبلقاء على ذلك

فقال اين هي

قالت في الصومعة فتفضل

فصعد وركبتاه ترتجفان حتى دخل الصومعة فرأى هنداً جالسة على مقعد من الحجر فالقى التحية وتجاهل قائلاً أين التي تريد الحلى

فقالت هند هي انا فاين حلاك

قال هي في المخزن على مقربة من هذا المكان هل أذهب لاستجلابها

قالت لا ندري ما نحتاج اليو منها فربما أتيت بما لا حاجة لنا بو وتركت ما كانت اليو حاجتنا

فقال قولي ما هي انواع الحلى التي تحتاجين اليها فآتيك بأحسن ضروبها واعود حالاً ولا سبيل لنا غير ذلك

قالت حسنًا تفعل فنحن نحتاج الى اقراط من اللؤلؤ واساور من الذهب المرصع فأت بما تصل اليو من احسن انواعها

الفصل التاسع

لقاء الحبيبين

فقال سمعًا وطاعة وعاد فركب فرسهُ وسار باسرع من لمح البصر حتى دخل بصرى وهرول الى سوق الصاغة وكان لا يخلو جيبهُ من بدرة لما قد يحتاج اليو في غربتو فابتاع بضعة اساور وبضعة اقراط من اجمل الازياء الشائعة اذ ذاك وعاد حالاً فلما دخل الصومعة لاقاه بعض الخدم وقال له الملك بائع الحلى قال نعم قال ان مولاتنا تنتظرك في بعض غرف دير بصرى [1] فعاد الى الدير فلاقتهُ الخادمة ودخلت بو على سيدتها وهي في الغرفة على انفراد وكانت قبل مجيئو مضطربة استعدادًا لساعة اللقاء فلا تسل عن خفقان قلبها واصطكاك ركبتاها ولكنها تجلدت لئلاً تلحظ خادمتها منها شيئًا يكشف حقيقة امرها فلما دخل استقبلتهُ استقبالها رجلاً غريبًا فامرت له بوسادة جلس عليها وجلست هي على وسادة اخرى

فجعل حماد الاساور والاقراط بين يديها فقلبت شيئًا منها وتظاهرت انها اعجبت باحدها فقالت ما رأيك بهذه الاساور قال هي من صنع القسطنطينية وصناعتها دقيقة يفضلها العارفون على هذا النوع فانهُ صنع خراسان

(١) دير بصرى اسم من اسماء دير بحيراء ويقال لهُ ايضًا دير نجران ودير الباعقي (المعجم)

فقالت له بأي ثمن تبيعها . قال انها غالية الثمن يا مولاتي فهي تساوي خمسمئة دينار (ولم تكن تساوي حقيقة الا عشرة دنانير »

قالت لا بأس من غلائها ولكنني لا استطيع ابتياعها ما لم أرها لوالدتي

فقال حماد حسنًا تفعلين واين هي والدتك

قالت في منزلنا على بعض غلوات من هذا المكان ولكنك لا تعرف من نحن فلا تأمن ان نسير بها جميعًا فسأرسلها مع هذه المرأة وابقى انا هنا ريثما تعود فاذا استحسنتها والدتي ارسلت الثمن معها فاشتريتها ودفعت الثمن والاّ فاني اعيدها اليك كما هي

فقال ولكنني لا استطيع البقاء هنا طويلاً

قالت لا تخف فان هذه المرأة ستسير على جواد سريع الجري واذا ابطأت عوّضنا عليك الخسارة كن مطمئناً

فقال ارجو اذن ان تحتفظ بالاساور لئلاّ يقع شيء من أحجارها اثناء التقليب

قالت لا تخف انني احرص منك عليها ولولا ذلك لارسلتها مع سواها من الخدمة وهي ايضًا متى عادت نابت حظها من بضاعتك . قال حسنًا

فتناولت الاساور ولفتها في منديل وناولتها الى الخادمة وقالت لها اركبي الفرس وخذي معك الخادمين واسرعي الى والدتي واعرضي هذه الاساور عليها واخبريها عن الثمن كما سمعت وعودي بالجواب حالاً

قالت سمعًا وطاعة وركبت وسارت وقد أملت ان تحظى من مولاتها بهدية من تلك الحلى

أما هند وحماد فبقيا في الغرفة على انفراد فقضيا برهة صامتين مطرقين والهوى يتكلم ثم خاطبته هي قائلة

لقد احسنت فهم مرادي يا حماد

فنظر اليها وتنهد وقال كيف لا افهم مرادك وانت اذا نطقت انما تنطقين بلساني او افتكرت انما تفتكرين بجناني فاطرقت حياء برهة تفتش بين الحلى الملقاة امامها كأنها تريد التكلم ويمنعها الحياء ولبث هو ينظر الى وجهها وقد هام بحسنها وانبهر لما يتجلى في محياها من نضارة الشباب وما ينبعث من عينيها من اشعة الذكاء وما زال صامتًا يرجو ان تنوه بكلمة تجر الحديث ليشكو ما في فؤاده

فقالت اظنك تستخف بي وتحسب جسارتي هذه وقاحة

فتنهد وقال حاشا لي ان ابخس فتاة غسّان حقها او ان اجحد النعمة التي اولتني اياها بهذا الاجتماع وكيف احظى بمشاهدة بنت ملك غسّان ولا اعد نفسي اسعد خلق الله

قالت ان هذه الملكة اصبحت اسيرة بكماء لا تعرف ما تقول فقل انت لعلك تعبر عن بعض ما بي

قال اذا سمحت مولاتي اقول اني اسيرها وعبدها ولا احسب تنازلها الاّ منّة وكرمًا

قالت اتعلم يا حماد لماذا اجتمعنا في هذا البيت وهو من بيوت الله

قال لا ادري يا سيدتي فلعلكِ أمرتِ باجتماعنا لتوبيخي على جسارتي لاني تطاولت على مقام الملوك

قالت كلاّ فانك لم تفهم مرادي ولا أنت تتكلم بلساني ولا تفتكر بجناني

قال ماذا اذن

قالت وقد توردت وجنتاها جئتُ لأهنئك بتلك الدرع التي دلّت على سبقك فانت السابق وفي الاشارة غنى

قال اما تلك الدرع فانها اثمن ما نلت وسأنال من خيرات هذا العالم فهي واقيتي من نوائب الزمان وتعويذة انقي بها حبائل الشيطان ولكن من ابن لي ان اكون السابق وانا رجل غريب لا تعرفون من أمري شيئًا والمقام مقام ملوك

فنظرت اليه بطرفٍ عينها وقد ذبل جفناها وابرقت حدقتاها وقالت ولكن لكل مجتهد نصيب وما الملك يا حماد الاّ من ملك القلوب وتسلط على العواطف لا من جمع الاموال وحاز على حطام الدنيا الفانية وما السابق الفائز الاّ من حاز جائزة السباق ولبس الدرع على مشهد من الناس

فالتفت اليها وقد تحقق رسوخها في حبه وقال ذلك سخاء عهدناه ببني غسان فهل تتعطفين على عبدكِ بكلمة تشفي غليلة وتبرد لظاه

فتنهدت وقد اشتد بها الهيام وقالت ماذا اقول وكل جارحة من جوارحي تنطق بما في هذا القلب (واشارت الى قلبها) ولكنني مالي ارى حمادًا يبخل علينا بكلمة

قال بماذا يبخل حماد ولم يبق له ما يجود به ولا يرى حاجة الى القول وليس

جارحة من جوارحه الا وقد كتب عليها انهُ اسير هواك

فنظرت اليهِ وقد اخذ الحياء منها مأخذاً عظيماً وقالت اعذرني يا حماد على ضعفي فجنس النساء مهما بلغت قوتهُ فهو ضعيف فاشفق وقل كلمة

فمد يدهُ الى يدها فاذا هي باردة كالثلج وخيل لهُ انها ذائبة بين اناملهِ وما لمسها حتى شعر بقشعريرة اشبه بمجرى كهربائي سرى في سائر اعضائهِ ولا ريب انها شعرت هي بمثل ذلك ايضاً فجعل يدها بين يديهِ وقال اقول كلمة وارجو ان لا تكون ثقيلة عليك

فاطرقت ثم قالت قل قل لقد نفد صبري واخشى ان يخوننا الوقت

قال اعلمي اني اسير حبك ولا ابغي من هذا العالم الاَّ رضاك فماذا تقولين

قالت انك تعبر عن عواطفي

فادرك حماد انها تحبهُ وتميل اليهِ ولكنهُ ما زال خائفاً من ان يسبقهُ ثعلبة اليها مع علمهِ انها غير مخطوبة لهُ ولا هي تحبهُ ولكنهُ خاف ان تحلو في عينيهِ حمدًا فيطلبها ويتراضى والداها جبلة والحارث ويتغلبا على رأيها فاراد اختبارها من هذا القبيل فقال لها وما شأن ابن الحارث

قالت لا شأن لهُ فهو حارث غير حاصد . فقال وما شأن من لم يحرث او يغرس

قالت ان الغرس غرس الله واذا لم يبن ربُّ البيت باطلاً يتعب البناؤون

فضغط على اناملها وهمَّ بتقبيل يدها فمنعهُ الحياء فاعادها وهو يرنو اليها وقال ولكن كيف ترضين بمن لا تعرفين نسبهُ فلا نأمن ان يطالبنا ابن الحارث غداً بحقوق القرابة

قالت ان من القلب الى القلب دليل ولا نعرف لنا قرابة توجب مطالبة ولا نحن نرضى بالتقرب منهُ بعد ما عرفناه من خساستهِ

فقال وما الذي دلَّك على خساستهِ

قالت لقد دلتني تلك القصبة فانها جماد ناطق

فعجب لاشارتها الى القصبة وظهر لهُ انها عالمة بامر ثعلبة بالامس فاراد تحقق ظنهِ فقال وماذا قالت لك القصبة

قال لقد نطقت نطقاً صريحاً ان ابن الحارث جبان دنيء

فقال وقد ملَّ الالغاز فما قولك بمن لا تعرفين حسبهُ ولا نسبهُ

قالت فمن كان قلبهُ دليلهُ لا يخش العطب فحماد لا يمكن ان يكون من السوقة لان اخلاقهُ جديرة بالملوك فاذا لم يكن ملكًا فهو امير جليل

قال ولعلهُ كان من قوم بينهم و بين والدك عداوة

فجذبت يدها من بين يديهِ بلطف وتنفست الصعداء ولسان حالها يقول

أُحبك ما لو كان بين عشائرٍ ❋ وقد كانوا اعداء لجرَّ التصافيا

فلم يبقَ عندهُ ريب بصدق حبها لهُ فاعتدل في مجلسهِ وقال لها ان اسيرك يا حبيبتي ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوقة بل هو امير ابن امير ولكنهُ دون مقام جبلة ابن الايهم ملك غسَّان

فاطمأن بالها بانهُ ليس من السوقة فارادت ان تعرف من اي القبائل هو وكانت قد لحظت من لهجتهِ انهُ من امراء العراق فقالت أَلعلك من امراء العراق

قال نعم يا سيدتي فهل غيَّر ذلك شيئًا من شعورك

قالت كلاَّ بل انت فوق ما تمنيت فانكم بنو لخم اصحاب نسب وحسب ومنكم بنو ماء السماء(1)

فالتفت اليها وقال اما وقد تنازلتِ الى حبي فاني طوع اشارتك فهل ترين لهذا الاسير حظًّا من قربك

قالت لقد ابنتُ لك مرادي وكشفت لك عواطفي وانت على ما رأيتهُ فيك من الحزم والدراية فلا تعدم وسيلة في استرضاء والدي

فعظم عليهِ الامر لعلمهِ ان استرضاء والدها من اصعب الامور عليهِ وهو يعلم منزلتهُ منها فضلاً عن الضغائن بين لخم وغسَّان فبهت برهة ولم يتكلم

فابتدرتهُ قائلة ما بالك تتردد فهل خفتَ الطريق

قال لا اخاف شيئًا في سبيل قربك ولكنني ارى الطريق وعرًا لما اسسهُ اجدادنا من الضغائن بين لخم وغسان . فتبسمت وقالت لا تخف يا حماد انما يصعب عليك يهون عليَّ فكن مطمئنًا اني معك وهذا يكفي

(1) ابو الفداء

قال قد رضيت بذلك فان رضاك من رضى المولى وها اني قد كرست حياتي في خدمتك

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب واظلمت الدنيا ولم تعد تتعارف الوجوه فهمّا بالخروج من الغرفة وفيا هما يودعان والقلبان يخفقان ويودان البقاء هناك طول العمر اذ سمعا صهيل الخيل خارج الدير ورأيا الرهبان في جلبة فوقفت هند بغتة . فقال حماد ما الذي راعك يا حبيبتي

قالت اظن ثعلبة قادمًا للدير فلعله علم باجتماعنا فجاء يريد بنا سوءا فالاولى ان نفترق لئلاّ نفتح بابًا للكلام

وما أتمت كلامها حتى دخل عليهما رجل عليهِ ملابس الباعة ببصرى وبيدهِ فالقى قطعة من الحلى في جيب حماد ثم استخرجها مدعيًا انها كانت في جيبهِ وان حمادًا كان قد سرقها فتناولها الرجل وقال هذه الاساور لي فمن اين جئت بها انها مسروقة من مخزني فلم يجبهُ حماد ولكنهُ صفعهُ على وجههِ فقلبهُ على قفاه خارج الغرفة واذا بجماعة من جند بصرى قد هموا بحماد فامسكهُ احدهم بذراعهِ وقال لهُ انك سارق فنفر حماد منهُ وصاح بهِ قائلاً اخسأ يا كلب العرب وصاحت بهم هند دعوهُ فهمس هو في اذنها « احذري ان تخبريهم من انت لئلاّ يفتضح امرنا » فتجمهروا حولهُ وهموا بالقبض عليهِ ثم سمعوا صوتًا يقول « امسكوا هذا اللص وائتوني بهِ حيًّا او ميتًا انهُ جاسوس ذميم » فعرف حماد صوت ثعلبة فخرج نحو الصوت والجند يفرون من امامهِ ويتفرّقون حولهُ ولم يستطع احد القبض عليهِ فصاح بهِ تقدم انت يا جبان لنرى من هو الخائن واستل حماد خنجرهُ وهجم على الجموع يبحث عن ثعلبة فلم يعرفهُ بينهم فاعترضهُ احدهم وهمّ بالقبض عليهِ فطعنهُ حماد طعنة أصابت كتفهُ فصاح من شدة الالم فتفرّق الناس فاراد حماد الفرار خوف الفضيحة فتذكر هندًا فخاف ان يفتك بها ذلك الخائن فعاد اليها وقال لها انجي بنفسك لئلاّ نقع كلانا وفي وقوعك عار علينا فقالت حاشا لي ان اتركك بين ايدي هؤلاء اللئام والله لن يظفروا منك بطائل وهمّت باحدهم فاستلت حسامهُ وهجمت على الجند وكانوا عديدين فتفرقوا ايدي سبا فقالت خسئ الانذال هلمّ اليّ وخرجا معًا والليل قد سدل نقابهُ فاسرعا الى فرسيهما فركباهما وسارا

وكان ثعلبة قد بات تلك الليلة في صرح الغدير كما قدمنا فقضى ليلته هاجساً في امر حماد وما ناله من السبق في ذلك اليوم وكيف تظاهرت ابنة عمه بميلها اليه واستخفافها بثعلبة وكان كلما تصوّر هنداً تلبس حماداً الدرع والناس يرتلون و ينشدون اتقدت نيران الغيرة والحسد في صدره وهاجت فيه حاسة الغدر وشعر بميل نحو هند حتى أصبح شديد الرغبة في خطبتها بعد ان كان يترفع عنها وكل ذلك من عوامل الحسد فان الرجل قد يرى فتاة فلا يعتدُّ بها ولا يظن بها نفعاً فاذا سابقه اليها احد وآنس منها ميلاً الى هذا واستخفافاً به حسنت في عينيه وخصوصاً اذا وقع بينهما تناظر او تسابق فكان ثعلبة يتوقع من خطبته هنداً انتقاماً من حماد وتشفياً من هند لانه لحظ منها شماتة به في حرمانها من حبيبها شيئاً لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة ·
فبات ليلته تلك في قصر الغدير يفكر في ذلك فلما اصبح أخذ يتجسس لعله يعلم شيئاً من أخبار هند فسار الى المطابخ وتظاهر بالتفرج بمناظر الاطعمة وكيفية ذبح الذبائح فسمع بعض الخدم يتحدثون بعزم هند الى دير بحيراء في ذلك اليوم

أما هند فلم تستطع الخروج قبل ذهاب ثعلبة فلما علمت انه سار مع والدها و والدتها تنكرت وسارت كما قدمنا

أما هو فاضطر لمرافقة جبلة وامرأته الى قرب البلقاء استجلاباً لاعجابها ثم عرج الى بصرى فلم يصلها الاّ عند الغروب فدبر حيلة للقبض على حماد بتهمة اللصوصية والجاسوسية حتى اذا نفيت الواحدة ثبتت الاخرى فجاء باحد خماري بصرى واوعز اليه ان ينتحل حيلة يتهم بها حماداً بالسرقة ليكون له بذلك ذريعة للقبض عليه فاذا قبض عليه اتهمه بالجاسوسية او فتك به بلا تهمة · ولتمام حيلته كان ابوه الحارث قد سار الى بيت المقدس في عصارى الامس اثناء غياب ثعلبة في السباق وسبب ذهابه ان هرقل امبراطور الرومان ويسميه العرب قيصر الروم كان قد تغلّب على الفرس واخرجهم من الشام وانتهى من حروبه معهم في تلك السنة وكان قد نذر انه اذا كشف الله عنه جنود الفرس سار ماشياً على قدميه من حمص الى بيت المقدس [1] فلما نصره الله بعث الى الحارث بن ابي شمر ان يوافيه الى بيت المقدس ليعد له الانزال و يرمم ما

(١) السيرة الحلبيّة جزء ٣

تهدّم من الاسوار والحصون في اثناء الفتح . فاستغنم ثعلبة غياب والده واستخدم الجند كما شاء فجاء بشرذمة منهم الى الدير وفعل ما فعلهُ كما قدمنا

فلما سمع صوت حماد ورأى السيف بيد هند فرّ هو ورجالهُ على ان يكمنوا لهم في بعض الطريق

الفصل العاشر

النجـــاة

أما حماد وهند فساقا جواديهما نحو صرح الغدير ولكنهما سارا في طريق غير الذي ظنّا الخادمة تعود منهُ لئلاّ تلتقي بهما فينكشف امرهما فلما خلوا في الصحراء وأمنا من العيون قال حماد تباً لذلك الخائن والله لوددت ان تكون تلك الطعنة في صدره فنتخلص من شره

فقالت يا ليتها كانت كذلك ولكن هذا الخائن سينال جزاءه فعلهِ هذا على انني اخشى ان يكون قد كمن لنا في بعض الطريق

فقال حماد طيبي نفسًا يا حبيبتي فان جنود غسان كلها وجنود قيصر وكسرى لا تستطيع ان تمس شعرة منك ما دمت حياً مقيماً الى جانبك ولقد شهدتُ ملكِ اليوم شجاعة حيّرتني في عيني نفسي فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء واراني ساعة وقفتِ وذلك الحسام بيدك حسبت الجنود تفر من امامك وشعرت بقوة فوق العادة ولو اجتمعت حولي جيوش مجيشة ما حسبتُ لها حساباً

قالت تلك دوافع المحبة قد تذهب برشد صاحبها فيقتحم الاهوال ولا يبالي بحياته ولعلي اتيت بما أؤاخذ عليهِ ولكنني فعلت ذلك مدفوعة بحب حماد

فقال لا تكرهوا أمرًا لعلهُ خير لكم فقد شعرت بعد هذه الواقعة ان ربط المحبة بيننا قد زادت متانة ولا أرى في السماء او الارض ما يمكن ان يحول بيني وبينك

فاوقفت هند فرسها كأنها تريد التصريح بامر ذي بال فاوقف حماد فرسهُ فمدت يدها اليهِ فمد يده وتصافحا وقالت أُعاهدك عهدًا مقدسًا اني باقية على حبك الى آخر نسمة من حياتي ولو حال دون ذلك كل مصاعب بني الانسان

فنسي حماد موقفهُ لعظم غرامهِ بها وسروره بما شاهد من حبها وقال لها ان هذا العهد يا هند لينسبني كل اسباب الشقاء . والله لاقتحمنَّ اعظم الاخطار واجوب الفيافي والقفار في سبيل حبك يشهد علينا سهيل والميزان وسائر نجوم السماء والله اكبر الشاهدين .

فاطرقت هند وقد غلب عليها الحياء . ولسان حالها يقول وانا اعاهدك بذلك ايضاً

فقال لها حماد اما وقد تعاهدنا على الحب فلتكن تلك الاساور عربون المحبة وقد قدمتها لك عن غير قصد وهي تقدمة حقيرة بجانب مقام بنت ملك غسان فهل تقبلين بها تذكاراً

فنظرت اليهِ وفرسها يشاغلها بالاقدام والاحجام كأنهُ شعر بما يتقد فوقهُ من لواعج الغرام وقالت ذلك يدلك على ان حبنا مقدر منذ الازل وقد اراد الله ان تكون هذه الاساور عربوناً لذلك الحب فسأحافظ عليها ما بقيت ولكن اتعلم ما هو تذكاري عندك قال كيف لا اعلم وصلصلة تلك الدرع لا تزال ترن في اذني فهي ستقيني غائلات الزمان باذن الله

قالت لقد احسنت فهم المراد حرسك الله و وقاك

فلما تبادلا العهد وخزا الفرسين ولم تمض برهة حتى صارا على مقربة من صرح الغدير وقد عرفاه من النيران الموقدة بالقرب منهُ وهي نار القرى كان يوقدها الغسانيون لاهداء المارة ممن يريدون طعاماً او مبيتاً (١)

فوقف حماد وقال هذا قصرك فسيري اليهِ فاني عائد الى منزلي

فقالت اخاف عليك ذلك الخائن واخشى ان يكون كامناً برجالهِ في بعض المكامن والليل بهيم فربما اراد بك سوءًا

فهزَّ رأسهُ استخفافاً وقال ذربهِ وكل جند ابيهِ ولا تخافي عليَّ بأساً باذن الله فالحّت عليهِ ان يدخل القصر بحيلة الضيافة منفردًا فقال انك لتزيدينني رغبة في المسير منفردًا واني لأستحي من نفسي ان اخاف ابن الحارث ورجالهُ ولو كانوا الوفًا . فلما لم تجد سبيلاً الى اقناعه ودعتهُ فقبض على يدها وضغط عليها وجدّدا الوعد وعدًا طاهرًا وقالت سر بحراسة المولى وكلاءَتهِ وسارت هي نحو القصر فلبث هو واقفًا حتى تحقق

(١) صناجة الطرب

دخولها الحديقة فتحوّل نحو منزلهِ وهو على مسافة بعيدة عنهُ فوخز جواده وجدّ في المسير زميلاً وقد ترك قلبهُ في صرح الغدير ونسي نفسهُ فلم يشعر الاّ وهو في مكان لم يعرفهُ فاوقف جواده ونظر الى ما حولهُ فاذا هو في ارض قفر لم يعهدها قبلاً ففكر برهة لعلهُ يفقه اين هو فلم يستطع فنظر الى النجوم وراجعها وكان خبيرًا بعلم الفلك فرأى انهُ اخطأ الطريق وان منزلهُ في جهة غير التي كان سائرًا فيها فشكر علم الفلك لانهُ كان وسيلة في اهتدائهِ الى سواء السبيل وحوّل حماد جواده نحو الجهة التي ظن انها تؤديهِ الى منزلهِ حتى وصل الى البساتين والمغارس

وفيما هو سائر زميلاً بين الاشجار والطريق كثيرة الحصى اذ سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه فاصاخ بسمعهِ واحدق بعينيهِ لجهة الصوت فاذا هو يتقرب نحوه فامسك بعنان جواده حتى مشى خببًا ينظر الى جهة الصوت والظلام حالك فاذا بالفارس يدنو منهُ ثم سمع صوتًا يناديهِ حماد فعرف انهُ صوت احد خدمتهِ فاجابهُ (سلمان) وهو اسم ذلك الخادم قال نعم يا سيدي قف عندك فوقف حتى اتاهُ فقال حماد ما الذي جاء بك الآن

قال أدِر عنان جوادك واتبعني لاخبرك الخبر وأسرع فتبعهُ وسارا اهاجًا وهما لا يتكلمان وقد انشغل بال حماد لذلك حتى بعدا عن مساكن الناس وانفردا في الصحراء فامسكا عنانَي الفرسين فقال حماد قل يا سلمان ما سبب هذا العدو وما الذي جئت من اجلهِ

قال جئت بامر من سيدي والدك ان تفرّ من غسّان الى عمّان

قال ولماذا . قال لان صاحب بصرى بعث شرذمة من رجالهِ فقبض على سيدي والدك واستولى على كل ما في البيت

فبغت حماد وقد علم السبب ولكنهُ تجاهل وقال ولماذا فعلوا ذلك

قال زعموا انهُ جاسوس من ملك العراق فساقوه محورًا الى بصرى وسمعت الرجال يسألون عنك في نادىء الرأي فلما لم يروك قبضوا على سيدي والدك ونهبوا المنزل ولم يغادروا شيئًا فأسرّ اليّ والدك ان اقتفي اثرك وافرّ بك الى عمّان ننتظره هناك شهرًا فان ابطأ علينا بحثنا عنهُ في بصرى

قال وهل أصابوه بسوء

قال كلاّ يا سيدي ولكنهم اوثقوه وساقوه الى بصرى ولا بد من أن يتعقبوا اثرك للقبض عليك وهذا ما حمل سيدي على تحذيرك فنحن ذاهبون الى جهات عمان نقيم فيها متنكرين شهرًا ثم يقضي الله بما يشاء .

فانقبضت نفس حماد عند ذلك وكادت تخنقه العبرات وعلم ان الذين قبضوا على والده هم ثعلبة ورجاله فحدثته نفسه ان يثني عنان جواده الى بصرى وقد كبر عليه الفرار ولكنه اطاع والده وسار مع سلمان صامتًا يفكر في حاله مع هند وكيف ساقه الحب الى هذه العاقبة فبعد ان مشيا مدة صامتين قال حماد اتعرف هذه الطرق يا سلمان

قال نعم يا سيدي اعرفها جيدًا فقد طرقتها مرارًا مع سيدي والدك منذ بضعة اعوام . وكان سلمان شابًا في الثلاثين من عمره رافق عبد الله في اكثر اسفاره حتى حنكته التجارب وعلمته الايام وكان نبيهًا فطنًا يستهلك في خدمة مولاه وكان عبد الله يركن اليه في مهماته ويثق به في معظم اعماله فلما تحقق وقوعه في الاسر عهد اليه العناية بحماد وهو يؤمل ان يتخلص من اسره فيجتمع به فأمره ان يسير به الى عمان وهي مدينة قديمة واقعة على نحو ستين ميلاً من بصرى جنوبًا مع انحراف نحو الغرب كانت تسمى في عصر الاسرائيليين (ربّات عمون) وكانت عاصمة العمونيين الذين تضافروا هم والموابيون واخرجوا سكان شرقي البحر الميت والاردن واحتلوا مكانهم ولهذه المدينة ذكر كثير في التوراة وقد تخرّبت مرارًا حتى بناها بطليموس فيلادلفوس ملك الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد وسماها فيلادلفيا [1] ثم صارت في اوائل الميلاد اسقفية ذات اهمية كبرى يقيم بها اسقف تحت ادارة اسقف بصرى الاكبر فيها كثير من الابنية الرومانية كالقلاع والهياكل والكنائس [2]

وما زال حماد وسلمان يسيران زمنًا حتى انتصف الليل وبعدا عن بصرى كثيرًا فوقفا وقد تعبا وتعب الجوادان وطلع القمر وكان في ربعه الاخير فارسل أشعته على تلك السهول والجبال والارض خالية لا أثر للآدميين فيها ولكنها مكسوة بالغابات وأكثرها من شجر الزيتون والجوز فسارا حثيثًا وحماد غارق في بحار التأمل تتقاذفه الهواجس وقلبه يخفق تارة حبًّا لهند وطورًا خوفًا على والده فاذا تصوّر ثعلبة اتقدت نيران الانتقام في جسمه وود لو يلقاه ليقطعه اربًا اربًا ولكنه كظم ما في

(١) مري (٢) معجم الآثار الدينية

نفسهِ وعاد الى الحديث مع سلمان والجوادان يجريان على الرمل لا يسمع لحوافرهما صوت والجوُّ هادئ وضوء القمر ضعيف · فقال حماد اخبرني يا سلمان كيف فعل هؤلاء الطغام بوالدي وبالمنزل

قال كنا في غفلة ومولاي في قلق لغيابك من الصباح وهو لا يدري الى اين سرت فلما غابت الشمس ولم تأْت ازداد قلقهُ فهمّ بالركوب للتفتيش عنك وفيما نحن في ذلك وقد اسرجت جوادي لارافقهُ اذ سمعنا صهيل الخيول و وقع حوافرها وتقاطر الرجال عشرات فأحاطوا بالمنزل فسألناهم عن الخبر فقالوا ابن الامير حماد واغلظوا بالمقال فسألنا عن أمرهم فلم يجيبونا الاَّ بالشتم والسباب فأجبناهم بمثل مقالهم فهموا بسلاحهم وخيلهم وقبضوا على سيدي الامير بعد ان دافع دفاعًا حسنًا وكان اعزل فأوثقوهُ وسقطوا على المنزل فنهبوهُ فاغتنمت فرصة اشتغالهم في بالنهب ودنوت من سيدي فاوصاني ان اقتفي أثرك واحذرك من المجيء كما اخبرتك ولولا التقادير لقبضوا عليَّ ولكني بحمد الله تمكنت من الفرار وجئت اليك

فقال وهل أخذوا متاعنا واموالنا

قال انت تعلم يا سيدي ان الثمينات من الذهب والفضة مكنوزة في مكان لا يعرفهُ احد سوانا ولكنهم اخذوا ما عثروا عليهِ من الاثاث

فتذكر حماد الدرع فقال وهل اخذوا الدرع التي جئت بها بالامس

قال كلاَّ فانها في هذا الخرج على فرسي وقد حفظها الله صدفة لوجودها في هذا الخرج

فسرَّ حماد لبقاء الدرع لانها تذكار من حبيبتهِ هند

وفيما هما في الحديث آنسا نارًا عن بعد فقال حماد وما هذه النار ألعلها على مقربة من القرى

فوقف سلمان ونظر الى ما حولهُ وفكَّر قليلاً ثم قال ان النور الذي تراه هو في بلدة يسمونها بيت الجمال او ام الجمال (١) فاذا شئت ان نتحوَّل اليها فعلنا والاَّ فاننا سنشرف على جدول فيهِ ماء نشرب منهُ ونسقي جوادينا ونبيت فيهِ بقية ليلتنا

قال دعنا من البيوت لئلاَّ ينكشف امرنا

(١) مبدبل

الفصل الحادي عشر

مسبعة الزرقاء

وسارا حتى أشرفا على واد فيهِ ماء جار من الشرق الى الغرب وقد غطته الاشجار من الجانبين فوقفا في اعلاه ونظرا الى اسفلهِ فهالهما منظره لسكون الطبيعة وهدو الليل وضعف الاظلال لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وفرقرة حجل القر وحفيف الشجر حفيفًا بمرور النسيم وشعرا ببرد خفيف فترجلا ونزلا الوادي يقودان الجوادين وراءهما وضوء القمر لضعفهِ لم يكن يريهما الطريق الاَّ بصيصًا وكانا يسمعان لوقع حوافر الخيل دويًا يردده الصدى من جوانب الوادي حتى يخال لهما ان فرسانًا آخرين قادمون اليهما ثم لا يلبثان ان ينتبها الى الصدى على ان هيئة المكان كانت متسلطة عليهما وخصوصًا سلمان فقد كان اكثر وجلاً من حماد ليس لضعف فيهِ بل لعلمهِ انهما على مقربة من الزرقاء وهي مسبعة مشهورة بالضراوة وفيها السباع (١) ولكنهُ كتم ذلك عن حماد لئلاَّ يثير هواجسهُ واتخذ التدابير اللازمة للدفاع عند الحاجة فظلاَّ سائرين حتى اقتربا من الماء ونظرا الى موقفهما فاذا هما في واد بين جبلين والوادي تكسوه النباتات وبينها اشجار هائلة

فشد سلمان الفرسين الى شجرة على مسافة من الماء ريثما يستريحان قبل الشرب وسار مع حماد الى الماء فغسلا وشربا فنزع حماد كوفيتهُ وعقص شعره لئلاَّ يرف على كتفيهِ ووجههِ ثم افترش سلمان عباءتهُ على منبسط من الارض تحت شجرة جلسا عليها والجوادان يصهلان ويحصان الارض في طلب الماء

ثم اتكأ حماد وجلس سلمان الى جانبهِ يحادثهُ وحماد ساكت وذهنهُ مشتغل بنقيق الضفادع ونعيق الغربان على تلك الاشجار وحفيف الورق والاغصان وخرير الماء ولولا شواغلهُ بهواجسهِ في والدهِ وهند وثعلبة لخاف منظر ذلك الوادي ولكنهُ كان لا يزال منهمكًا بتقاذفهُ الشواغل فلبث صامتًا لا يتكلم فتركه سلمان وسار الى الجوادين فحلهما وجاء بهما الى الماء ووقف بهما على منحدر بالقرب من مجلس حماد وضم العنانين وربطهما ووقف بجانبهما يتلاهى بشد حسامهِ وعيناه شاخصتان الى قمم تلك الجبال كأنهُ يتوقع

(١) المعجم والمشترك

محذورًا وحماد غافل عن كل ذلك بهواجسهِ فلما روي الفرسان اعادهما الى مربطهما وجاء الى مجلس سيدهِ واسند ظهره الى جرع الشجرة وكان التعب قد أخذ من حماد مأخذًا عظيماً فالتف بعباءتهِ وغلب النعاس عليهِ فنام اما سلمان فلم يستطع رقادًا خوفًا من غائلة السباع وجعل يتوسل الى الله ان يمضي ذلك الليل بسلام فما زال كذلك الى قبيل الفجر فذبلت عيناه وهو جالس ولم يكد يغمضهما حتى سمع صهيل الجوادين معًا وقرقعة اللجامين فانتبه ونظر اليهما فاذا بهما قد اجفلا فخفق قلبهُ واستعاذ بالله ونهض لساعتهِ والتفت يمنة ويسرة فلم يرَ شيئًا ثم سمع قرقعة حجارة تتدحرج من قمة الجبل المقابل لهما حتى وصل بعضها الى الماء على مقربة منهُ واجفل الجوادان واكثرا من الصهيل فانتبه حماد وصاح ما هذا يا سلمان

فقال انهض يا سيدي اننا في خطر فنهض حماد واسرع سلمان اليهِ قائلاً نحن على مقربة من الزرقاء فلعل بعض السباع جاءت ترد الماء ولا خوف علينا منها لان الماء يفصل بيننا وبينها فهلمّ الى جوادك ولنبعد من حيث جئنا فهمّا بالجوادين وما كادا يركبان حتى رأيا اسدًا منحدرًا نحو الماء يتمايل عجبًا بمشيتهِ المعهودة والاحجار تتدحرج امامهُ وعيناه تتلألآن كأنهما سراجان متقدان فاثنيا العنانين نحو الجبل فسمعا صوتًا كالرعد القاصف ارتجت لهُ جوانب الوادي فقال سلمان هذا هو زئير الاسد يا سيدي فاسرع بنا ولا تخف فان الماء حائل بيننا وبينهُ

فوخزا الجوادين وصعدا حتى وصلا الى مرتفع والاسد يزأر عن بعد وهما يحسبانهِ وراءهما لهول صوتهِ ومجاوبة الصدى فلما وصلا قمة الجبل التفتا الى الوادي وكان النور قد لاح فشاهدا الاسد عند الماء يشرب .

فقال حماد ما فعلت بنا يا سلمان وكيف جئت بنا الى هذا المكان

قال جئتهُ مضطرًّا وعهدي بهِ بعيدًا عن مسبعة الزرقاء والظاهر ان هذا الاسد قد بعد عن عرينهِ كثيرًا فورد الماء ولا يلبث ان يعود ولا خوف علينا باذن الله . فوقفا برهة ينظران الى مجرى الغدير في اسفل الوادي فاذا بالاسد بعد ان شرب التفت يمينًا وشمالاً وزأر زأرة اصطكت لها مسامعهما وكان ذلك اوّل عهد حماد بالزئير ما سلمان فكان قد شاهد الاسد وسمع زئيرهُ في بعض حدائق كسرى بالمداين ورآها تتغالب وتتصارع

أما حماد فما زال براعي الاسد في صعوده الجبل وهو يتمايل بمشيته تيهاً وقد ارسل ذنبهُ فوق ظهره حتى توارى عن نظرها وكانت الشمس قد اشرقت او كادت واحسَّ حماد بالجوع فضلاً عن التعب فقال ما عهدك بالطعام هنا قال خلِّ عنك الاهتمام بهِ فاني كافل كل اسباب الراحة فسرنا قليلاً فاننا لا نلبث ان نصل الى دير على مقربة منَّا نقيم فيهِ يومنا ضيوفاً ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين . قال حسناً ومشيا برهة فاشرفا على بناء فوقهُ قبَّة عليها صليب فعلما انهُ دير وفيهِ كنيسة فنزلا هناك فاستقبلهما الرهبان بالترحاب وانزلوهما على الرحب والسعة فقضيا ذلك النهار في الراحة والطعام وكان طعامهما قاصرًا على الوان بسيطة لكنها لذيذة وفي جملتها انواع من الجبن والقشدة واللبن واللحم المقلي مع البيض وانواع التين المجفف والزبيب والجوز والمشمش المجفف فضلاً عن الخمر المعتقة فان خمر الديور مشهورة بجودتها ولاقيا من حسن وفادة اهل الدير ما شغلهما عن هواجسهما على ان حمادًا لم يهدأ لهُ بال ولا برحت صورة هند من مخيلتهِ كما كانت لما فارقها المرة الاخيرة ليلاً راكبة الى قصر الغدير وهو ينتظر وصولها اليهِ

فباتا تلك الليلة في الاحاديث المتنوعة واكثرها مما جرَّ اليهِ حديثهما عن ذلك الاسد فعلما ان المسبعة بعيدة عن الدير ولكنها في طريقهما الى عُمان ولا بدَّ للسائر الى عمان من المرور فيها الاَّ اذا دار في طريق طويل بعيد

ولما أصبحا تزوَّدا وصلَّيا وسارا على بركة الله وسلمان يفضّل المسير في الطريق البعيد خوفاً من السباع وحماد يأنف من خوفهِ ويثنيهِ عن عزمهِ

الفصل الثاني عشر

﴿ عبد الله في السجن ﴾

فلنتركهما سائرين الى عُمان ولنعد الى عبد الله وما كان من أمره فقد تقدَّم انهُ سار الى بصرى بتهمة الجاسوسية مخفورًا وهو يتعجب للعنف الذي اتخذه الرجال في القبض

عليهِ ونظرًا لعلمهِ ببراءة ساحتهِ تحقق انهُ لا يلبث ان يقف امام الحارث حتى يثبت براءتهُ فيفرج عنهُ فيذهب الى عمان حيث يلتقي بحماد ثم يأتيان لوفاء النذر بدير بحيراء وهذا ما حملهُ على ضرب الاجل شهرًا وقد فاتهُ السبب الحقيقي للقبض عليهِ

أما الجند فساروا بهِ الى بصرى وحجروا عليهِ في غرفة من غرف قلعتها جنوبي السور (١) فبات بقية ليلتهِ قلق البال على حماد لئلاَّ يأتي المنزل وهو لم يلتق بسلمان فيقع في الفخ فلما مضى الليل ولم يأتوا بهِ ترجح عنده نجاتهُ . وفي الضحى جاءهُ رجلان عليهما لباس الجند الروماني وهو الخوذة من النحاس الاصفر يتدلى منها خصل من شعر اذناب الخيل والادراع من الفولاذ تحتها اثواب حمراء لا تتجاوز الركبة وكان هذان الجنديان يحمل كل منهما حربة صغيرة وترسًا من الفولاذ وعلى صدر كل منهما شرائط من الحرير مزركشة بالذهب على شكل حرفين احدهما II عرف انهُ الحرف الاوَّل من اسم الامبراطور هرقل والثاني لم يعرف تفسيره ولكنهُ الحرف الاوَّل من اسم الفرقة التي ينتمي اليها الجنديان ولكن هذه العلامة قلَّما كان يتقلدها غير الخيالة منهم (٢) وكان مع الجنديين رجلان من جند ثعلبة بلباسهما العربي فأشاروا الى عبد الله فتقدم وصعدوا بهِ الى طابق علويّ في القلعة حتى وصلوا قاعة مفروشة باحسن الاثاث الروماني وفي صدرها عظيمٌ رومانيٌّ علم من لباسهِ ومقعده انهُ رئيس الحامية الرومانية كان جالسًا في صدر القاعة على كرسي مذهب يصعد اليهِ بدرجتين متشحًا بقميص مدرَّع بحراشف من نحاس محلاَّة بالذهب تحتهُ ثوب ضيق لا يتجاوز الساقين الاَّ قليلاً (٣) وكان ضخماً كثير العضل والدهن وشاهد بين يديهِ رجالاً اكثرهم في مثل لباسهِ وهم اهل مجلسهِ من الروم الاَّ رجلاً جالسًا بالقرب منهُ عليهِ لباس العرب عرف انهُ ثعلبة بن الحارث فتحقق عبد الله انهم يسوقونهُ الى قائد جند الروم ببصرى فدخلوا بهِ اليهِ فوقف متأدبًا وهو موثق فخاطبهُ القائد وكان اسمهُ رومانوس (٤) بواسطة الترجمان قائلاً . ما اسمك

قال عبد الله

قال من أي البلاد انت

(١) ودنتن (٢) تاريخ الرومانيين (٣) تاريخ المملكة الرومانية الشرقية
(٤) السيرة الحلبية جزء ٣

قال من العراق

« وما هي مهنتك

« اني من امراء العراق اعيش من ريع املاكي او اتجر ببعض اصناف التجارة

« وما الذي جاء بك الى هذه الديار

« جئت لأفي نذرًا نذرته لدير بحيراء

« وما هو نذرك

« ان اقص شعر ولدي في العشرين من عمره

فالتفت روماتوس الى ثعلبة وتخاطبا سرًّا ثم نظر ثعلبة الى عبد الله واستقدمه حتى دنا منه فقال له كيف تدّعي انك جئت لتقص شعر ابنك وانت مقيم هنا منذ اشهر ولم تقصه

قال لاني نذرت ان لا اقصه الاّ في يوم احد الشعانين القادم

فضحك استخفافًا بتلك الحجة وقال تلك حجج واهية لا تردُّ عنكم تهمة فانتم جواسيس من قِبَل ملوك الحيرة ولولا ذلك ما أقمتم في قرية بعيدة وتسترتم عنا وحاولتم اخفاء أمركم فمن كان في مثل ما انتم فيه من اليسار لا يترك مدينة بصرى بمنتزهاتها وشوارعها ومراسحها وملاعبها ويقيم في قرية حقيرة مثل قرية غسام فاعترفْ بالحقيقة لئلاّ يزداد العقاب عليك

قال قد قلت لكم الصدق كل الصدق

فقال ليس للصدق نصيب من مقالك وزد على ذلك انكم تدعون بالانتساب الى امراء العراق وقد امسكنا غلامك أمس بسرقة

فلم يفهم عبد الله معنى هذا القول وظنه بقوله ليستطلع شيئًا جديدًا عنه فقال لعلكم اسأتم الفهم فاننا لا نعرف مثل هذه الاعمال ولدينا من نعم الله ما يكفينا مؤونة السرقة او غيرها

فهز ثعلبة رأسه استهزاء ثم اخذ يلاعب شاربيه عجبًا وقال قد تحققت الآن جاسوسيتك وسنكشف ذلك عيانًا ثم قام اليه واخذ يفتش اثوابه وجيوبه بدعوى البحث عن اوراق او أشياء اخرى تؤيد تهمته فوجد في بعضها حقًا فتحه فاذا فيه خاتم فيه فصٌّ كبير من العقيق الاحمر فتأمله ثعلبة فاذا عليه كتابة بالحرف السطرنجيلي وهو من الاقلام التي

كانت مستعملة في العراق فحالما قبض ثعلبة على الخاتم ظهرت الغبنة على عبد الله ولكنهُ تجلد

فجعل ثعلبة يقلّب الخاتم بين يديهِ ويتأملهُ فلم يستطع قراءتهُ فالتفت الى رجل من التراجمة حولهُ وقال لهُ هل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم

فأخذه وقرأه وجعل ينظر الى عبد الله تارة والى الخاتم اخرى ظهرت على وجه عبد الله ملامح الخوف والحضور ينتظرون ما يقولهُ الترجمان حتى ملّ ثعلبة الانتظار فقال لهُ قل ماذا قرأت

قال ان على هذا الفص اسم « النعمان بن المنذر » وعليهِ شارة الملك فبهت الجميع وجعلوا يتأملون ذلك الخاتم واحدًا واحدًا وينظرون الى عبد الله واخيرًا خاطبهُ روماتوس قائلاً كيف اتصل هذا الخاتم اليك

فاجاب وهو يحاول ان لا يتلجلج وقال ابتعتهُ من بعض الصاغة

فانتهره ثعلبة قائلاً اتقول بعد هذا انك لست جاسوسًا وانت تدعي انك ابتعت خاتم النعمان بن المنذر ملك العراق من بعض الصاغة . متى كانت خواتم الملوك تباع في الاسواق قل ما الذي اوصل هذا الخاتم اليك . فلم يجب

فاعاد السؤال عليهِ ثانية وثالثة فاصر على الصمت

فتفاوض ثعلبة وروماتوس سرًّا ثم قال لعبد الله ان وجود هذا الخاتم معك مما يزيد الشبهة بخيانتك الاَّ اذا اخبرتنا كيف وصل اليك وماهي حكايتهُ

فسكت ولم يجب . فازداد حنق ثعلبة وقال لهُ قل اجب

فقال عبد الله قلت لك اني لا اعرف عنهُ غير ماقلتهُ لك وهو انهُ وصل اليَّ بالعرض في سوق الصاغة فالظاهر ان حضرة المترجم لم يحسن القراءة او لعل ما قرأهُ اسم رجل يشبهُ اسم الملك النعمان

فضحك ثعلبة وقال هذه دعوى فاسدة ولو كان والدي الحارث هنا الآن لاثبت نسبة هذا الخاتم الى النعمان ملك العراق لانهُ شاهد ختمهُ على كتبهِ مرارًا وعلى كلٍ فانك ستبقى في السجن حتى تعترف بالحقيقة والاَّ فانت مقتول شرَّ قتلة

قال عبد الله افعل ما بدا لك فما انا ممن يخافون القتل لاني بريء

قال سترى عاقبة وقاحتك هذه بعد ما يأتي نابلك الغلام الغر ويريك خيانتهُ رأي العين

ثم التفت ثعلبة الى الحراس الاربعة وكانوا لايزالون وقوفًا على الباب وقال خذوه بعد امر البطريق (القائد روماتوس) الى برج القلعة وابقوه مخفورًا ريثما تنظر في امره

وكان لقلعة بصرى برج شامخ يستحيل الفرار منه لان المسجون اذا حاول الفرار لا طريق له الاَّ النافذة فاذ وثب منها لا يدرك الارض الاَّ ميتًا

فصعدوا به طابقين آخرين وادخلوه البرج وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين وباب صغير فاقفلوا الباب عليهِ وتركوه وشأنهُ فلما خلا بنفسهِ اخذ يتأمل في ما مرَّ به في الليل الماضي وذاك الصباح ويراجع ما سمعهُ عن ابيهِ فلم يفهم معنى اتهامهِ باللصوصية ولكنهُ شكر الله لوقوعه هو ونجاة حماد لانهُ ما زال متحققًا نخاصة من تلك الشراك على ان ظهور ذلك الخاتم عرقل مساعيهُ وبات برهة يفكر ثم نهض الى نافذة البرج الشرقية فاشرف منها على مدينة بصرى كلها ببناياتها وشوارعها واسوارها وحولها الاحواض المائية الكبيرة وأشعة الشمس تنعكس عن اسطحتها وكان الجو صافيًا فنظر الى ما وراء ذلك فشاهد في عرض الافق جبلا عليهِ بناءٌ يكاد البعد يحجبهُ عن نظرهِ ولكنهُ عرف انهُ قلعة سرخد (صلخد) الشهيرة وبينها وبين بصرى طريق تجري على استقامة واحدة مرصوف بالحجارة الضخمة كسائر الشوارع الرومانية الكبرى وخيل لهُ ان بصرى وضواحيها حديقة يانعة في وسط صحراء قاحلة لأن بلاد حوران حلية جرداء غبراء اللون (١)

وتحوَّل من هنالك الى نافذة جنوبية فاشرف على ارض اكثر خصبًا من تلك يتراءى فيها عن بعد قرية ام الجمال لا يتميز شيء من ابنيتها لبعدها فتذكر حمادًا ومسيرهُ الى عمّان فقال في نفسهِ لعلهُ الآن يقرب ذلك المكان مع سلمان . ثم هاجت بهِ هواجسهُ وتذكر ما مرَّ بهِ منذ شبوبيتهِ وخاف ان يقتل قبل ان يبوح لحماد بسره وقد كتمهُ عنهُ وعن سائر اهل الارض نيفًا وعشرين سنة فتراكمت عليهِ الهواجس حتى نسي موقفهُ وما هو فيهِ من الخطر الشديد

فقضى نهارهُ في مثل ذلك فجاؤُوه ببعض الطعام فلم يتناول منهُ شيئًا وبات تلك الليلة وعاد في صباح اليوم التالي الى النافذة فحدثتهُ نفسهُ ان يثب من ذلك البرج

(١) فوجيه وبيرتل

لعلهُ ينجو فنظر الى اسفلهِ فاذا هناك هوة عميقة لا يمكن ان يصل الى قاعها حياً فصبر نفسهُ ينتظر ما يجيء بهِ القدر

وفي اليوم الثالث افاق على اصوات النواقيس من الاديرة والكنائس فاطلَّ من النافذة المشرفة على المدينة فرأى الناس في هرج ومرج وقد زينت الشوارع بسعف النخل واغصان الزيتون وخرج الناس زرافات ووحداناً يحملون الشموع واغصان الزيتون يأمون الديور والكنائس (١) وفيهم الرجال والنساء واولادهم بين ايديهم يحملون الازهار والشموع وقد تزينوا باحسن ما لديهم من اللباس وانواع الزينة فعرف انهُ يوم احد الشعانين والناس يحتفلون بهِ على جاري العادة فهاجت هواجسهُ وتذكر حماداً وموعدهُ بنذره فعظم عليهِ الامر واشتد بهِ ذلك حتى بكى ولكنهُ ما لبث ان عاد الى صوابهِ وتجلد تجلد الرجال المحنكين الذين خبروا الدهر وعرفوا تقلبات الزمان فقال في نفسهِ ان الدهر لا يستقرُّ على حال فلا بد لهذه الازمة من انفراج

فقضى ذلك اليوم وبضعة ايام اخرى لا يأكل الاَّ قليلاً وقد هدأ روعهُ وجعل يفكر في وسيلة ينجو بها من تلك الورطة وهو في كل ذلك يحمد الله لنجاة حماد من ذلك لانهُ لا يصبر على الاذى ولا تعوَّد مشاق الزمان وكوارث الحدثان. ففي ذات صباح جاءه الحراس وامروه بالنزول الى المجلس فنزل وقد استعد للدفاع فلما وقف بين يدي روماوس وثعلبة قال لهُ هذا كيف ترى نفسك

قال ارى اني اسير بين يدي حضرة البطريق

« لماذا لا تعترف بحقيقة امرك ونحن نعدك بالافراج

« قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني

« انبئنا اين هو ابنك فنعفو عنك

« من اين لي ان اعلم ذلك وقد اخذتموني على غرة وهو خارج الدير فلا اعلم مقرهُ

ثم ناداه روماوس قائلاً انظر يا هذا اذا انت اصررت على الانكار لا نرى بدّاً من ارسالك الى مولانا الامبراطور في حمص فهو اولى بالاقتصاص منك واذا

(١) المقريزي

وصلت اليهِ لا يخبك من بين يديهِ حيلة فالافضل لك ان تعترف بالحقيقة هنا وتنجو بنفسك

قال قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني فافعلوا ما بدا لكم

فامر رومانوس باعداد خبر يسير بعبد الله والخاتم الى حمص فيدفعهما الى الامبراطور هرقل فقال عبد الله بنفسهِ لعل في ذلك باباً للفرج فان الامبراطور اكثر رأفة وتعقلاً من هؤلاء. فاركبوه فرساً وهو موثق وحوله عشرة خفراء بينهم خمسة من جند الروم بلباسهم المتقدم ذكرهُ وقد ركبوا الخيل بلا ركاب على جاري عادتهم

الفصل الثالث عشر

هرقــل

وكان هرقل اذ ذاك في حمص جاءها على اثر انتصاره على الفرس انتصاراً لم يكن يتوقعهُ فنذر ان يسير الى بيت المقدس ماشياً (١) فوصل عبد الله الى حمص وقد خرج هرقل منها على قدميهِ وفاء لنذرهِ والحارث بن ابي شمر الغساني قد جاء حمص ليتولى تدبير ما يلزم لذلك المسير فكان هرقل يسير ماشياً والبطاركة والاساقفة بين يديهِ وقد لبس التاج وتوكأ على الصولجان متزملاً بوشاح ارجواني مزركش (٢) وامامهُ الخاوث ورجالهُ يفرشون لهُ البسط في الطرق ليمشي عليها فسار عبد الله مخفوراً وراء الموكب من حمص الى بيت المقدس ورأى الجند يحف بالموكب وكلهم مشاة يتقدم كل فرقة منهم علمٌ في اعلاه نسرٌ من الفضة او صليب الاسرية صليبها من الذهب مرصع بالياقوت والالماس كانت تحيط بالموكب عن قرب . وكان الناس في اثناء الطريق يخرجون من القرى والمدن لمشاهدة الامبراطور ماشياً وحاشيتهُ حولهُ يسيرون جميعاً على البسط والسجاد والناس يلقون الازهار على الطرق وبعضهم ينثرها على الامبراطور ورجالهِ وآخرون يرشون الطرق والمارة بالارواح العطرية على انواعها (٣) حتى وصلوا بيت المقدس وقد زينها اهلها وخرج البطريرك

(١) السيرة الحلبية (٢) الواقدي (٣) الاغاني جزء ٦

الاساقفة بالصلبان والمباخر يحرقون فيها البخور والند والعنبر ويسيرون بالمشاعل امامهم فاستقبلوا الامبراطور على مسافة خارج المدينة وعادوا به بالتراتيل والاناشيد والصلوات والناس يزاحم بعضهم بعضًا يتسابقون لمشاهدة الامبراطور وكانت شوارع بيت المقدس تعج عجيجًا بالمارَّة فضلاً عن المطلّين من النوافذ والشرفات والاسطحة حتى وصل الموكب الى كنيسة القيامة والنواقيس تدق والقسس يرتلون ويسجون ثم اقيمت الصلاة شكرًا لله على ما اولاهم من النصر على اعدائهم الفرس

كل ذلك وعبد الله وحراسهُ يرافقون الجماهير فلاحظ عند اشرافهم على اسوار المدينة انها متهدمة وآثار منجنيق الفرس والروم لا تزال ظاهرة فيها حتى لحق معظمها بالارض وما زالوا سائرين حتى اتوا دار الحكومة فساقوا عبدالله الى السجن فلما اصبحوا ساروا الى الحارث بن ابي شمر فبلغوه الرسالة وسلموا اليهِ عبد الله واحكوا لهُ حكايتهُ ودفعوا اليهِ الخاتم فحفظهُ حتى يعرضهُ على هرقل فبقي عبد الله في محبسهِ شهرًا لم يتمكنوا في اثنائهِ من تقديمهِ الى هرقل لتزاحم الوفود من سائر الانحاء يهنئون الامبراطور بما اوتيهُ من النصر

فلما تمت مهمة الحارث وهمَّ بالرجوع الى بصرى تذكر عبد الله فاستأذن هرقل ان يدخل بهِ عليهِ فاذن لهُ فساقوه مخفورًا الى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة اعدت لجلوس الامبراطور ورجال دولتهِ قد احدق بها الخفر باسلحتهم وملابسهم الرسمية وقوفًا اجلالاً للامبراطور فدخل اولاً الحارث ثم استدعى عبد الله فدخل القاعة وقد هالهُ ما فيها من مظاهر الابهة والعظمة فشاهد الامبراطور جالسًا في صدر القاعة على سرير من الذهب الخالص يكاد لمعانهُ يبهر الناظرين وعلى رأسهِ تاج مرصع يتلألأ كالمصابيح وعلى منكبيهِ وشاح من الخز سماوي اللون مزركش بالذهب وفي يدهِ صولجان الملك وهي عصا طويلة من الذهب المرصع في اعلاها رسم النسر الروماني مرصع بالحجارة الكريمة . وكان هرقل كبير الجثة عظيم الهيبة زاد المشهد وقارًا والى يمينهِ بطريرك اورشليم بملابسهِ الرسمية وعصاه والى يساره سرجيوس بطريرك القسطنطينية والى كل من الجانبين القواد والاساقفة وسائر رجال الدولة على كراسي من الذهب وكانت ارض القاعة مكسوَّة بالسجاد المزركش والابسطة الثمينة

ورأى بين الاساقفة اسقفًا شاهده مرة في الحيرة وهو كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد وكان يسمع بسعة علمه ودهائه فعجب لوجوده هناك وازداد عجبًا لما رآه جالسًا بجانب البطريرك الاورشليمي في منزلة البطاركة ورأى بجانب البطريرك القسطنطيني بطريركًا لم يعرفه

فلما دخل عبد الله هاله الموقف ولكنه تجلد وقد علمته الايام ان ما يراه من مظاهر الأُبهة ليس الا اعراضًا زائلة وان الحق سلطان يعلو ولا يعلى عليه . ولم يكن من شأن الامبراطور النظر في مثل هذه الدعوى الجزئية لولا ما همه من امر الخاتم فاحب استطلاع امره بنفسه فلما مثل عبدالله بين يديه خاطبه والحارث يترجم بينهما فتناول الامبراطور الخاتم بيده وقال لعبدالله

من أين اتيت بهذا الخاتم

فاجابه عبدالله مطرقًا قد جاءني بطريق العرض يامولاي فاشتريته بالثمن

قال لا يعقل ان مثل هذا الخاتم يباع بالاسواق او يلقى على الطرق وهبْ انك وجدته على قارعة الطريق ألم يكن الاجدر بك تسليمه الى صاحبه .

فقال عبدالله مولاي يعلم ان صاحب هذا الخاتم اذا صح انه النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة فهو في عداد الاموات منذ نيف وعشرين سنة

قال الامبراطور أليس من ابنائه احد حيًا تسلمه اليه

فسكت عبدالله .

فقال الامبراطور ما بالك لا تجيب . أجب ولا تخف وهبْ انك جاسوس او شبه جاسوس فنحن لا نخاف الجاسوسية بعد ان منحتنا العناية الصمدانية اكاليل النصر على اكاسرتكم

فقال عبدالله لقد نطق مولاي ببراءتي من الجاسوسية من تلقاء نفسه والحمد لله اذ لم يبق ثم حاجة اليها والصلح قد عقد بين جلالته وكسرى ملك الفرس بعد ان كان ما كان من ظهوره عليه

قال هرقل نعلم ذلك ولكننا شديدو الرغبة في معرفة كيفية وصول هذا الخاتم اليك وسبب اقامتك بجوار بصرى كل هذه المدة متنكرًا على ما علمت من عاملنا هناك

فظلّ عبد الله طرقًا ولم يجب

فقال الامبراطور قل يا رجل قل فان هرقل امبراطور الروم يخاطبك

فجثا عبد الله عند قدمي الامبراطور كأنّه يحاول تقبيلهما وقال انا اعلم ذلك ياسيدي ولكنني لا استطيع التصريح باكثرمما فهتُ به بين يديك

قال اذن انت تكتم امرًا تحاذر ان تبوح به

قال أجل لقد صدق مولاي

قال اتكتم ذلك عن امبراطور الرومانيين ألا تخاف بطشة او تخشي الحكم عليك بالاعدام

قال لا أظن احدًا لا يخاف الموت ولكنني افضلهٔ على التصريح بهذا السر وها اني بين يديك فأمر بما تشاء

فعجب هرقل لهذا الاصرار وقال يا للعجب اتقول ذلك ولا تخاف

قال اني على يقين يا مولاي بان موتي وحياتي بين شفتيك ولكنني لا استطيع غير ذلك

فالتفت هرقل الى من حولهٔ من البطاركة والاساقفة والقواد وقال ما قولكم بهذه الجسارة فاني اراني ازداد ميلاً لمعرفة سرّ هذا الخاتم فالتفت البطريرك الاورشليمي الى عبد الله وحرضهٔ على الاقرار عبثًا وفعل مثل ذلك ايضًا البطريرك الانطاكي وغيرهما بلا جدوى

فاراد هرقل تهديده فأمر بالجلاد فجاء والسيف بيمينهِ فقال لهُ ثنّي برأس هذا الرجل فقاده الى باحة الكنيسة وعبد الله يسرع امامهُ لا يتردد لحظة فربط عينيهِ واركعهُ على نطع ودار حولهُ دورة والامبراطور يراه من داخل فلما دار الدورة الثانية استقدمهُ هرقل وامر بحل رباط عينيهِ وقال لهُ ألا تزال مصرًّا على الكتمان

فقال عبد الله اقسم برأس مولانا الامبراطور وسر التثليث المقدس ان ليس في أمر هذا الخاتم ما يمس جلالتكم بوجه من الوجوه ولكن كتمانهُ فرض عليّ واجب لا استطيع التحوّل عنهُ

فازداد الامبراطور استغرابًا وقال لمن حولهُ وكيف العمل اذًا

فقال عبد الله اذا أذن مولاي في أمر يكون فيهِ راحة الخاطر فعلتهُ

قال وما هو

قال اننا معشر النصارى نحترم سرّ الاعتراف فاذا شئتم ان ابوح بسري هذا لغبطة البطريرك الاورشليمي على شرط ان يشير الى جلالتكم في علاقة هذا السرّ بكم او عدمها بغير ان يصرح بتفاصيل قصتي فاذا قال لكم ان لا علاقة لها بكم تحققتم صدق قولي وعذرتموني على كتمانه

قال لا بأس من ذلك واشار الى البطريرك فخلا بعبد الله في الكنيسة ساعة اطلعه فيها على سرّ ذلك الخاتم

ولما همّا بالرجوع الى القاعة قال عبد الله ارجو من مولاي البطريرك ان يخبرني عن البطريرك الجالس بجانب البطريرك سرجيوس من هو

قال هو اثناسيوس بطريرك اليعاقبة ومقامه في الاسكندرية وقد جاء لمقابلة الامبراطور ولعله يغتنم الفرصة للمداولة معه بما هو جار من الاختلاف المذهبي بين الملكية واليعاقبة في القطر المصري

فقال وهل ذلك الاختلاف لا يزال متمكنًا فقد بلغنا انه كاد يزول

فتنهد البطريرك وقال ظنناه كاد يزول ولكنه لم يزل فان مولانا الامبراطور رجل حازم ذو رأي سديد وقد علم بعاقبة هذا الانقسام فلاح له ان يختلق وسيلة للتوفيق بين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والطبيعة والمشيئة فاستعان بالبطريرك سرجيوس القسطنطيني فاستنبط منذ بضع سنوات عقيدة متوسطة وهي الاعتراف بطبيعتين في المسيح لها مشيئة واحدة وفعل واحد وعرض عقيدته هذه على البطاركة والاساقفة فقبلها اكثرهم . وفي عزمه ان ينقل البطريرك اثناسيوس الى كرسي انطاكية ويرسل الاسقف كيرلس الى الاسكندرية فيجعله بطريركًا وواليًا عليها ولعله يقصد بذلك التوفيق بين الكرسيين الانطاكي والاسكندري ولكني لا اظنهما يتفقان [1] فان التعصب متمكن من الجانبين وليست هذه الاختلافات في اعتقادي الاّ مماحكات لفظية يتمسك بها بطاركتنا التماسًا للسلطة الدنيوية ولكن هذه ارادة الله فما اجلّ المملكة المسيحية ان تكون مذهبًا واحدًا نقول قولاً واحدًا تأييدًا لدولة الروم العظمى فقد كفانا ما نجم عن هذه الاختلافات من الاحن والمصائب ولا نزال نتوقع ما هو فوق ذلك فنطلب الى الله ان يلطف بعبادة

---

(١) تاريخ الانشقاق جزء ١

فتعجب عبد الله لهذه الاختلافات وأعجب برغبة هرقل في جمع كلمة رعيتهِ وتحقق ما سمعهُ عن تأنيهِ وحزمهِ ولكنهُ لم يكن يرجو لهُ الفوز بغيتهِ لما يعلمهُ من تمكن الشحناء بين الاحزاب ثم قبّل يد البطريرك وخرجا

وفيما هما عائدان نحو القاعة شاهد الحرس في هرج وبينهم رجل غريب بلباس اهل البادية ليس عليهِ غير الشملة والعمامة تقلد حسامًا اعقف وحمل رمحًا وحربة وقد علاه الغبار ولوحتهُ الشمس وظهرت على وجههِ آثار الاسفار وكان عبد الله خبيرًا بقبائل العرب لكثرة اختلاطهِ بهم فلاح لهُ ان الرجل من اهل الحجاز فعجب لمجيئهِ وليس في بيت المقدس كلهِ احد في مثل لباسهِ وشكلهِ ولولا اشتغالهُ بامر نفسهِ لخلا بهِ وسألهُ عن حالهِ ولكنهُ اضطر لمرافقة البطريرك الى قاعة الامبراطور فدخلا وجلس البطريرك في مجلسهِ ووقف عبد الله في موقفهِ

فقال هرقل للبطريرك كيف رأيت الرجل قال رأيتهُ صادقًا في لهجتهِ وهو معذور في كتمان امرهِ وامر هذا الخاتم وقد اطلعني على خلاصة حكايتهِ فاذا هي مستقلة عن جلالتكم ولا علاقة لها بالروم قاطبة ولكنهُ سرٌّ مقدس اقسم على كتمانهِ فلا يستطيع التصريح بهِ الاَّ في حينهِ

الفصل الرابع عشر

دعوة الملوك الى الاسلام

فاقتنع هرقل والتفت الى عبد الله وعبد الله مطرق اجلالاً ووقارًا وقال قد اخبرنا غبطة البطريرك بعذرك في الكتمان فصفحنا عنك فكن مطمئنًا آمنًا وناولهُ الخاتم بيدهِ ونادى الحارث فوقف بين يديهِ فبلغهُ عفوهُ وامرهُ ان يدفع اليهِ كتاب الأمان فتقدم عبد الله وجثا امام الامبراطور وشكر نعمتهُ وتقهقر يريد الخروج فرافقهُ الحارث الى باب القاعة ثم رأى ذلك البدوي قد اذن لهُ بالدخول وفي يدهِ رقٌّ من جلد يريد تقديمهُ الى الامبراطور فاعترضهُ الحارث فقال البدوي بيدي كتاب الى جلالة الامبراطور اريد تسليمهُ اليهِ فاخذ الحارث الكتاب فاذا هو مختوم بالطين (١) فقدمهُ

(١) ابن خلدون

الى هرقل فاغتنم عبد الله انشغال الحارث وانزوى في بعض جهات القاعة بين الجموع ووقف ينظر الى ما يكون من امر ذلك الكتاب

فرأى هرقل قد فضه وتأمله فلم يستطيع قراءته فناوله الى ترجمانه فنظر اليه ثم قال انه مكتوب بالحرف الكوفي باللغة العربية

فقال هرقل اتله علينا فقرأه فاذا فيه

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم والسلام على من اتبع الهدى اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان توليت فان اثم الاكار عليك [1]

(الختم)

محمد

رسول

الله [1]

فلما أتم قراءته ترجمة فبغت كل من في الجلسة لشدة لهجته فالتفت هرقل الى من حوله كأنه يستشيرهم في شأنه وهو لم يفهم المراد منه لانه لم يكن يسمع بتلك الدعوة الاَّ همسًا فقال ومن ينبئني بحكاية هذا الرجل فلم يستطع احد ايضاحًا كافيًا فنظر الى اطراف القاعة فشاهد عبد الله اليه فاشار فهرول نحوه متأدبًا فقال له هل سمعت شيئا عن صاحب هذا الكتاب وامر بالكتاب فدفع اليه فقرأه وقال نعم يا مولاي ان صاحبه نبيٌّ ظهر في مكة من بلاد الحجاز من قبيلة يقال لها قريش دعا الناس الى عبادة الله وكان اكثر العرب يعبدون الاوثان فاجابه جماعة كبيرة منهم بعد ان قاسى مشقات جسيمة من اضطهاد بعض اقاربه واعمامه واهل وطنه فهاجر الى يثرب فنصره اهلها وشدوا ازره وانتشرت دعوته في اقاصي بلاد العرب ويظهر من كتابه هذا انه يدعو مولاي الامبراطور الى التصديق به

فلما سمع ارباب المجلس قوله كثر اللغط فيما بينهم واظهروا الاستنكاف فالتفت هرقل اليهم كأنه يستطلع رأيهم فقالوا له ان في كتاب هذا الرجل جرأة كبيرة اذ لا نرى مسوغًا ان يحتقر الامبراطور الى هذا الحد فاشار هرقل اشارة فهم الحاضرون منها انه يلتمس سكوتهم فسكتوا والتفت الى البطريرك عن يمينه فاستخصه بالسؤال

(١) الاغاني جزء ٦ (٢) الواقدي

فقال البطريرك اني ارى في هذا الكتاب جرأة لم يسبق لها مثيل لان كاتبه يبدأ في خطابه بذكر اسمه ثم يذكر اسم جلالتكم فقد قال « من محمد رسول الله الى عظيم الروم » والعادة في خطاب الامبراطور ان يكون الاستهلال باسمه ثم اسم مخاطبه (١) فارى بعد امركم ان لا تعيروا هذا الكتاب التفاتًا

فقال هرقل ولكن علينا ان نبحث عن سيرة هذا النبي وصفاته ثم نحن مخيرون في ما نفعله فهل تعرفون احدًا من قريش نسأله عنه

فقال الحارث اعرف اميرًا من امراء مكة عظيماً اسمه ابو سفيان قدم في هذه الاثناء لتجارة في غزة وهو اقدر من يخبرنا عن صفات هذا النبي

فقال هرقل الحِّ به

فقال الحارث سمعًا وطاعة فسيكون هذا الرجل منا بعد بضعة ايام ان شاء الله

قال الامبراطور فلنعقد مجلسًا اذ ذاك بحضور هذا العراقي لانه يعرف العربية فلعله يفيدنا شيئًا



الفصل الخامس عشر

ابو سفيان

فقبل الحارث الارض بين يدي هرقل و وقف متأدبًا ثم ارفضت الجلسة

فخرج عبد الله في جملة من خرج وقد أسف لتأخره هناك و ود الاسراع الى حماد وقد داهمه الوقت ولكنه كان قد شاهد ابا سفيان في بعض اسفاره الى مكة ولم يكلمه فاحب ان يراه ثانية و يسمع حديثه عن صاحب هذه الدعوة فسار توًّا الى دار الضيافة بالدير فاقام على الرحب والسعة وخرج في اثناء ذلك الى المدينة وطاف احياءها وتفرج بمشاهدها فرأى فيها اخلاطًا من اليهود ولغتهم جميعًا العبرانية المشوهة بالالفاظ الكلدانية وفيهم جماعة من السريان و رأى جماعة كبيرة من الروم و في ايديهم اعظم متاجر البلاد وارفع مناصبها وما منزلة الوطنيين بينهم الاَّ منزلة الخدمة

(١) السيرة الحلبية

ولم يسمع في احاديث الناس الاّ الجدال بين القائلين بالطبيعة والقائلين بالطبيعتين فتيقن ان ذلك الخصام سيكون سبباً لسقوط هذه الدولة

فلما كان الوقت المعين للاجتماع اجتمع بالحارث وسارا معاً الى كنيسة القيامة فدخلا صحنها فشاهدا جماعة من البدو عرف عبدالله من لباسهم انهم من عرب الحجاز ففطن انهم رجال ابي سفيان ونظر فيما بينهم فرأى رجلاً يمتاز عنهم جميعاً بحسن زيهِ وكبر عامتهِ (١) واتساع عينيهِ عليهِ العباءة المزركشة وقد تقلد الحسام بخلاف سائر رجالهِ فقد كانوا يتقلدون الرماح ومعظمهم مكشوفو الرؤوس وفيهم من قد شدّ رباطاً حول شعرهِ من الاعلى

فلم يتكلم عبد الله ولكن الحارث تقدم الى ابي سفيان فوقف له هذا وقد عرفهُ انهُ الحارث بن ابي شمر فالقى اليهِ التحية واخبره انهُ جاء انقياداً لامر الامبراطور فقال له تربص ريثما ندخل على مولانا ثم نبعث اليك

ثم وصل الحارث وعبد الله الى القاعة فعلما من وقوف الحرس عند الباب ان الامبراطور هناك فدخلا وتأدبا فامرهُ هرقل باستقدام ذلك القرشي فخرج الحارث ثم عاد وحدهُ واخبر الامبراطور ان الرجل ابي الدخول الاّ بحسامهِ . قال هرقل فليدخل ولم تمضِ لحظة حتى دخل ابو سفيان ومعهُ بعض رجالهِ فبهرهم ما في القاعة من انواع الزينة ودلائل البذخ فوقف ابو سفيان امام الامبراطور ثم قبل الارض بين يديهِ وحياه قائلاً « ابيتَ اللعن » وهي تحية الملوك في الجاهلية (٢) فتلطف معهُ وامرهُ بالجلوس فتربع على الارض وجعل سيفهُ عرضاً على فخذيهِ وجلس رجالهُ وراءه فعلم هرقل انها عادتهم في الجلوس فلم يعترضهُ ثم خاطبهُ بواسطة الترجمان قائلاً

من اي القبائل انت

قال من قريش حماة الكعبة

« وما تعني بالكعبة

« هي حجّ الناس الى الآلهة

« اتعرف رجلاً اسمهُ محمد ظهر فيكم يدعو الناس الى دين جديد

« نعم اعرفهُ وهو من ذوي قرابتي لكنني لست على دعوتهِ فقد جاءنا بدعوة

(١) الاغاني جزء ٦ (٢) صناجة الطرب

جديدة ونحن على دين آبائنا وطالما نهيناه عن ذلك فلم ينتهِ

قال هرقل لقد همني امر هذا الرجل واود ان اعرف حقيقة حاله فهل تنبئني عنه وعن دعوته وما يدعو الناس اليه

فاصلح ابو سفيان مجلسه في تربعه كانه يعد نفسه لجلوس طويل ومشط لحيته باصابعه واطرق قليلاً يفكر في امر ذي بال

فابتدره هرقل قائلاً ما بالك لا تجيب وقد اقترحنا عليك امرًا يهمنا الاطلاع عليه الملك تجهله

قال كلاَّ يا سيدي ولكنني تذكرت بدء امر محمد هذا وتذكرت والله ثم ما كان من دعوته وانتشارها فتجدد استغرابي له فاذا اذنت بان اقص عليك خبره فعلته

قال ذلك ما اقترحنه عليك فقل

الفصل السادس عشر

سيرة صاحب الشريعة الاسلامية

فاسند ابو سفيان كوعيه على ركبتيه ليستريح في جلوسه والتفت الى من حوله واذا هو محاط بجماعة كبيرة من البطاركة والامراء والقواد فعلم انه يقص حكايته على اعظم رجال الروم والترجمان يترجم كلامه للحضور الاَّ من كان عارفًا العربية منهم كالحارث وعبد الله فقال

اعلم ايها الملك ابيت اللعن ان محمدًا صاحب هذه الدعوة الذي توصل الى مخاطبة جلالتكم قد ربي يتيم الابوين صفر اليدين على انه من اصل عريق في الشرف والسؤدد من قبيلة قريش التي انا منها و يتصل نسبنا بعدنان ونسب عدنان يتصل باسماعيل بن ابراهيم فنحن من اشرف العرب نسبًا واطيبهم طينة . وكان جدنا اسماعيل قد بنى لنا بيتًا تحج اليه الناس من اقطار العالم اسمه الكعبة بناه في مكة بالحجاز وهي مسقط راسي ومحل اقامتي ومركز تجارتي ومقام اهلي

وكانت ولاية هذا البيت تارة في قريش وطوراً في سواهم حتى اغتصبها منهم منذ قرنين او اكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانية اذ لا يخفى على مولاي القيصر ان العرب كافة يرجعون في انسابهم الى ابوين هما (١) اسماعيل الذي قدمت ذكره ومنه قبيلتنا وسائر قبائل الحجاز (٢) قحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن ·

ولم تستطع خزاعة الاستبداد بولاية الكعبة الاَّ لما كان من تفرق امر قريش وضعفهم حتى ظهر جدنا قصيّ وبذل الدم والمال حتى ظهر على خزاعة واسترجع ولاية البيت الى قريش وتولى هو كل اعمال الكعبة وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

فلم يستطع الترجمان فهم هذه الالفاظ واشكل عليه تفسيرها فقال هرقل افهمنا ما معنى هذه الاعمال

فقال ابو سفيان اعلم يا سيدي ان مكة لا حكومة فيها مستقلة كحكومة جلالتكم بل هي مكان عبادة لان الكعبة حجٌّ يزوره الناس كما يزور النصارى ديراً من الاديار ولكنها اعظم من ذلك كثيراً. فمن تولى اعمالها كانت اليه حكومة مكة وولاية امرها على نسبة ما يتولى من تلك الاعمال فمن تولى الحجابة كانت له حجابة الكعبة اي ان مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن اراد ويمنعها عمن اراد واما السقاية فهي ان في داخل الكعبة بئراً قديمة يقال لها بئر زمزم احتفرها جدنا اسماعيل [1] فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر في عهدته يسقي الحجاج منها · اما الرفادة فهي خرج او مالٌ تدفعه قريش الى من يتولى الرفادة فيصنع منه طعاماً للحجاج الذين يزورون الكعبة من اقطار الارض لانهم ضيوف عليه · واما اللواء فهو العلم الذي يعقدونه للحرب وصاحب اللواء يعقد الالوية للجند الذاهبين الى القتال وهو بمنزلة قائد الجند عندكم · أما الندوة فهي مجلس القضاء ولها بيت في الكعبة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة وصاحب هذه الدار هو صاحب الشورى والرأي [2] واليه يرجع الامر · ففي هذه الامور الخمسة تجتمع السلطة المطلقة لمن يتولاها للدين والدنيا فيكون القضاء والجند والكعبة والمال في قبضته فقد حاز جدُّنا قصي شرف مكة كله [3] وقطع مكة ارباعاً بين قومه وبه اجتمعت كلمة قبيلتنا وعادت اليها سطوتها وعلا نجم سعدها فتيمنت بامره حتى

(١) ابن خلدون (٢) ابن الاثير (٣) ابن هشام والسيرة الحلبية

صارت لا تزوّج امرأة لرجل من قريش الاَّ في داره ولا يتشاورون في امر نزل بهم او يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الاَّ في داره يعقدها لهم بعض ولده ولا تدرّع جارية اذا بلغت ان تدرّع الاَّ في داره يشق عليها فيها درعها . وجملة القول كان امره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره (١)

وكان لقصي هذا اربعة اولاد وهم عبد الدار وعبد مناف جدُّنا وعبد العزى وعبد فلما شاخ قصيٌّ كان عبد مناف قد شرف في زمان ابيه وعظم امره وكذلك عبد العزي وعبد (٢) فاراد قصي ان يشرّف عبد الدار وكان بكره فدعاه اليه واوصى له بمناصب الكعبة الخمسة المتقدم ذكرها فصار شرف مكة كله الى عبد الدار وبنيه من بعده

فخلف عبد الدار اولادًا وخلف عبد مناف اولادًا آخرين وهم عبد شمس وهاشم وعبد المطلب ونوفل وكانوا رجالاً أشداء وعبد شمس هو جدي فغبط بنو عبد مناف بني عمهم عبد الدار على ما في ايديهم من امر الكعبة ونازعوهم عليه حتى كاد يفضي امرهم الى الحرب ثم تداعوا الى الصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم فأُعطيت السقاية والرفادة الى بني عبد مناف وأُعطيت الحجابة واللواء والندوة الى بني عبد الدار وتم الصلح على ذلك وانحسم الخلاف . ولا تظنوا اني اطلت الكلام على غير طائل او اني دخلت فيما لم اسأل عنه فان لما قلته علاقة كبرى فيما سألتموني عنه

فتولى السقاية والرفادة اولاً عبد شمس ولكنه كان كثير الاسفار لا يقيم في مكة الاَّ قليلاً فعهد بهما الى اخيه هاشم وهاشم هو جدُّ محمد الذي تسألونني عنه اي ابو جده ثم مات هاشم فوليهما اخوه المطلب وكان سمحًا سمته قريش الفيض لسماحته (٢)

وولد لهاشم ولد سماه شيبة ثم سمي عبد المطلب لحكاية طويلة لا محل لها هنا وهو جد محمد او أبيه فلما مات المطلب تولى الرفادة والسقاية ابن اخيه هذا اي عبد المطلب وولد لعبد المطلب عشرة اولاد ذكور منهم عبد الله والد محمد

وكان عبد المطلب قد اراد حفر بئر زمزم فمنعه اقاربه من ذلك فلاقى منهم امورًا صعابًا ولكنه فاز اخيرًا بحفرها فنذر انه اذا ولد له عشرة اولاد ثم بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ذلك لينحرنَّ احدهم عند الكعبة فلما بلغوا ومنعوه جاء الكعبة ليفي نذره ولم يكن يدري من ينحر من اولاده فاستشار هبل الصنم الاكبر القائم في الكعبة (٤)

(١) السيرة الحلبية (٢) ابن اسحاق (٣) ابن هشام (٤) ابن الاثير

بواسطة القداح

فاشكل امر هذه الاقداح على الترجمان ولم يستطع تفسيرها فاستفسره عنها

فقال ابو سفيان ان لنا في الكعبة اصناماً كثيرة اتخذناها وسيلة بيننا وبين من نعبد واعظمها صنم اسمه هبل عنده سبعة قداح (اي اسهم بلا ريش) كل قدح عليه كتابة بمعنى قدح قد كتب عليه (العقل) وقدح عليه (نعم) وقدح عليه (لا) فاذا ارادوا امرًا ضربوا به في القداح فاذا خرج (نعم) فعلوا ما جاؤوا من اجله او (لا) لم يفعلوه وقدح فيه (منكم) وقدح فيه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) اذا ارادوا ان يحفروا للماء ضربوا القداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به [1]

فجاء عبد المطلب الى هبل وقال لصاحب القداح اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه واخبره بنذره فاعطى لاولاده عشرة قداح واعطى كل رجل منهم قدحه وقد كتب عليه اسمه وكان عبدالله والد محمد الذي نحن في صدده اصغر بني عبد المطلب وكان احبهم اليه فلما ضربت القداح طلع القدح ان يذبح هو فهمّ عبد المطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلك وقالوا لا بل يجب ان تعذر فيه فانطلق به الى عرّافة في المدينة (يثرب) فوجدوها بخيبر فجاؤها فسألوها عذرًا فسألتهم كم دية الرجل عندكم قالوا عشرة من الابل قالت فخذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليها بالقداح فان خرجت عليه فزيدوا من الابل عشرة فعشرة حتى يرضى الحكم وتخرج القداح عليها فتنحروها [2] فخرجوا وضربوا بالقداح فما زالت تخرج على عبدالله حتى بلغ عدد الابل مائة فخرجت عليها فذبحوها ونجا عبدالله وبقي حيا وتزوّج فولد له محمد

ولم اطل عليكم الكلام الا لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الكعبة واصنامها فانها ضالتنا وغايتنا نستشيرها ونستخيرها واليها تحج الناس من سائر اقطار الارض ولنا بها منفعة من حيث الاتجار لما ياتينا بواسطتها من اصناف الناس عربها وعجمها وقد ذكرت لكم كم سفكنا من الدماء في سبيل استبقائها فهي مصدر همتنا ومنبع اقواتنا ومرجع آمالنا وقد مضى عليها القرون الطوال قائمة والناس يكرمونها ويعظمونها ويذبحون عند اصنامها الذبائح ويقدمون اليها بالهدايا الى اليوم . فهذه

(١) ابن هشام وغيره (٢) السيرة الحلبية

كلما قام صاحب هذا الكتاب (وإشار الى الرق امام هرقل) يدعو الناس الى ازالتها وهدم ما بناه اجداده فيها

فلما بلغ ابو سفيان من كلامه الى هذا الحد ظهرت على وجه هرقل مظاهر الاستغراب وخاطب البطريرك الى يمينه باليونانية قائلاً ارى هذا الرجل يشكو ممن يريد هداية قومه عن عبادة الاصنام فاذا كانت هذه هي غاية هذا النبي فنعمت الغاية فتداول الحضور هذا الحديث برهة على نحو ما قال الامبراطور وازداد شوقهم لمعرفة بقية الحكاية وكيف استطاع القيام بهذا المشروع على خطارته مع ما ذكر ابو سفيان من يتمه وضعفه فالتفت هرقل الى ابي سفيان وقال له لقد افصحت فيما قلت فهل لك ان تحكي لنا حكاية هذا النبي وكيف توصل الى ان يدعوكم الى ذلك

فقال ابو سفيان قد رأيت ايها اللعن كيف نجا عبدالله بن عبد المطلب من الموت وكان ابوه يحبه فازوجه امرأة من قريش اسمها امينة ولم يمكث عبدالله مع امرأته الا برهة يسيرة ثم قضت عليه الاحوال بالسفر الى غزة التي انا آت منها الآن ولكنه مرض في سفرته هذه فعادوا به الى مكة فمات قبل ان يدركها وهو بجوار يثرب فدفن هناك وامرأته لم تره

وكانت امينة حين مات عبدالله حاملاً [1] ولم يترك لها الا اربعة من الابل وقطيعاً من الماشية وجارية اسمها بركة . وكانت امينة تقيم في بيت بضواحي مكة عند جبل شرقي مكة اسمه جبل ابي قبيس وهناك والدت ابنها هذا في عام الفيل الذي جاء به ابرهة الاشرم من قبل الحبشة لفتح مكة (سنة ٥٧٠ م) فلما والدته كان جده عبد المطلب في الكعبة فحملوه اليه فباركه وسماه محمداً ومن عادتنا ايها الملك ان نرضع اولادنا من المراضع ويندر ان يعيش لنا ولد على لبن امه ونختار المراضع من اهل البادية لصحة اجسامهن فاختارت له امه مرضعاً من اهل الطائف اسمها حليمة فارضعته حولين فضاها في سهول الطائف واوديته فنشأ نشيطاً وسمعت الناس يحدثون عن طفولته اخباراً غريبة لم نسمع بمثلها من ذي قبل منها ان مرضعة تركته يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت فاذا بولدها قد جاء يقول ان اخي القرشي اخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنه فخرجت هي تلتمسه فوجدته منفرداً آفساً لته

(١) ابن هشام

عن امره فقال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا ادري ما هو وغسلاه بالثلج [١] فخافت حليمة على الغلام فحملته الى امه بمكة فقضى فيها مدة يرعى الغنم و يطوف الاحياء مع الاولاد [٢] وكان كل من رآه اعجب بذكائه وجماله ونور محياه ولكنه لم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت والدته في الابواء بين مكة والمدينة فدفنت هناك فاصبح الغلام يتيم الابوين فاحتاطه جده عبد المطلب واحبه اكثر من حبه اولاده فكان الناس يكرمونه من اجل جده وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ ويحادثهم بما يجتذب به قلوبهم وعواطفهم و بعد سنتين توفي عبد المطلب فولي السقاية ابنه العباس اما الرفادة فانيطت ببني نوفل من ولد عبد شمس جدنا فاصبح محمد يتيماً غريباً فكفله ابو طالب احد اعمامه وكان ابو طالب اقل من العباس مالاً ولكنه كان وجيهاً مقدماً في قريش فاحتضن الغلام وتولى تربيته والسبب في احتضانه اياه دون سائر اعمامه ان ابا طالب وعبد الله والد محمد كانا اخوين من ام واحدة [٣]

واعترف لك ايها الملك العظيم ان كفالة ابي طالب هذه كانت سبباً عظيماً في نجاح دعوة محمد و بقائه حياً لأن ابا طالب كان وجيهاً في قريش محترماً مكرماً فاقام محمد في بيته كأحد اولاده . وكان ابو طالب اذا خرج الى تجارة او سفر اصطحب محمداً فينزل الديور ويجالس الرهبان والعلماء واشهر حادثة سمعتها عنه نزوله في دير بحيراء قرب بصرى فقد اخبرنا بعض الذين رافقوه في رحلته تلك ان الراهب بحيراء انبأه بامور كثيرة من مستقبل حياته واوصى عمه ابا طالب ان يعتني به و يخاف عليه اليهود . وكان محمد اذا عاد من سفر قضى معظم ساعات نهاره في الكعبة يحادث الناس و يجادلهم و يطارحهم وهم يعجبون لذكائه وقوة برهانه فقد كان على صغر سنه ذكي الفؤاد فصيحاً واسع الاطلاع بما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس في اسفاره مع انه كان امياً لا يعرف القراءة وهو لا يزال كذلك الى الآن وكان مع ذلك مخلصاً حسن الطوية حتى لقبوه بالامين فاذا جاء او ذهب قالوا جاء الامين او ذهب الامين

واهل مكة ايها الملك اهل تجارة يحملون الاموال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق الى مكة وغيرها وهم مشهورون بالتجارة كثيراً حتى ان نساءهم كنّ

(١) ابن الاثير وابن خلدون (٢) ابن هشام (٣) السيرة الحلبية

يتعاطينها وكان في مكة امرأة مشهورة بالغنى اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قصي الذي قدمت ذكره وكانت لشرفها وغناها تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم فسمعت بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط (١) فعرضت عليه ان يخرج في مال لها الى الشام تاجرًا وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره فسار في تجارتها مع غلام لها اسمه ميسرة وعاد وقد اكسبها مالاً طائلاً فاحبته وعرضت عليه ان يتزوجها ففعل فولدت له اولادًا وهم القاسم وهو يكنى به (فيقال ابو القاسم) والطاهر والطيب وزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة اما القاسم والطاهر فماتا قبل ان ظهر بدعوته

واتفق اذ بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من امره غير ما عرفناه من حسن خصاله ومهارته واستقامته ان قريشًا اجتمعت لبناء الكعبة وكنت في جملتهم وسبب اهتمامنا بذلك ان نفرًا سرقوا كنزًا للكعبة كان في بئر في جوفها ووجدنا تلك السرقة عند رجل من خزاعة فقطعنا يده وعمدنا الى بناء الكعبة وتسقيفها وكان البحر قد رمى بسفينة عند جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فاخذنا خشبها واعددناه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبطي يحسن صناعة النجارة فاغتنمنا هذه الفرصة لبنائها واقتسمنا العمل فيها لكيلا يحوز احدنا من الشرف في ذلك اكثر مما يحوزه الآخر فجئنا بالحجارة والاخشاب حتى تم البناء ولم يبق الا الركن فاختصم الناس في من يرفعه منهم وكانت كل قبيلة تدعي الاحقية في رفعه حتى تعاظم الخصام وهموا بالقتال فاتفق رأي عقلائنا اخيرًا ان يحكموا فيما بينهم اوّل داخل من باب المسجد في ذلك اليوم فكان اوّل داخل محمدًا فقالوا هذا هو الامين قد رضينا بحكمه فاخبروه الخبر فرأى رأيًا حسنًا لم يخطر على قلب احد منا وذلك انه اتى بثوب واسع جعل ذلك الركن فيه وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية منه فرفعناه جميعًا حتى بلغنا به موضعه فوضعه هو بيده وانحسم الخلاف (٢) وقد حدث هذا بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة وحدثت حرب الفجار بعد عام الفيل بعشرين سنة (٣) وكان لعمله هذا اثر حسن جدًا في اذهاننا فخرج الناس من الكعبة وهم يتحدثون بفطنته وتعقله وكنت في جملة المعجبين به ولا ازال اعترف بفضله لولا ما اراد من تحقير آلهتنا وتعييب اصنامنا كما سأقصه عليكم

(١) السيرة الحلبية (٢) ابن هشام (٣) الطبري

وفيما نحن نتحدث بحسناتو ونعجب باخلاقو حتى بلغ الاربعين من عمره فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في الشعب والجبال حتى صار يأوي الى الكهوف و يقول ان الملاك جبريل ظهر له وعلمه الصلاة فعلمها لامرأتو خديجة ولزيد بن حارثة مولاه ولعلي بن عمو ابي طالب وكان عليٌّ غلامًا صغيرًا وعلمها ايضًا لعبد الله بن أبي قحافة الذي يسمونه الآن ابا بكر وتبعه آخرون وهو يتلو عليهم آيات يقول ان ربه علمه اياها ونحن لا نعبأ بذلك لانه لم يمس آلهتنا بعيب ولكنه ما لبث ان جمع عمومته واهل عشيرتو الاقربين الى وليمة ودعاهم الى ترك الآلهة فاجابه عمه عبد العزى (ابو لهب) منكرًا عليه جرأته هذه ونصح له ان يرجع عن ذلك [1] فأبى ولم يزدد الا تمسكًا ثم بلغنا انه سبَّ آلهتنا وعاب اصنامنا فشق ذلك علينا فاجتمعنا وفينا نخبة من اشراف قريش وتداولنا في امره وما جاء بهِ فنهيأ لبعضنا ان نقتله فقال البعض الآخر اننا اذا قتلناه انما نسيء عمو ابا طالب وهو رجل جليل القدر فالافضل لنا ان نخاطبه بشان ابن اخيهِ وخصوصًا ان ابا طالب هذا ظلَّ على دين آبائنا حتى مات ولم يؤمن بدعوة ابن اخيهِ فسرنا جميعًا الى ابي طالب في منزلهِ فتلقانا على الرحب والسعة واكرم وفادتنا على جاري عادتهِ فلما استقر بنا المقام قلنا « يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فاما ان تكفه عنا او ان تخلي بيننا وبينهُ فانك على مثل ما نحن عليهِ من خلافهِ فنكفيكه » فاجابنا ابو طالب جوابًا لطيفًا و وعدنا وعدًا حسنًا وردنا ردًّا جميلاً فانصرفنا عنه على أمل ان يردع ابن اخيهِ عن عملهِ [2] فاذا هو باق على ما كان عليهِ وما زلنا نسمع مثل ما كنا نسمعهُ عنهُ قبلاً وكان ممن أيَّد دعوته من قريش ابن عم امرأتهِ خديجة وكان اسمه ورقة بن نوفل وكان نصرانيًا مثلكم فاشتد غضبنا وهممنا بان نفتك بهِ ثم رجعنا الى مجاملة عمهِ فاجتمعنا اليهِ مرة اخرى وقلنا له « يا ابا طالب ان لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا وانا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا او ننازله واياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين » [3] فآنسنا هذه المرة من ابي طالب انصياعًا وكأنهُ عوَّل على اجابة سؤلنا اذ لا طاقة له على فراق قومهِ وعشيرتهِ ومعاداتهم و بلغني انه لما

(١) الطبري (٢) السيرة الحلبية (٣) ابن اسحاق

خرجنا من منزله بعث الى ابن اخيه فقال له « يا ابن أخي ان قومك قد جاؤا اليّ فقالوا كذا وكذا فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الامر ما لا أطيق » فآنس من اصراره على معتقده وبقائه على عزمه ما كاد ان يغضبه لولا ان محمدًا قال ثم « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره او اهلك فيه ما تركته » ثم بكى فرقَّ له قلب عمه وتذكر ان ابن أخيه في منزله وله عليه حق الجوار فعاد الى نصرته وطمأن قلبه و وعده ان لن يسلمه ابدًا

ثم علمنا ذات يوم ان محمدًا ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه فقال « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى تلك الغرانيق العلى ان شفاعتهنّ لترتضى » (١) وذلك ما كنا نعتقده فسررنا سرورًا لا مزيد عليه وقلنا ها قد تمّ الوفاق ثم ما لبث ان رجع عن ذلك وابدل هذه الفقرة بفقرة تزيدنا نفرة منه فقال ان تلك انما القاها الشيطان على لسانه ثم ذكر آلهتنا بكل سوء فقال انها اسماء سميتموها انتم وآباؤكم الى غير ذلك مما زادنا نفورًا و بعدًا

فحرنا في امرنا مع هذا الرجل ولبثنا نتوقع فرصة نتخلص بها منه ونرجو رجوعه فاذا هو باق على عزمه وكثيرًا ما كان بعض رجالنا اذا التقوا به يهددوه وهو لا يبالي وفيما نحن في ذلك اذ سمعنا ان عمه حمزة بن عبد المطلب قد آمن بدعوته واخذ بناصره وحمزة هذا رجل شديد تهابه قريش فاشتد به ازره وازداد ثباتًا في دعوته فقلنا لندعونّ محمدًا الينا نكلمه ونخاصمه حتى نعذر فيه فاجتمعنا في الكعبة وفينا كل أشراف قريش واستقدمناه فجاء فقلنا له « قد بعثنا اليك لنكلمك فاننا لا نعرف رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما ادخلتَ على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرّقت الجماعة فما في امر قبيح الاّ قد جئته فيما بيننا و بينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك (والرئي التابع من الجن) بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه او نعذر فيك »

(١) الطبري

فاجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلاً « ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وانزل عليَّ كتاباً وامرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليَّ أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني و بينكم » فاردنا ان نمتحن اعتقاده فقلنا له « ان كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك فانك قد علمت انه ليس من الناس احد اضيق بلداً ولا اقل ماء ولا اشد عيشاً منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فيسير عنا هذه الحال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها انهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصيُّ بن كلاب فانه كان شيخ صدق فنسألهم عما نقول أحقٌّ هو ام باطل فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وانه بعثك رسولاً كما تقول » فاجابنا وهو لا يتلجلج ولا يتردد قائلاً « ما بهذا بعثت اليكم انما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغتكم ما ارسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليَّ أصبر ان الله تعالى يحكم بيني وبينكم » [1] وطال الجدال بيننا في مثل ذلك وهو باق على قوله حتى خرج ونحن لا نرى سبيلاً الى الايقاع به

وكان ابو سفيان يتكلم والجميع صامتون يتطاولون باعناقهم فلما وصل الى هذا الحد جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض وهم يعجبون لما سمعوه فقال بطريرك القسطنطينية لهرقل اني لا أرى هذا الرجل الاَّ قد جاءهم بالحق وهم انما يشكون من دعوته اياهم الى دين الله . ثم عادوا الى استماع بقية الحديث فقال هرقل وما جرى بعد ذلك

قال ابو سفيان وما زال امر هذا الرجل يستفحل حتى كثر انصاره ومن غريب ما رأينا منهم انهم كانوا يحتملون منا الامور الصعاب والاضطهاد الشديد على ان يكفروا به فلم يفعلوا حتى اذا ضيقنا عليهم فرَّ جماعة منهم الى بلاد الحبشة فحماهم ملكها واخذ بناصرهم أما محمد فبقي في مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر ونحن غافلون حتى

(١) السيرة الحلبية

سمعنا باسلام عمر بن الخطاب وهو من أعظم رجال قريش فتأيدت دعوته به كما تأيدت بحمزة فعظم امره واشتد ازره فصار دعاته يتكاثرون يومًا بعد يوم بما ينضم اليهم من القبائل فخفنا عاقبة ذلك فاجتمعنا وائتمرنا على ان نكتب كتابًا نتعاقد فيه على بني هاشم و بني عبد المطلب ان لا ننكح اليهم ولا ينكحهم ولا نبيعهم شيئًا ولا يبتاعوا منا شيئًا فكتبنا صحيفة تعاهدنا عليها وتواثقنا وعلقناها في جوف الكعبة ولكنها ما لبثت ان نقضت لاننا تعهدناها يومًا فاذا هي قد اكلتها الارضة فتشاءمنا بذلك واسقط في يدنا فلبثنا ننتظر ما يأتي به الزمان

فمنذ عشر سنوات تقريبًا [1] توفي ابو طالب وخديجة فذهب الذي كان نهابة ويجل مقامه فنلنا من محمد ما لم ننله قبلاً فسمناه انواع العذاب والاضطهاد حتى كثيرًا ما كنا ننثر التراب على رأسه فخرج من مكة الى الطائف يلتمس النصر من قبيلة ثقيف التي قضى زمن رضاعته بينهم فلم ينل خيرًا بل كانوا يسبونه و يؤذونه و يعترضون له في الطريق و يسومونه الوان العذاب حتى ظنناه يرتجع و يترك دعوته ولكنه لم يزدد الاّ ثباتًا وكان يذهب الى المواسم حيث تجتمع القبائل للبيع والشراء كموسم عكاظ وغيره و يعرض نفسه عليهم و يدعوهم الى دينه فكان اكثرهم اقبالاً عليه قبائل الخزرج من اهل المدينة (يثرب) فانهم بايعوه بيعات تعرف ببيعات العقبة لوقوعها في مكان اسمه العقبة بقرب مكة

فقال الترجمان عند ذلك وما معنى المبايعة عندكم قال هي ان يتراضى الفريقان على امر كالبيع والشراء وسمعت ان هذا الرجل مبايعة يؤخذ منها تعهد المبايعين ان يكونوا على دعوته ومن أمثلة ذلك قولهم له « بايعناك على ان لا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين ايدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف » [2] وقد كانت بيعة العقبة هذه اوّل امر الانصار وهم اهل المدينة وقد سماهم الانصار لان امره ضعف بعد وفاة عمه وخديجة كما قدمت فجاءه الخزرج و بايعوه ونصروه فسماهم الانصار وهؤلاء ساروا الى المدينة ونشروا دعوته بين اهلها فتبعه منهم كثيرون فلما رأى تضييقنا عليه بمكة أمر اصحابه بالمهاجرة الى المدينة وسماهم المهاجرين تمييزًا لهم عن الانصار المتقدم ذكرهم

(١) الطبري (٢) ابن هشام

فلما علمنا بذلك وتبيّن لنا انهُ اذا سار هو الى المدينة سيمتنع بانصاره واصحابه وربما عادوا الى مناوأتنا فاجتمعنا في دار الندوة التي ذكرت لكم ان قصياً جعلها في الكعبة للمشورة وتفاوضنا في ماذا نفعل بهذا الرجل فقال بعضنا ننفيهِ وقال آخرون ان نفيهُ لا يمنع اجتماعه باصحابهِ وانصاره

فقال آخرون فلنقتلهُ ونجعل دمهُ متفرقًا بين القبائل لئلاَّ يجتمع أعمامهُ بنو عبد مناف على المطالبة بدمهِ فجئنا رجال من كل القبائل وسرنا جميعًا خلسة حتى أتينا منزلهُ وتربصنا لهُ ريثما ينام فلما ظنناه نام وقد شاهدنا رجلاً ملتفاً ببردة حسبناه هو ثم خرج هو الينا ونحن نظنهُ سواه فكلما وحثا التراب على عيوننا وفرّ من امامنا فتركناه ودخلنا على النائم فاذا هو عليٌّ ابن عمهِ ففرَّ الآخر من امامنا ونجا الجميع وتبعهُ من بقي من اتباعه في مكة الى المدينة (١) وهناك نصره المهاجرون والانصار وهم جندهُ الى هذا اليوم مع ما انضم اليهم من القبائل على أثر الحروب التي حاربها والغزوات التي غزاها فانهُ لم يدع قافلة لنا تمرُّ بالمدينة الاَّ غزاها وفرّق أسلابها واموالها بين رجالهِ حتى كانت بيننا وبينهُ واقعة بدر الكبرى والصغرى وواقعة أحد وغير ذلك مما يطول شرحه

فعجب هرقل لحديث أبي سفيان ورآه لم يفرغ من حديثهِ حتى علا وجههُ الاكتئاب والاسف فقال لهُ وكيف حال صاحبك اليوم

قال قد انتشر أمره بين القبائل في سائر بلاد العرب الاَّ مكة فانها لا تزال ممتنعة عليهِ ونظنها ستمتنع برجالها وقد بلغني انهُ سيقدم لفتحها ولكنهُ سيلقى منّا غير ما لاقاه في وقائعهِ الاخرى ومما يدلك على اغتراره بنفسهِ انهُ خاطب الامبراطور هرقل قيصر الرّوم بمثل هذا الخطاب على اننا ما برحنا نسمعهُ من بدء دعوتهِ يقول ان كنوز كسرى وقيصر ستفتح لهُ (٢)

فقال هرقل يؤخذ من كلامك ان الرجل جاءكم بالقول الحق فان عبادة الله اولى من عبادة الاصنام وانتم انما قاومتموه ظلمًا

فقال أبو سفيان ان اكثرنا ايها القيصر يعتقد بالله ولكننا نتخذ الاصنام « ليقربونا الى الله زلفى » (٣) ونعترف بالبعث والاعادة ولكننا لا نؤمن بالرسل (٤)

---

(١) السيرة الحلبية (٢) الطبري (٣) القرآن (٤) المسعودي

فاعترضهُ أحد البطاركة قائلاً فلا نظنكم قاومتموه الاّ خوفًا على تجارتكم ان تبور اذا هدمت كعبتكم وقلّ توارد الناس اليها فهي مصالح دنيوية آثرتموها على مصلحة الاخرة

ثم اشار هرقل اشارة فهم الحضور منها انهُ اكتفى من حديث ابي سفيان فتقدم الحارث الى ابي سفيان وأومأ اليهِ فوقف وقبل الارض بين يدي هرقل فقال لهُ الامبراطور لقد سرّنا لقاؤُك واستفدنا من حديثك ولكنك تكبدت المشقة بالقدوم الينا جزاك الله خيرًا فقبل ابو سفيان الارض ثانية وقال ابيتَ اللعن ايها الملك العظيم فاني بالمثول بين يديكم افاخر اهل الحجاز كافة اذ قلما تيسر لاحد منهم ان يخاطب قيصر الروم . قال ذالك وخرج ورجالهُ معهُ فامر لهُ هرقل بخلعة من الحرير المزركش

ثم التفت هرقل وتناول الكتاب وهو من الرق وامر ان يحفظ في قصبة من ذهب (١) وامر بهدية الى دحية حامل الكتاب وسلم اليهِ الكتاب وصرفهُ

الفصل السابع عشر

عود عبد الله

أما عبد الله فما صدق ان فرغ ابو سفيان من حديثهِ وخرج حتى خرج هو معهُ فلما التقيا في صحن الدار سلما وكان ابو سفيان لا يذكر وجه عبد الله ولكن عبد الله رآه بمكة في بعض السنين على انهما تعارفا وتصافحا حالاً لما بينهما من رابطة اللغة في ارض قلّ فيها العرب فسأَلهُ ابو سفيان عن مسيرهِ او اقامتهِ فقال اني مسافر الى عمان فقال ابو سفيان لكن في طريقك اليها اودية وعقبات فهل انت معتاد السفر فيها

قال قد سرت اليها من غير هذه الطريق منذ بضعة اعوام

فقال ابو سفيان أما وقد تعارفنا وترابطنا فلنسر معًا لاننا عازمون على الحجاز وقد يسهل علينا المرور بعمان فاذا اقمت هناك ودعناك وسرنا في سبيلنا ولكن قافلتنا لا تزال في غزة وفيها جمالنا واثقالنا وخيولنا فلنقم هنا يومًا او يومين ريثما نستقدم القافلة ونسير جميعًا

---

(١) السيرة الحلبية

قال عبد الله حسنًا تفعل فها اني ذاهب لوداع الحارث ثم اقضي بعض المهام ونلتقي الليلة في الساحة بقرب الكنيسة

قال ابو سفيان نعمّ الرأي رأيت

وافترقا فعاد عبد الله الى القاعة وكانت الجلسة قد ارفضت فالتقى بالحارث خارجًا يبحث عنهُ فلما لقيهُ سألهُ الحارث عن غيابهِ فاعتذر بانهُ كان في شاغل.

فقال لهُ هل تسير الى بصرى فتكون بصحبتي

فتحير عبد الله بماذا يجيبهُ وخاف اذا ابى الذهاب معهُ ان يحمل ذلك محملاً سيئًا وهو بالحقيقة لا يريد الذهاب الى بصرى قبل ان يلتقي بحماد وخاف ان يخبره عن عزمهِ على عمان مع ابي سفيان لئلاً يستغشهُ فوقع في حيرة ولكنهُ اثنى على تلطفهِ في استصحابهِ وشكر عنايتهُ في انقاذه وقال لهُ ان مجيئي الى بيت المقدس قد حبب اليَّ الاقامة فيها مدة قبل ان اسير الى بصرى على اني حيثما كنت انما اكون في ظل حمايتكم وحماية مولانا الامبراطور

فوافقهُ على ذلك وسلم اليهِ كتاب الامان وودعه فسار عبد الله حتى التقى بابي سفيان فقضيا بضعة ايام في القدس حتى جاءت القافلة فتهيأ وا للسفر وكانت القافلة تنتظرهم خارج المدينة وفي صباح اليوم الثالث أعدت الخيول لركوب ابي سفيان وحاشيتهِ

فقال ابو سفيان لعبد الله هل عندك جواد لركوبك

قال كلاَّ لاني تركت فرسي في بصرى

فأمر ان يعطى لهُ فرسٌ من افراس حاشيتهِ وقال لهُ اركب هذا الجواد الآن فاذا وصلنا القافلة اعطيناك فرسًا يليق بك

الفصل الثامن عشر

جواد حمّـاد

فركبوا حتى جاؤُوا القافلة خارج المدينة فجلسوا للاستراحة قليلاً وعبد الله لا يرتاح الاَّ الى السفر استعجالاً لملاقاة حماد ولكنهُ اطاعهم فجاؤُوه بفرس عليهِ سرج ثمين

فلما وقع نظره عليه اختلج قلبه في صدره لانه يشبه فرس حماد ثم تأمله جيدًا فاذا هو هو بعينه ثم اعاد نظره على السرج فاذا هو سرج فرس حماد فدنا منه ولمسه بين عينيه فآنس بالفرس حنوًّا اليه وارتياحًا الى لمسه فتحقق انه هو فرس حماد بعينه فبغت وكان ابو سفيان واقفًا على مقربة منه يراعيه فلما رأى ذلك منه سألهُ عن امره

فقال اني في ريب من أمر هذا الفرس لانه فرس ولدي

فقال ابو سفيان وكيف عرفته

قال عرفته من لونه وقده وسرجه وقد ربيته مذ كان مهرًا رضيعًا واعرف امه قبله

فعجب ابو سفيان لهذا الاتفاق الغريب وقال له واين كان ولدك

قال كان راكبًا من بصرى الى عمان فاين ظفرتم بهذا الفرس

قال ظفرنا به تائهًا بالقرب من الزرقاء

فخاف عبد الله ان يكون لضياع هذا الفرس سبب يوجب قلقًا فاعاد السؤال ثانية عن كيفية عثورهم عليه

فقال ابو سفيان كنا قادمين من الحجاز الى الشام منذ بضعة اسابيع وفيما نحن بالقرب من الزرقاء نحاذر ان نقترب من مسبعتها اذ شاهدنا هذا الفرس تائهًا في الصحراء فارسلت بعض رجالي في اثره وبعد العناء والمشقة قبض عليه فجاء به اليَّ فسقناه معنا الى غزة ثم جئنا به الى هنا كما ترى

فبهت عبد الله ولبث صامتًا لا يتكلم وقد غلبت الهواجس عليه مخافة ان يكون حماد قد ذهب فريسة السباع وفرَّ جواده منه وهو يعلم ان الفرس اصيل لا يترك صاحبه الاّ اذا مات اوأُسر أو غاب عنه فترقرقت الدموع في عينيه رغماً عنه ولكنه تجلد وقال أراني كثير القلق على ولدي ولا يهدأ لي بال حتى اتفقد المكان الذي وجدتم الفرس فيه

فقال ابو سفيان هو قريب من طريقنا الى عمان فاذا شئت عرجنا اليه وبحثنا معك عما تريد فان أمر ولدك يهمنا كما يهمك

ثم ركبوا أما عبد الله فلم يشأ ان يركب فرس ابنه بعد ما رابه من أمره فاركبوه غيره وساروا وهو لا ينبس ببنت شفة لاشتغاله بالهواجس فقضوا يومين سائرين وعبد الله

لا يأكل ولا ينام الاّ قليلاً حتى صاروا على مقربة من الزرقاء فقال ابو سفيان ها اننا بقرب المسبعة فلنترك القافلة وجمالها واحمالها ولنصطحب بعض الفرسان الى ذلك السهل حيث عثرنا على الفرس يركض فيهِ

فعرجوا وهم عشرة رجال وفيهم ابو سفيان وعبد الله وساروا يحاذرون ان يلقاهم اسد او وحش آخر على انهم لم يكونوا يخافون ذلك والوقت نهار وهم كثارة فلم يسيروا الاّ قليلاً حتى وقف ابو سفيان وقال هذا هو المكان الذي عثرنا فيهِ على الفرس فقد رأيتهُ يركض في هذا السهل

فقال عبد الله واين هي المسبعة

قال هي الى يميننا فاذا رأيت ان نعرج نحوها فعلنا

فقال عبد الله لا اراني قادرًا على العود قبل ان اقتفي اثر حوافر الجواد لعلي اقف على اثر ولدي فاني اخاف ان يكون قد ذهب فريسة الوحوش والعياذ بالله فقال ابو سفيان مر بما تشاء فاننا بين يديك وامر رجالهُ فتفرقوا بين التلال يبحثون عن آثار الآدميين وبعد برهة عاد احدهم يسوق جوادهُ زميلاً حتى دنا منهم فقال رأيت آثار اناس بالقرب من شجرة هناك

فهمز عبد الله جوادهُ وتبعهُ ابو سفيان في أثر الرجل حتى دنوا من المكان فاذا هناك شجرة كبيرة تحتها آثار جواد مقتول لم يبق منهُ الاّ جمجمتهُ وسرجه وبعض عظامهِ فعرف عبد الله من السرج انهُ جواد سلمان خادمهِ فصاح قائلاً هذا هو جواد سلمان فأين حماد وسلمان واخذ يبحث حول الشجرة وبالقرب منها فرأى آثار نسيج عرف بالتأمل فيهِ أنها عباءة فظنها عباءة حماد قد مزقتها انياب الوحوش فلطم كفاً بكفٍ وقال وهذه هي عباءتهُ فأين بقاياهُ ألعل الاسود اكلتهُ كلهُ قال ذلك وتناول قطع العباءة وجعل يقبلها ويذرف الدموع ويصيح واولداه قد اكلتك السباع آه ابن انت. ولم يعد يستطيع الوقوف

فتأثر ابو سفيان وكل من حضر من حالهِ ولولا خشونة البداوة وتعودهم القتل والنهب لبكوا معهُ أما ابو سفيان فقال لهُ هون عليهِ يا اخا لخم فاننا لم نحقق موت الغلام بعد وانت لم تعثر بأثر من آثار جثتهِ واخذ يخفف عنهُ ويطمئنهُ بمثل هذا الكلام وهو لا يهدأ لهُ بال ولا ينفك عن البكاء بل جعل يلطم كفاً بكف ويقول أهذه هي

آخرة حياتك يا حماد آه من لي بالانياب التي نهشت جلدك الناعم فاحطمها واين تلك المخالب التي غرست اظافرها في لحمك فأمزقها كما مزقتك آه واولداه أهذاهو وفاء النذر أهذه عاقبة الاصطبار عشرين عاماً لننص لك شعرك

فلما رأى ابو سفيان شدة اضطراب عبد الله وعظم بكائه رقّ له وخاف عليه فجلس الى جانبه وامسكه بيده واخذ يخفف عنه بما يؤملهُ ببقاء ابنه حياً وقال له ان ما رأيناه من الآثار لا يدل على شيء مما خفتهُ فلو كان الاسد فتك بالغلام لرأيت شيئاً من بقاياه وهب ان الاسد اكل ثيابهُ فهو لا يستطيع ان يزدرد سيفهُ ورمحهُ فلو كان ما نظنهُ صحيحاً لرأيت سلاحه باقية هنا على الاقل فلعلهُ فرّ ونجا ولم يفتك الاسد بغير هذا الفرس ارجع الى صوابك وتبصر في الامر فانك رجل عاقل خبير وزد على ذلك ان البكاء لا يجديك نفعاً هلمّ بنا نبحث في هذا الجوار لعلنا نقف على ما يكشف لنا الغامض

فقال عبد الله صدقت يا أخا قريش ان البكاء لا يجديني نفعاً ولكني اخاف اذا بحثت ان لا أزداد الاَّ فشلاً ويأساً فدعني ابكي ولدي واقبل عباءتهُ في هذه الصحراء حتى يلقاني الاسد الذي افترسهُ فاما ان أنتقم له منهُ او ان يفترسني فنموت جميعاً فان ذلك خير لي وابقى

فما زال ابو سفيان يدافعهُ حتى سكن روعه فنهض وسار ماشياً بين التلال والصخور وابو سفيان يصحبهُ ورجالهُ منبثون في انحاء السهل يساعدونهما في التفتيش فوصل عبد الله وابو سفيان الى غدير صغير اشرفا عليهِ من اكمة فآنس عبد الله عند الغدير شبحاً فهرول نحوه فاذا به ثياب وسلاح فتأملها فاذا هي عباءة حماد ورمحهُ وسيفهُ فضم السيف الى صدره وصاح هذا هو سلاحه وهذه هي عباءتهُ لا تلك فاين هو فاخذوا يبحثون في ذلك الجوار حتى ملوا التفتيش وكادت الشمس تميل الى الاصيل ولم يجدوا شيئاً فتحقق عبد الله ان حماداً قد ذهب فريسة الاسد فعاد الى البكاء والنوح حتى انفطر قلب ابي سفيان له واشفق عليهِ فاخذ يعزيهِ ويخفف احزانهُ وهو لا يزداد الاَّ بكاء

فقال أبو سفيان ما يجدينا البكاء يا أخا العرب اننا لا نستطيع رد الضائع والله لو كان ابنك اسيرًا في ايوان كسرى او قصر قيصر لبذلنا انفسنا في سبيل انقاذه لأن لك علينا حق الجوار وزد على ذلك انك رجل قد وقعت من نفسي موقعًا عظيماً فسررت بلقائك وها انيّ بين يديك فافعل ما تراه فاني اطوع لك من بنانك

فسكت عبد الله ولم يجب ولبث برهة غارقًا في بحار الهواجس يراجع في ذهنه تاريخ حياته وما جاء من أجله الى بصرى وما كان من أمر النذر ثم رجع الى صوابه وتجلد تجلد الرجال المدرّبين فعلم ان البكاء لا يجديه نفعًا فرأى من الحزم ان يتدبر الامر بالصبر والتروي فلاح له ان يسير الى عمان يفتش فيها عن حماد فلعلّ أحدًا ينبئه بحاله ونظر الى الشمس وقد قاربت الزوال وبينهم وبين الطريق بضعة اميال ورأى ابا سفيان ورجاله واقفين في خدمته ينتظرون امرًا يطيعونه فيه فخاف ان يسبب لهم بالبقاء هناك اذية فقال لابي سفيان اني يا اخا قريش شاكر لحسن صنيعك واخشى ان اكون سببًا لضرر ينالك على يدي ونحن في هذه الصحراء التي شربت دم ولدي فسيروا الى مقصدكم بحراسة الله ودعوني اسير في طريقي

فاجابه ابو سفيان قائلاً دع عنك الهواجس واعلم اننا لا نبرح هذا المكان الاّ وانت في مقدمتنا فلسنا بتاركيك وحدك فاذا رافقتنا فاننا في خدمتك حتى تصل مأمنك واذا شئت المسير معنا الى مكة فانك تنزل بيننا على الرحب والسعة فاختر لنفسك

فهمّ عبد الله بابي سفيان وضمّه وبكى لما آنسه من تعزيته وقال لقد وفيتم الكيل واجزلتم الجميل أما المسير معكم فغير مستطاع ولا بد لي من النظر في الامر فاما ان اسير الى عمان او اعود الى منزلي بقرب بصرى حتى يحكم الله بما يشاء

قال اننا اذن في ركابك الى عمان ثم الى حيث تشاء. قال ذلك وامسك بيده وسار به فمشى عبد الله وسيف حماد بيده يتنسم منه رائحته وعادوا جميعًا الى القافلة

وكان عبد الله في اثناء عودته صامتًا يفكر في حاله ويتردد بين ان يسير الى عمان وهو لا يدري ما يلقى هناك بعد ما داخله من الريب في أمر حماد وهو يرجح موته على انه لما نظر في الامر طويلاً وراجع ما مرّ به من اهوال ذلك اليوم اعترضه أمل رأى

من خلاله بصيصاً هيأ له حماداً حياً وذلك انه فكر في أمر ما عثر عليه من بقاياه فلم يجد دليلاً قاطعاً بموته وهو لم يعثر بشيء من جثته فقال في نفسه لو اكلته السباع لبقيت منه بقية مثل بقية ذلك الجواد من جمجمة او عظام اخرى او قطع من ثوبه ممزقة ثم فكر في ما وجده من السلاح فاذا به لم يره في الموضع الذي رأى فيه بقايا الجواد فقضى مدة يتردد بين اليأس والرجاء حتى وصلوا القافلة

فقال ابو سفيان ما ترى يا اخا لخم هل تسير معنا الى الحجاز او تزمع الى مكان نوصلك اليه في انحاء الشام أم تريد أمراً نقضيه لك

فقال عبد الله اني والله لا ادري ماذا اقول ولا أعلم ماذا أعمل فارى ان تتركوني في هذا المكان افكر في امري حتى الهم أمراً اعمله فاني لا افقه من أمري شيئاً

فقال أبو سفيان لسنا تاركيك وانت في هذه الحال

فقال عبد الله لقد غمرتموني بفضلكم واسيتموني حزني بتعزيتكم أما وقد اصررتم على ذلك فاني أود الذهاب الى عمان لعلي استطلع خبراً جديداً

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال فباتوا ليلتهم هناك واصبحوا باكراً يريدون عمان فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها فقال عبد الله استودعكم الله فاني معرج الى عمان انتظر ما يأتي به القضاء

الفصل التاسع عشر

عمان

فودعوه وانصرفوا وقد تركوا عنده فرس حماد و بعض الزاد فلما انفرد عبدالله بنفسه نظر الى عمان وقد أشرف عليها من مرتفع فاذا هي مدينة خربة لم يبق من ابنيتها الرومانية الا بضعة متهدمة أعظمها هيكل مخرب على تل بالقرب من غدير كاد ماءه ان يجف ورأى على مقربة من ذلك المكان بيوتاً حقيرة يسكنها بعض الفقراء لا تكاد تزيد على قرية حقيرة فسار نحو الهيكل وقطع اليه على جسر يظهر من منظره انه كان

عظيماً وتهدّم (١) فوصل الهيكل ماشياً يقود الفرس وراءه وهو يحرص عليهِ حرصهُ على ابنهِ لأنهُ من آثاره

فما وصل ذلك البناء حتى غابت الشمس واغبرّ وجهُ الافق فجلس على حجر من احجار الهيكل ملقى عند بابهِ وامسك بزمام الفرس ونظر اليهِ فرآه هادئاً كئيباً كأنهُ شعر بما يخامر قلب عبد الله من الهواجس فشاركه في الاسف على فقيده ثم نظر عبد الله الى ما حولهُ فاذا هو في ارض خالية من انفاس الناس لا يسمع فيها صوتٌ ولا يرى فيها الاَّ اشباح بعض التلال او الاحجار او الاشجار والتفت الى ذلك البناء على عظمهِ فرأى الذلة والمسكنة قد ضربتا عليهِ لما يتجلى فيهِ من آثار الخراب فكان لهُ بذلك عبرة عن مصير الانسان فتذكر حالهُ مع حماد وما مرَّ بهِ في ذلك اليوم من الاهوال فغلب عليهِ القلق واشتد بهِ الحزن حتى ترقرقت الدموع في عينيهِ ثم حانت منهُ التفاتة فرأى بيوت القرية عن بعد فحدثتهُ هواجسهُ انهُ سيجد حماداً بين اهلها فنهض بغتة يريد الذهاب اليها ثم عاد الى صوابهِ فقال في نفسهِ لا اراني الاَّ في اضغاث احلام ان حماداً قد اصبح في عداد الاموات فعادت اليهِ احزانهُ فجلس على ذلك الحجر وعاد الى البكاء

وقضى مدة في مثل هذه الحال يتردد بين اليأس والرجاء والليل قد سدل نقابهُ وعلا نعيق الغربان وضجت اصوات الضفادع في ذلك الغدير القليل الماء فخاف ان يكون في بقائهِ هناك خطر على حياتهِ من وحش يفترسهُ او لصوص تسطو عليهِ فيقضي نحبهُ قبل ان يتحقق امر حماد فعاد الى ذكرى احزانهِ فامسك بحسامهِ وقبلهُ وأجهش في البكاء

وما زال في مثل ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس على اثر ما قاساه من تعب المشي فاسند رأسهُ الى جدار الهيكل وهو بين اليقظة والمنام وعنان الفرس في يدهِ فما شعر الاَّ والجواد يصهل ويفحص الارض بحوافره فعلم ان هناك أمراً ذا بال فوقف واصاخ بسمعهِ وحدق بعينيهِ فلم يرَ شيئاً ولا سمع صوتاً فعاد الى متكأه وهو لا يستطيع الرقاد لشدة هواجسهِ فالقى باذنهِ الى الارض ليستطلع سبب اضطراب الجواد لعلهُ يسمع اصواتاً او يستنبىء نبأً جديداً فسمع وقع اقدام كثيرة فعلم ان الجواد لم يجفل عبثاً وان جماعة قادمون الى ذلك المكان فهيأ نفسهُ للدفاع وصعد الى ربوة بالقرب منهُ

(١) قاموس التوراة لسميث

لعله يرى اشباحًا عن بعد فلم يرَ شيئًا لان الظلام كان شديدًا فعاد الى مكانهِ وهو يتوقع أمرًا خطيرًا فشغلهُ ذلك عن هواجسهِ برهة فقضى بقية ذلك الليل في مثل هذه الحال حتى دنا الفجر وكان قد غمض جفنهُ قليلاً فافاق على صهيل الجواد فرأى بالقرب منهُ جماعة كبيرة من الرجال في لباس البدو فظنهم لاوَّل وهلة من رجال ابي سفيان لأنهم في مثل زيهم وقيافتهم ولكنهُ ما لبث ان سمع بعضهم يناديهِ منتهرًا ثم هموا بهِ يريدون القبض عليهِ فهمَّ بالركوب على الجواد للدفاع عن نفسهِ فتجمهروا حولهُ وهم كثار فلم يستطع دفاعًا فقبضوا عليهِ واوثقوهُ وساقوهُ وهو يكاد يتمزق غيظًا فقال لهم ما تريدون مني ولا ثأر بيني وبينكم فناداه أحدهم قائلاً كيف لا ترى ثأرًا بيننا وبينك وانت من رجال غسان وقد قتلتم رسولنا واهنتم نبينا

فقال لقد أخطأتم المرمى فما انا من غسان وإنما انا غريب في هذه الديار

فقالوا اذا كنت صادقًا فيما تقول فبرئ نفسك امام اميرنا قالوا ذلك وساقوهُ موثقًا واخذوا سلاحه وفرسهُ فمشى معهم برهة فأشرف على خيام مضروبة ورأى جموعًا كثيرة من عرب الحجاز ومعهم الاحمال والاثقال والخيول والجمال فساروا بهِ الى فسطاط كبير علم من العلم المنصوب امامهُ انهُ فسطاط الامير وكان العلَم ابيض [1] ولم يكد يدنو من الخيمة حتى نقاطر الرجال زرافات ووحدانًا وكلهم من اهل البادية مكشوفو الرؤُوس تغطي ابدانهم شملات يلتحفونها الاَّ قليلين منهم وقد لوحت وجوههم الشمس وظهرت عليهم آثار الاسفار ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال

فلما وصل الفسطاط اوقفوهُ خارجًا ودخل بعضهم ثم عاد فقاده الى داخل فرأى في صدر المجلس رجلاً بعمامة وجبة جالسًا على بساط وبين يديهِ بضعة من رجال في مثل لباسهِ فعرف انهم امراء ذلك الجيش فاستعاذ بالله مما هو مساق اليهِ فخاطبهُ الامير قائلاً

من انت يا اخا العرب ألعلك من رجال الحارث بن ابي شمر

قال لست من اهل هذه الديار

فقال ألست من غسَّان

قال كلاَّ

---

(١) السيرة الحلبية

قال ومن انت

قال من لخم

قال وما جاء بك الى هذا المكان ولخم تقيم في العراق . ألعلك ممن جاؤوا لنجدة الرّوم من لخم وجذام وباقين فقد علمنا ان هرقل قد جند جندًا فيهِ اخلاط من العرب المتنصرة (١)

قال لست من اولئك بل جئت في حاجة ولا ألبث ان اعود

قال أصدقنا الخبر فانك اسير بين ايدينا

قال قلت لكم الصدق

قال وما دليلك على ذلك

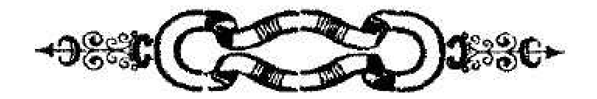
وكان عبد الله قد عرف من لغتهم ولباسهم انهم من قريش فتذكر ابا سفيان فظن استشهاده بهِ ينجيهِ من الخطر فقال ودليلي اني كنت في الامس مع أبي سفيان امير قريش وهو صديق لي حميم فاذا كان بينكم اسألوه

فما أتمَّ كلامهُ حتى قطب الاميرُ وجههُ وقال لهُ أأنت صديق لذلك الكافر فانك لم تردنا في شأنك الاَّ شكاً وما الذي جرَّك الى صداقة هذا الزنيم

فارتبك عبد الله في امرهِ ولم يدرِ كيف يخلص نفسهُ من ذلك الاقرار ولكنهُ تجلد وقال عرفتهُ منذ بضعة ايام فقط وقد جاء لتجارة الى هذه الانحاء فاصطحبتهُ زمنًا يسيرًا ثم افترقنا بالامس

قال ذلك وقد تذكرَ حكاية ابي سفيان وعداوتهُ لصاحب دعوة الاسلام فأدرك انهُ بين يدي رجال صاحب الدعوة الاسلامية فلم يزد شيئًا

فقال لهُ الامير لو اقتصرت على كونك من لخم لكان الامر سهلاً ولكنك أقررت بانك صديق لعدونا فانت مقيم في اسرنا حتى نرى ما يكون من امرك ثم امر فاخرجوه مخفورًا الى خيمة منفردة جعلوه فيها



---

(١) السيرة الحلبية

الفصل العشرون

﴿ غزوة مؤتة ﴾

ولو كان عبد الله ممن لم يتعودوا الاخطار لاستعظم الامر كثيرًا ولكنهُ لعلمهِ ببراءتهِ صبر نفسهُ حتى يتمكن من اظهار حقيقة حالهِ على انهُ ما زال في ريب من امر هذا الجيش ومجيئهِ من الحجاز الى الشام فاحب الاطلاع على مهمتهِ حتى يعرف كيف يخلص نفسهُ فلما وصل الخيمة جاءه بعض الخفر واخذ يسأَلهُ عن أبي سفيان وكيف لقيهُ وابن فارقهُ فاغتنم تلك الفرصة فقال للرجل الى اين تقصدون بهذا الجند

قال نقصد مشارف الشام لحرب الروم

قال وما الذي دعاكم الى حربهم

قال دعانا الى حربهم ما رأيناه من وقاحتهم

فقال وما اوجب ذلك وانتم من قريش على ما يظهر ومقامكم في الحجاز وليس بينكم وبينهم علاقة

فقال ان نبينا محمدًا الذي ارسلهُ الله نذيرًا للناس كافة انذرهم بكتاب يدعوهم فيهِ الى الاسلام فلما وصل الكتاب الى الغسّاني امير العرب المتنصرة حتى مزقهُ وقتل رسولنا (١) فاشتد الامر على نبينا فبعث مولاه زيد بن حارثة في هذا الجند لقتال الروم

فقال عبد الله قد رأيت رسولكم الى هرقل بمثل هذا الكتاب فلم يفعل بهِ مثل ذلك

قال ذلك كتاب غير الذي ذكرتهُ لك ارسلهُ قبلهُ أما قولك ان هرقل لم يفعل مثل فعل الغساني فلأنهُ هاب ملكنا واما الغساني فقد غرَّهُ جهلهُ وسوف يلقى منا ما لقيهُ عرب الحجاز واليمن ممن أبوا الاسلام

فقال عبد الله ومن هو الامير الجالس في صدر الخيمة ومن هم الامراء الذين حولهُ

قال هو زيد بن حارثة مولى رسول الله أما الامراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينهِ هو جعفر بن ابي طالب ابن عمّ نبينا والجالس عن يساره عبد الله بن رواحة

(١) السيرة الحلبية

وقد اوصي لهما بالامارة على هذا الجيش لكل منهما عهد الحاجة (۱) وقد امرنا نبينا ان نأتي المكان الذي قتل فيهِ رسولنا وهي قرية يقال لها موءتة فندعو اهلهُ الى الاسلام فان ابوا قاتلناهم حتى نفنيهم عن آخرهم او يحكم الله بيننا وبينهم

فأدرك عبد الله سرّ الامر . فقال للرجل وما الذي جنيتهُ انا حتى ستغنموني اسيرًا وما انا من الروم ولا من غسان

قال لا اظن عليك بأسًا من هذا الامر ولولم تتظاهر بصداقتك لابي سفيان لكان ذنبك خفيفًا ولكنك ستبقى في اسرنا لعلنا نحتاج اليك في أثناء الحرب

فسكت عبد الله وقد هان عليهِ ما خافهُ ولبث ينتظر ما يأتي بهِ القدر ولكنهُ ما لبث ان هدأ روعه من قبيل الخطر عليهِ حتى عاد الى هواجسهِ بشأن حماد وكلما ترجح الهُ موتهُ تمنى ان يقتل فيلحق بهِ

وبعد يومين من دخولهِ في الاسر تهيأت تلك الحملة للمسير الى موءتة فلنتركهم في طريقهم ولنعد الى حماد وما تمّ لهُ مع سلمان

الفصل الحادي والعشرون

حمّـاد وسلمان

تركنا حمادًا وسلمان وقد خرجا من الدير وسلمان يفضل العدول عن ذلك الطريق لما خافهُ من مسبعة الزرقاء وحماد يحبب اليهِ المسير فيهِ خوفًا من طول المسافة اذا عدلا عنهُ

فلما رأى سلمان اصرار حماد اطاعه وسارا في اقرب الطرق ولكنهُ ما لبث خائفًا غائلة ذلك السبيل فعوّل على الاحتراس واتخاذ وسائل الوقاية فاوعز الى حماد فلبس درعه تحت اثوابهِ وسارا حتى امسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفتهِ فما لبثا ان تناولا شيئًا من الزاد حتى تعاظمت هواجس سلمان وكأن نفسهُ حدثتهُ بخطر قريب فهمّ بتجسس المكان قبل اشتداد الظلام . وكان حماد قد نزع عباءتهُ وسلاحهُ وجعلها الى

(۱) ابن هشام

جانبهِ على ضفة الغدير فلما نهض سلمان نهض حماد معهُ وقادا فرسيهما وراءهما وصعد الى اكمة أطلاًّ منها على السهل المحدق بهما وجعلا ينظران الى ما حولهما من السهول وفيها بعض الآكام نتراءى كأنها جماعات من الناس او اسراب من الوحوش فهالهما ذلك المنظر ثم سمعا زئيرًا عن بعد فأجفل الجوادان واخذا يخصان الارض بحوافرهما

فقال سلمان ها قد احدق الخطر بنا وهذا ما كنت اتخوفهُ يا سيدي فهلمّ بنا الى النجاة . فقال حماد وماذا ينجينا فالتفت سلمان فرأى شجرة فقال عليك بهذه الشجرة نتسلق اغصانها فان الاسد لا يقوى على الوثوب اليها فاسرعا وقد نسي حماد سلاحه وعباءتهُ فشدا الجوادين اليها وتسلقا اغصانها والجوادان لا ينفكان عن الصهيل

ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتمسكا بالاغصان وهما يحاذران ان يراهما الاسد مع علمهما بامتناعهما عليهِ ثم ما لبثا ان رأياه واثبًا عن اكمة بالقرب منهما اما الجوادان فانهما اجفلا وصهلا صهيلاً طويلاً ونفرا يريدان الفرار فانقطع زمام فرس حماد فطلب عرض الصحراء واما فرس سلمان فلم يستطع التخلص قبل ان ظفر بهِ الاسد فقبض على صدره بمخالبهِ فوقع الفرس الى الارض فهمّ بهِ الاسد فمزّق عنقهُ بانيابهِ فسال دمهُ فاخذ ينهش في لحمهِ

ثم وقف الاسد ونظر الى ما حولهُ فرأى عباءة سلمان فهمّ بها كأنهُ ظنها رجلاً فمزقها بين انيابهِ ومخالبهِ اي ممزق واخذ يتمايل بمشيتهِ المعهودة حول الشجرة وقد تنسم رائحة الرجلين في اعلاها مع عجزه عن ادراكهما فجعل يحك جلده بجذعها ويزأر أي زئير حتى مالت الشجرة بهما وخافا السقوط فتمسكا بالاغصان وثبتا في مكانيهما وقلباهما يخفقان خوفًا وحذرًا والاسد لا ينفك عن الزئير والمسير ذهابًا وإيابًا وعيناه تتلألآن في الظلام كأنهما سراجان منيران والفرس يخور خوار الثور حتى ملّ الاسد فزأر زأرة دوى لها ذلك السهل الواسع ورددت صداها تلك الآكام وارسل ذنبهُ فوق ظهره وعاد من حيث أتى فلبثا يراعيانهِ في مسيره وهو يخطر الهوينا متبخترًا تيهًا وعجبًا حتى واراه الظلام عنهما ولكنهما ما زالا يسمعان زئيره عن بعد وهما صامتان لا ينبسان ببنت شفة فلما تحققا النجاة منهُ وهما لا يصدقان انهما نجوَا قال سلمان أرأيت يا سيدي ما كنت اخافهُ فشكرًا لله الذي انبت هذه الشجرة في هذه الصحراء لتكون سببًا لنجاتنا من الموت بين مخالب الاسد

فتحقق حماد عظم الخطر الذي نجوا منهُ ولكنهُ اسف لذهاب فرسهِ . فقضيا معظم الليل مستتربن في تلك الشجرة يخافان الانحدار منها حتى انبلج الصبح فنزلا ونظرا الى فرس سلمان فاذا هو مضرج بدمائهِ ولا حياة فيهِ فقال سلمان هلمَّ بنا نطلب عمان على اقدامنا وقد كان في طاقتنا ان نذهب اليها راكبين ولكن هذه ارادة المولى فنشكره لنجاتنا من مخالب الاسد وما خسرناهُ انما هو متاع يسهل التعويض منهُ

فقال حماد ان الفرس عزيز عندي كما تعلم فهل تظننا نظفر بهِ بعد

فقال دعنا والافراس فان منها شيئاً كثيرًا حيثما حللنا فسر بنا حالاً لنقطع هذه المسبعة قبل ان يدركنا الظلام

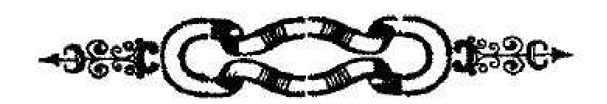
فقال ولكنني اعزل وقد تركت السيف والرمح والعباءة على الغدير فعد بنا للبحث عنها

فقال لا أراني قادرًا على تعيين المكان الذي كنا فيهِ لان الطرق تشابهت عليَّ واخشى اذا اطلنا البحث ان تفوتنا الفرصة للنجاة وقد نجونا من الاسد مرتين فلا نأمن ان نجو منهُ في المرة الثالثة ونحن على اقدامنا فهلم بنا

فاطاعهُ حماد وسارا الى عمان فوصلاها واقاما فيها بقية الشهر المعين فلم يأت عبدالله فقضيا اسبوعاً آخر وهما على احرَّ من الجمر فلم يأت احدٌ فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما نحو بصرى عن طريق غير التي جاءا بها خوفاً من غائلة الاسود وهما في هاجس على عبدالله وغيابهِ واخذا يدبران وسيلة يدخلان بها المدينة او ما جاورها ولا يعلم بهما ثعلبة او احد من رجالهِ

اما حماد فكان بين هاجسين عظيمين هند من جهة وعبد الله من جهة اخرى ولكنهُ شكر الله لبقاء الدرع لانها تذكار ثمين عنده

فلندعهما في حيرتهما ولنذهب بالقارئ الى بصرى وما كان من امر ثعلبة بعد ان تمَّ لهُ القبض على عبدالله وارسالهِ مخفورًا الى بيت المقدس كما قد رأيت



الفصل الثاني والعشرون

عوامل الغيرة

تركنا ثعلبة بعد ذهاب عبد الله في بصرى وفي نفسهِ غلٌّ على هند لا يهدأ له بال الاَّ بالايقاع بحماد فبثَّ رجالهُ في ضواحي المدينة للبحث عنهُ فلم يقف لهُ على خبر فانفذ نفرًا من خاصتهِ سرًّا يتجسسون حال عبد الله بعد ذهابهِ الى هرقل فانبأوهُ بما كان من عفو الامبراطور عنهُ ومسيرهِ مع ابي سفيان ولكنهم لم يعرفوا عنهُ شيئًا بعد ذلك لانهم لم يتجرأوا على مرافقة القافلة خوفًا من انكشاف امرهم

اما ثعلبة فانهُ اندفع بعوامل الغيرة على الانتقام من حماد وايقاع الاذى بهند وشعر بانعطاف اليها لا حبًّا بها بل رغبة منهُ في ان يحرمها من حبيبها وقد تكون تلك الغيرة سببًا للحب الحقيقي على ما نراه عادة في الناس فقد يعاشر الشاب فتـاة اعوامًا لا يهمهُ من امرها شيئًا ولا يخطر له الاقتران بها وربما كان في نفسهِ ترفع عنها وقد يزعم انها لو عرضت عليهِ لا يرضاها فاذا آنس منها ميلاً الى غيره او رأى غيره ميالاً اليها وخصوصًا اذا كان الحب متبادلاً بينهما فان عوامل الغيرة تثور في قلبهِ ويتحول حبهُ الفاتر الى شغف شديد ولا يرتاح لهُ بال الاَّ بنيلها ولا يقتصر ذلك على هذا النوع من الحب ولكنهُ يتناول سائر انواعهِ فقد ترى عقارًا او متاعًا معروضًا للبيع ولا يهمك ابتياعهُ فاذا رأيت الناس يقبلون عليهِ آنست في نفسك ميلاً الى شرائهِ والظاهر ان ذلك غريزي في الناس على اختلاف ادوار حياتهم فاذا اردت ان تطعم الطفل شيئًا لا يحبهُ نفر منهُ فاذا تظاهرت باعطاء ذلك الشيء الى سواه رأيتهُ يطلبهُ بلجاجة ويتناولهُ بلذة

فثعلبة لم يكن يهمهُ امر الزواج بهند ولا هو احبها حب الزواج الاَّ بعد ما آنس من ميلها الى حماد فدفعتهُ عوامل الغيرة الى الاقتران بها ولكن خبث فطرتهِ جعل ذلك الميل مقرونًا بالانتقام ولما لم يجد سبيلاً الى ذلك بالقوة عمد الى الحيلة فحدثتهُ نفسهُ ان يشكوها الى والديها ويكشف لهما ما كان من انفرادها بحماد في الدير ولكنهُ خاف ان تكون تلك الوشاية سببًا لغضب عمهِ حتى ينقلب عليهِ لعلمهِ بمنزلة هند عندهُ وربما صدقها وكذبهُ ورغب في حماد عنهُ . فلم يرَ سبيلاً الى شفاء غلهِ الاَّ بخطبتها من

ابيها وهو يعلم ان والدها لا يردهُ فلما عاد ابوه من بيت المقدس بسط لهُ عزمهُ على الاقتران بها لما بينهما من رابطة القرابة فسرَّ ابوه بذلك ووعد ان يخاطب جبلة في الامر

فركب ذات يوم الى البلقاء في موكبهِ وحاشيتهِ فاستقبلهُ جبلة بالتجلة والاكرام وان يكن في نفسهِ منهُ غيرة لاحرازه الوجاهة عليهِ لدى هرقل فلما التقيا ودار الحديث بينهما ذكر الحارث رغبتهُ بمصاهرتهِ فابدى لهُ ارتياحًا ووعد بتمام الامر قريبًا وهو غافل عما تضمره هند من البغض لثعلبة والاشتغال بحب حماد

فلما رجع الحارث الى بصرى خلا جبلة بامرأتهِ تلك الليلة وذكر لها حديث الحارث فلم يسمع منها ايجابًا ولا سلبًا لعلمها بما في نفس ابنتها من الاحتقار لثعلبة ولكنها استمهلتهُ ريثما تطارح الفتاة وتطلع على رأيها وان تكن عوائدهم لا تبيح للبنات حق الاختيار في مثل هذا الشأن ولكن هندًا كانت متغلبة على عواطف والديها حائزة على نفوذ يؤذن بمراجعتها واستشارتها

الفصل الثالث والعشرون

هند وأُمها

اما هند فقد تركناها ليلة الدير عائدة الى القصر وقد تمكنت من حب حماد والاعجاب بشهامتهِ الى درجة لم تعد تراعي معها حقوق الوالدية وخصوصًا بعد ما عاينتهُ من غيرة ثعلبة وغدره ولكنها وصلت القصر وقلبها لا يزال مشيعًا حمادًا في عودتهِ وهي تدبر حيلة تتخلص بها من لوم والدتها على غيابها فلما دخلت القصر رأت والدتها في قلق لغيابها فبادأتها بالعتب على تأخير الخادمة بالاساور فقالت الوالدة اننا استحسنّا الاساور وأعدنا الخادمة بها لتعجيل حضورك فادّعت هند انها انتظرت رجوعها حتى حلك الظلام فلما ابطأَت استصحبت بعض خدمة الدير حتى اوصلها الى ذلك المكان فاستغربت والدتها ذلك الاتفاق وجعلت تعتذر لها عما حملتها من المشقة وقالت لعل الخادمة سارت اليك من طريق غير الذي جئت بهِ ولا تلبث ان تعود

فتظاهرت هند بالتعب وسارت الى غرفتها وهي غارقة في بحار الهواجس وقلبها واجس على حماد من غدر ثعلبة لما تعلمهُ من لؤْمهِ وخيانتهِ

فقضت تلك الليلة بمثل هذه الهواجس لم يغمض لها جفن الى قبيل الصباح فنامت قليلاً فلما اصبحت جعلت تتنسم الاخبار ممن يذهب من خدمة صرح الغدير الى بصرى لابتياع حاجيات القصر

فما لبثت ان علمت بالقبض على عبد الله وفرار حماد فشكرت الله على نجاتهِ ولكنها ظلت في خوف عليهِ وهي لا تستطيع سبيلاً الى الوقوف على خبره فقضت بضعة ايام منقبضة النفس لا يلذ لها طعام ولا يهنأ لها عيش حتى ظهر أثر ذلك على وجهها ووالدتها تبالغ في تسليتها وتستعرب ما ألمّ بها وهند تعتذر بانحراف صحتها على أثر التعب من ليلة الدير

فجعلت تصطحبها في أثناء النهار الى ضواحي القصر تقضيان الساعات معًا في البساتين على ضفاف الغدير وهند لا تزداد الاَّ انقباضًا وضعفًا حتى امتقع لونها وقلّ طعامها فارتابت والدتها في امرها وازدادت حنوًّا لها وميلاً لاستطلاع حقيقة حالها فلم تجد الى ذلك سبيلاً . وقد قدمنا ان سعدى كانت من الذكاء والفطنة على جانب عظيم فأساءَت في ابنتها ظناً وخيل لها ان لذلك التغيير سببًا مهماً فعولت على اغتنام الفرص لكشف ذلك السبب فلما خاطبها زوجها بأمر ثعلبة ورغبتهِ في هند اتخذت ذلك الامر وسيلة لاستطلاع ما في ضميرها فدعتها ذات يوم للخروج معًا الى الغدير على حدة فأمرت بعض الخدم فأعدوا لها وسائل الراحة فخرجتا حتى أتتا ضفة الغدير وكان الجو صافيًا والنسيم عليلاً والماء يجري امامها وكانت هند بلباس البيت وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ارسلتها على ظهرها وشدت عصابة حول رأسها كمن يشكو الصداع فقضت مسافة الطريق من القصر الى المكان المقصود تسير الهوينا صامتة تجر ذيل ردائها وراءها وتتشاغل تارة في رفعهِ عن الارض لئلاَّ يعلق ببعض الاشواك النابتة في ذلك البستان وطورًا تلهو بالتأمل في ما يتطاير عن اشجاره من الطيور فلما وصلت المكان اتكأَت على وسادة من الحرير المزركش صنع دمشق فوق بساط ثمين تحت شجرة ظللتها ساعة العصر وكانت والدتها قد جمعت بعض الازهار في ضمة واحدة جاءَت بها اليها فتناولتها هند وهي لا تتكلم فهمّت بممازحتها فقالت اليك هذه

الازهار فان لتقديمها معنى هل تفقهينهُ

فتناولت هند الازهار وهي لا تفهم المراد

فقالت لها والدتها ما بالك لا تجيبينني على سؤالي

قالت اسأليني فاجيبك

قالت قد سألتك فأجبتِ

قالت لم تسأليني ولا اجبتك

قالت بلى قد أجبت

قالت كيف ذلك وانا لم أفه بكلمة

قالت ان تناولك هذه الازهار من يدي جواب على سؤالي

قالت لم أفهم مرادك يا أُماه فافصحي

قالت اضمرت في باطن سرّي وانا أُقدم هذه الازهار اليك انك اذا قبلتها من يدي كان أخذها جوابًا على ما في نفسي

قالت ما لي اراكِ تخاطبينني بالرموز فاني لم اقل شيئًا

قالت ما لنا ولهذا فاني اسألك سؤالاً آخر فهل تصدقينني فيهِ

قالت قولي فاني طوع امرك

قالت أتحبين ابن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمهُ بغتت وعلا وجهها الاحمرار ثم عقبهُ الاصفرار بغتةً وظهر الانقباض عليهِ ولم تجب

فقالت والدتها قد وعدتِ بالجواب ولا اراك تجيبين

قالت لاني لم أرَ مسوغًا لهذا السؤَال ولم افهم مرادك منهُ وانت تعلمين منزلة هذا الشاب عندي

قالت ما لنا وللمزاح فاني اسألك سؤالاً صريحًا فأرجو الجواب عليهِ صريحًا فهل تحبين ثعلبة . فتجلدت هند وتجاهلت قائلة أليس هو ابن عمي فأحبهُ محبة الاعمام وان يكن لا يستحق هذه المحبة

قالت ولكنني أسأَلك هل تحبينهُ محبة غير هذه . فادركت هند مغمز كلام والدتها فنفرت ولم تجب

فاقتربت سعدى منها حتى احتك جنباها وقالت ما بالك لا تجيبينني فان والدك كلفني بالسؤال عن ذلك فماذا اجيبهُ

فسكتت هند ولبثت برهة تفكر في مراد امها فتوسمت من وراء هذا الكلام شيئًا قرأتهُ على ملامح وجهها ولكنها تجاهلت واظهرت عدم الاكتراث فظلت متكئة تنظر الى والدتها شذرًا كأنها تقول لها كفي المزاح في هذا الموضوع

فكرّرت والدتها السؤال بهذا المعنى فاعتدلت هند في مجلسها ونظرت الى والدتها والاستغراب ظاهر على وجهها وقالت افصحي يا اماه فان لسؤالك معنى انقبضت لهُ نفسي فما تعنين بحبي لهذا النذل السافل غير الحب الذي اوجدتهُ القرابة رغماً عني

ففهمت والدتها ما في قلب هند من الحقد على ثعلبة وكانت قد لاحظت منها ذلك قبلاً فارادت المبالغة في التجاهل حتى تستطلع افكارها فقالت لا تسارعي الى الطعن في ابن عمك فانهُ سيكون أقرب اليك من ذلك

فنفرت هند حتى وقعت الازهار من يدها ونظرت الى والدتها نظرة العتب وقالت لها ارجو ان لا اسمع منك يا أُماه ما يكدر عواطفي فاني لا أرى مسوغًا لتكديري بهذه الالغاز فليس لثعلبة وطر عندي ولا هو ممن يطمع بقرابة فوق هذه فوحبك لو استطعت التبرؤ منهُ لفعلت وانت أعلم الناس بمنزلته عندي واظنك اقدر مني على الجواب عن هذا السؤال أم أنت تمازحيني

قالت بل اقول الجد فان عمك الحارث خاطب والدك بشأنك فماذا نجيبهُ

فالتفتت هند الى والدتها باستخفاف كأنها تقول لا اصدق ما تقولين

فاجابتها بملامح عينيها وابتسامها انها تريد الجد وقالت لا بل اسألك سؤالاً صريحًا هل تحبين ثعلبة

فنهضت هند عند ذلك وتظاهرت بجمع الازهار التي كانت قد وقعت من يدها وازداد وجهها امتقاعًا وظنت سكوتها جوابًا كافيًا وظنها في محلهِ ولكن سعدى كانت تبالغ في التجاهل لعل الحديث يجرها الى معرفة سبب انقباض ابنتها بعد ليلة الدير فقالت لها ما بالي اخاطبك فتتشاغلين عن جوابي ألعل خطابي لا يستحق الجواب عندك

فترامت هند على صدر والدتها بدالة الوالدية وقبلت يدها وقد خجلت لهذا التوبيخ

وقالت حاشاي ان افعل ذلك يا اماه ولكنني أعجب لسؤالك وإصرارك على طلب الجواب وانتِ تعلمين اني اريد التبرئ من القرابة القديمة فهل اجرُّ عليَّ عيبًا آخر فليس لثعلبة وطر عندي

فقالت أظنكِ شغلت عنه بغيره . قالت ذلك وتظاهرت بالمزاح ولكنها آنست في وجه هند تغيرًا سريعًا فعلاه الاحمرار بغتة وسكتت

فقالت سعدى ما بالك لا تجيبينني وارى وجهك يتكلم وعيناك تعترفان فما بال لسانك لا ينطق

فتذكرت هند حبيبها واشتغالها به عن كل شيء وتصوَّرت ما أتاه ثعلبة من الاذى له فاشتد بها الامر حتى ترقرقت الدموع في عينيها فحوَّلت وجهها عن والدتها اخفاءً لما كاد يظهر من عواطفها وتشاغلت بمراقبة غزالٍ نافرٍ رأته يثب على التلال عن بعد وظلت صامتة ويكاد الدمع يتناثر من عينيها

فازدادت والدتها ارتيابًا في شأنها فقالت في نفسها هذه هي الفرصة المناسبة لكشف المخبأ فقالت لها ما بالك تحولين وجهك عني يا هند ألعلك تخفين شيئًا

فظلت هند ملتفتة وتمنت ان تكون في خلوة لتطلق لدموعها العنان

فأمسكتها والدتها بيدها وحاولت تحويل وجهها نحوها فافلتت هند وغطت وجهها بكمها لئلاَّ يظهر بكاؤها فتحققت سعدى ان هندًا تبكي فكاد قلبها ينفطر عليها فقالت ما بالك يا هند ما الذي يبكيك ألعلي اصبت ظني وهل انت تخفين شيئًا عني

فاوغلت هند في البكاء وهي تحاذر ان تسمع والدتها شهيقها حتى بلَّلت كمها ولم تستطع التسلط على عواطفها فتحققت سعدى أن هندًا قد وقعت في الشراك وان قلبها في شاغل ولكنها لم تفقه لحقيقة الحال فحاولت استطلاع السرّ فقالت اذن انت في شاغل عن ثعلبة

فظلت هند صامتة خجلاً وقد سترت وجهها بكمها بين يديها

فسكتت سعدى واخذت تفكر في من عسى ان يكون ذلك الشاغل وخافت ان تلح على ابنتها بالسؤال فتزيدها خجلاً فلا تعترف لها بالواقع

فمضت بضع دقائق وهما صامتتان واخيرًا تظاهرت سعدى بالجد ونادت هند قائلة أما وقد ظهر منكِ ما ظهر فلم يعد ثمَّ داعٍ الى الاخفاء فقد تحقق لديَّ انكِ في

شاغل ذي بال فافصحي يا ابنتي وقولي ما في ضميرك فاني والدتك وانت تعلمين حبي لك فاجعليني مكان سرّك واتخذيني صديقة لا والدة واطلعيني على مكنونات قلبك فنحن الآن في خلوة لا يرانا احد وقد قضيتُ اياماً افكر في ما غيَّرك وقض تنسك وانت تخفين عني حقيقة حالك . أما ابن عمك ثعلبة فانهُ لن ينال منك شعرة وانا أعلم الناس بهِ وهبي ان والدك رضي بهِ فانا لا ارضاه لك

ثم همّت بها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهند تبالغ في تغطية وجهها حياء فقالت لها سعدى افصحي يا ابنتي واخبريني فقد نفذ صبري قولي ما في نفسك فاني معينة لك على مرادك

فلما سمعت هند كلام والدتها رفعت رأسها من بين يديها فنظرت الى والدتها بعينين قد اذبلتها الدموع وغيرهما الهيام وحاولت الكلام فمنعها الحياء فاعادت وجهها الى ما بين يديها والقت نفسها على صدر والدتها وقد اخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً

فرفعت سعدى رأس هند بين ذراعيها وقالت قولي يا ولداه لا تخافي فاننا في خلوة لا يرانا احد هل تحبين احداً

فتنهدت هند تنهداً عميقاً ولم تجب فاتخذت والدتها التنهد جواباً شافياً فقالت ومن ذا الذي تمكن حبهُ منك حتى تسلط على قلبك ونحن نحسبك اثبت جاشاً من الرجال وما عهدي بك مسترسلة لعواطفك الى هذا الحد

فاطرقت هند وقالت لا باس بي ولا انا احب احداً ولكنني احب التخلص من هذا العالم فاني تعيسة قد كتب عليَّ العذاب من يوم ولدت . قالت ذلك وعادت الى البكاء

فانصدع قلب والدتها لذلك وجعلت تقبلها وتضمها الى صدرها وتقول ما هذا الكلام يا هند ألعلك يئسة ممن تحبين

فنبذت هند الحياء عند ذلك وقالت نعم يا اماه اني يئسة فابكي على ابنتك واندبيها فانها تعيسة شقية . فتحققت سعدى ظنها وارادت معرفة الباقي

فقالت وما سبب تعاستك وانت فتاة غسّان وزهرة هذه البلاد والناس يتحدثون بعقلك ويحسدك اترابك على مقامك

فقالت على اي شيء يحسدونني

هم يحسدوني على موتي فوا اسفي * حتى على الموت لا اخلو من الحسد

فازدادت سعدى تحرقًا وتساقط الدمع من عينيها وهي تحاول التجلد خوفًا على هند وقد ادركت انها عالقة بحب رجل لا سبيل لها اليهِ فقالت لها لا تذكري التعاسة واسعِ الأمرة الناهية ولا تخشي بأسًا واما الآخذة بيدك العاملة على رضاك فافصحي عن ضميرك فقد كفانا بكاء واعلمي ان ثعلبة سيرتد خائبًا ولو كان مستهلكًا في هواك

فحرَّقت هند اسنانها عند ذكر ثعلبة وقالت ان الشر كلهُ من هذا الخائن وهو وحدهُ سبب هذا الشقاء. وهل تظنين رغبتهُ في خطبتي من عظم حبهِ لي

قالت وكيف اذن

قالت انهُ فعل ذلك انتقامًا من ذلك الشهم الذي ابقى على حياتهِ كرمًا وانفة

فتذكرت سعدى حكاية السباق وما كان من شهامة حماد واحست كأن غشاوة انقشعت عن عينيها فايقنت ان الفتاة مغرمة بحماد فبغتت ولم تبدِ جوابًا لعلمها ان الرجل غريب في تلك الديار وكانت قد سمعت بفراره والقبض على والده بتهمة الجاسوسية فوقعت في حيرة على انها لم تنفر من ذكر هذا الشاب في عرض الحديث بل كانت ترتاح الى ذكرهِ والتحدث عنهُ لما ظهر لها من شهامتهِ وكرم اخلاقهِ ولكنها استغربت وقوع هند في هواه مع ابنتها وعلمها بغموض حسبهِ وعدم سنوح الفرصة لها للاجتماع بهِ وحسبت وقوع ذلك من قبيل التقادير الالهية

فنظرت هند اليها لتستطلع ما يظهر منها بعد هذا التلميح فلما رأتها صامتة قالت ألم أقل لك اني تعيسة فها ان مجرد الاشارة الى سبب بلائي اضاع حنوَّك والقاك في حيرة

فقالت كلاَّ يا ولدي فقد وعدتك بالانتصار لك ولا ازال على الوعد ولكن الخبر جاءني على حين غفلة فبغتُّ لهُ فهل انت تحبين ذلك الشاب انهُ بالحقيقة شهمٌ كريم النفس وانت تعلمين منزلتهُ عندي من يوم السباق

فسكتت هند وكان سكوتها جوابًا صريحًا

فعادت سعدى الى استغرابها واستعظمت زفاف ابنتها الى رجلٍ لا يعرف لهُ حسب ولا نسب فضلاً عن اتهامهِ بالجاسوسية والقبض على والده وغضب الحارث وثعلبة عليهِ فلاح لها ان بقاء هند على عزمها سيكون سببًا لنفور بين زوجها وابن عمهِ

ولكنها لم تستطع مكاشفة هند بذلك خوفًا عليها من سلطان الغرام بعد ما عاينت من شغفها وشدة تعلقها بحماد فعمدت الى الملاينة ومسايرتها في مجرى عواطفها ريثما ترى ما يكون من أمر ثعلبة وقبضهِ على حماد فقالت لابنتها ان حمادًا أهل لحبك ولكن كيف بلغت الى هذه الدرجة من الحب والرجل غريب عنّا

فقطعت هند الكلام وقالت ألم اقل لك اني صائرةٌ الى الهلاك لاني علمت بما يخامر ذهنك ولكن ما الفائدة من كل ذلك وحماد في مكان لا نعرفهُ ولعلهُ ذهب فريسة غدر ذلك اللئيم قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقالت والدتها لا تجزعي يا هند ان الله على الباغي ولكني استغرب تعمد ثعلبة الايقاع بهذا الشاب وليس بينهما علاقة

قالت هو الحسد والغيرة ولؤم الطبع فوالله ان هذا الخائن لا يساوي قدة من نعل حماد قالت ذلك وهي تشرق بدموعها

فاخذت سعدى تخفف عنها وتطيب قلبها حتى سكن روعها فاحبت الاطلاع على تاريخ ذاك الحب وكيفية وقوعه فقالت لها كيف تسلمين قلبك الى رجل لا تعرفين حسبهُ ولا نسبهُ وانت في ما نعلمهُ من تعقلك ودقة نظرك وحسن رويتك

قالت انهُ حسيب نسيب وسيماه في وجههِ

فقالت ان الوجوه لا تدل على الاحساب يا والدتي

فقالت قد علمت انهُ من امراء العراق وعدا يكتني وهي انهُ اقل من ذلك فقد تسلط على عواطفي بقوة من الله تجد اسمهُ فها قد اطلعتك على مكنونات قلبي . قالت ذلك واطرقت حياء وقلبها يرقص فرحًا لما آنسته من مجاراة والدتها ووعدها بالمساعدة

فقالت سعدى وكيف عرفت حماد

فانتبهت هند لما ارتكبتهُ من الكذب في ذهابها الى دير بحيراء فهمت بيدي والدتها وجعلت تقبلها وتقول اصفحي عن زلتي فقد ارتكبت ذنبًا يوجب غضبك

فقالت وما ذا تعنين

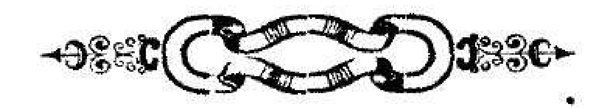
فاحكت لها حكاية دير بحيراء واعترفت بكل ما دار بينها وبين حماد باختصار وحشمة وهي تطرق تارة وتبتسم اخرى ووالدتها صغية تطاول بعنقها حتى انت على آخر الحكاية فاحست كأنها او فت من غفلة مسايرتها وطأ منت قلبها ولكنها صبرتها

لتدبير وسيلة لا تشين شرفها او شرف عائلتها

فاطمأن بال هند من قبيل رضاء والدتها ولكنها ما زالت قلقة لفرار حماد بل صارت بعد ما آنسته من تلك الملاطفة اكثر قلقاً عليه كأن خوفها من المعارضة كان شاغلاً لها عن التفكر بما وقع فيه حماد من الخطر فلما فرغت من ذلك الخوف تعاظم قلقها . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب وهما لا تعلمان لولم تريا الرعاة عائدين بالماشية من المراعي الى الزرائب بالقرب من الصرح فهمتا بالنهوض ومشتا الهوينا وكل منهما في شاغل فكانت هند في هاجس عظيم على حماد وما هو فيه وهمّها كثيراً البحث عنه فرأت ان تغتنم تلك الفرصة للاستعانة بوالدتها على ذلك فدنت منها واسندت يدها على كتفها وهما ماشيتان وخاطبتها بدالة البنوّة قائلة ما الحيلة يا اماه لكشف سعاية ثعلبة عن حماد أيجلّ في شرع الله ان يذهب هذا الشهم فريسة الحسد والغدر

قالت خففي عنك يا ولدي وكوني مطمئنة فاني كافلة نجاته باذن الله ولا بد من الصبر والتؤدة لنرى ماذا تمّ من امر حماد وفراره

قالت ذلك وهي ترتاب بسقائه حياً وكانت تحدثها نفسها باعظام عمل ابنتها وتنازلها الى حب رجل غريب وعذّت نفسها مخطئة بمسايرتها في ذلك ولكن ضعف املها ببقاء حماد في قيد الحياة كان يهون عليها ذلك فبالغت في طمأنتها حتى وصلت الى صرح الغدير وقضتا بعض تلك الليلة في مثل هذه الاحاديث وفي الصباح التالي بدأت سعدى تشتغل باستطلاع خبر حماد فعلمت بعد ايام ان هرقل عفا عن عبد الله وامر له بكتاب الامان فاخبرت هنداً بذلك فاطمأن بالها لعلمها انه انما فرّ خوفاً من ثعلبة واتهامه بالجاسوسية فغدت تترقب من يعلمها بمقر حماد لتبلغه ذلك فلم تجد اليه سبيلاً فلما طال غيابه زاد قلقها عليه فصارت نفسها تنتظر ما يأتي به القدر وهي تنذر النذور سرّاً لدير بحيرا



الفصل الرابع والعشرون

منادي دير نجران

فبينما هي ذات يوم جالسة في غرفتها تفكر في امرها سمعت مناديًا بجوار القصر يقول « من نذر نذرًا لنجران المبارك » (١) فاطلت من النافذة فرأت فارسًا متزملاً بعباءة وعلى رأسه قلنسوة الرهبان وفي يده صليب من الفضة فعلمت انه منادي دير بحيراء يطوف البلاد والقرى يجمع النذور على جاري عادته في كل عام

فلما سمعت اسم ذلك الدير هاجت عواطفها وتذكرت حبيبها وما دار بينها وبينه هناك فتوسمت في ذلك المنادي خبرًا لعلمها انه كثير التجوال فاحبت محادثته لعلها تستطلع منه خبرًا سمعه عن حماد اثناء تجواله فامرت بعض الخدم ان يستقدمه ففعل فتحول الرجل ودخل القصر حاملاً خرجًا فجاء به الى هند فحياها تحية الملوك وناولها الصليب فقبلته وقبلت يده وقدمت له وسادة جلس عليها ووضع الخرج الى جانبه

وكانت امها في شاغل ببعض مهام القصر وليس في الغرفة سوى هند فتأملت وجه الرجل فاذا هو غير الراهب الذي كان يمرُّ بهم عادة فخافت ان يكون قد جاء بحيلة للسرقة او نحوها فسألته اذا كان يريد الذهاب الى قاعة الطعام فاثنى على كرم الغسانيين واعتذر بانه لا يحتاج الى طعام

فقالت من اين اتيت يا حضرة الاب

قال اتيت من تجوالي في جهات البلقاء اجمع النذور

فقالت هل جمعت شيئًا كثيرًا

قال نعم يا سيدتي ان المسيحيين في هذا العام اكثروا من النذور حتى ملأت خرجي هذا من خيراتهم وتناول الخرج بيده وهزهُ فسمعت له صوتًا يشبه صليل الحديد

فقالت ما هي انواع النذور التي جمعتها هذا العام اني اسمع لها صليلاً

---

(١) معجم ياقوت (ونجران اسم من اسماء دير بحيراء)

قال ان في خرجي هذا نذورًا كثيرة لم يدخل دير بحيراء مثلها منذ عمر حتى العام قال ذلك وتسم فارتابت هند بقوله وادركت ان وراء تبسمهِ معنى خفياً

فقالت وكيف تأتى لك ذلك والنذور تحمل الى هذا الدير ذهبًا وفضة وحجارة كريمة من اقاصي البلاد.

قال لم اخرج لهذه المهمة الاَّ في هذا العام فجئت بالعجائب الغرائب

فرأت في كلامهِ لهجة غريبة فلم تستغرب ذلك لعلمها ان الرهبان في دير بحيراء اخلاط من امم كثيرة ولغات شتّى ولكنها ازدادت شبهة في مغزى كلامهِ

فقالت وما هي الغرائب التي اتفقت لك دون سواك

قال جئت الدير بنذر لم يسبق لهُ مثيل لا لغلاء ثمنهِ بل لغرابتهِ قال ذلك وحلَّ رباط الخرج ومد يده اليهِ وحاول اخراج ما فيهِ فسمعت صليلاً كصليل الدرع فتذكرت درع حماد فاختلج قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار فقالت هات ما عندك فاستخرج يده وفيها قطعة من درع لم يقع نظر هند عليها حتى امتقع لونها وغلبت عليها البغتة لما آنست من المشابهة بينها وبين درع حماد فتناولتها وتأملتها فاذا هي هي بعينها فالتفتت الى الراهب فرأتهُ يتغافل عنها ولكنها قرأت على وجههِ سرًا يحاول اخفاءه والابتسام يكاد يظهره فابتدرتهُ قائلة من اين اتتك هذه الدرع ومن هو الذي اعطاكها

قال اعطانيها صاحبها

فقالت هل تعرف مكانهُ فانها مسروقة من عندنا

فالتفت اليها قائلاً لا اظن صاحبها سارقًا بل هو رجل امين وقد ابتاعها بثمن غالٍ جدًا

فقالت ربما كان ذلك كما تقول ولكنني اعلم ان هذه الدرع كانت عندنا فلا بدَّ لي من رؤية الذي اعطاكها فهل هو قريب من هذا المكان

قال هو قريب جدًا واذا صدق ظني فهو في اقرب مكان منك وانت تعلمين انهُ ليس سارقًا

فادركت انهُ يلغز بحماد وانهُ عالم بشيء مما بينهما فتجاهلت ولكن الحياء والبغتة غلبا عليها فقالت ما تعني بهذا الكلام أراك تقول جزافًا

قال كلاّ ياسيدتي اني اتكلم عن ثقة ولكنك تتجاهلين والحقيقة ظاهرة على وجهك

فتحققت عند ذلك انهُ رسول من حماد ولكن سوء الظن سبق الى ذهنها مخافة ان يكون قادمًا بدسيسة من ثعلبة فتجاهلت ايضًا وقالت اراك تقول كلامًا لا افهمهُ او لعلك مخطىء في ظنك

قال لست مخطئًا لاني اتكلم عن ثقة وإن شككت بمقالي سلي الاساور تصدقك الخبر

فقالت وايّ الاساور تعني

قال الاساور التي بيعت هذه الدرع بها واذا بالغت في التجاهل جئتك بتاجر الحلى عينهِ

فايقنت عند ذلك انهُ رسول حماد اليها وحدثتها نفسها ان تسألهُ عنهُ صريحًا ولكنها تجلدت ريثما تخبر والدتها بذلك فنهضت للحال ولم تنه بكلمة وسارت الى غرفة والدتها وخلت بها واخبرتها بما كان فقالت والدتها اخشى ان يكون الرجل جاسوسًا من ثعلبة فلا تبوحي لهُ بشيء قبل ان تحقق رسالتهُ

فجاءت سعدى وهند تتبعها فلما دنت من الراهب وقف لها وحياها فتظاهرت بالجفاء قائلة . ألعلك قادم من دير بحيراء الآن

قال كلاّ يا سيدتي بل انا آتٍ من البلقاء

قالت أرني الدرع فاراها اياها فتحققت انها الدرع التي نالها حماد جائزة سبقهِ يوم السباق فتناولتها من يدهِ وقالت لهُ ان هذه الدرع مأخوذة من عندنا ولعلها مسروقة فهل تعرف الذي اعطاك اياها

فتبسم الراهب تبسماً يمازجهُ ريبٌ وقال أظنني اعرفهُ

فقالت واين تركتهُ

قال تركتهُ في بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر

قالت هل هو مقيم هناك ام راحل

قال هو مقيم ينتظر عودتي

قالت (وقد استغربت ذلك) وماذا يتوقع من رجوعك وانت تقول انهُ دفع اليك هذه الدرع نذرًا نذره الى الدير فما معنى رجوعك اليهِ اني أرى في كلامك تناقضًا

قال لا مناقضة في ما اقول لان صاحب هذه الدرع شرط في نذره انها لا يكون نذرًا الاَّ بعد ان اعود اليهِ بخبرعن امر يهمهُ قال ذلك وهو ينظر الى هند بطرف عينهِ كأنهُ ينتظر اشارة منها فآنس في وجهها اشراقًا فتبسم وأومأ بجفنيهِ نحو والدتها كأنهُ يقول لها هل ابوح بالسر امامها

فتحققت هند ان الرجل مرسل من حماد اليها ولكنها تجلدت ولم تجبهُ . فجلس والدرع في يده ينتظر ما تأمر بهِ هند

أما هي فأومأت الى والدتها وخرجتا معًا وتركتا الراهب في الغرفة فلما خلتا قالت هند وقلبها يرقص فرحًا لا ريب عندي يا اماه ان الرجل رسول من حماد ويظهر من اساليب كلامهِ انهُ آتٍ ببشرى خير ولكنهُ لم يجرأ على التصريح بذلك امامك لظنهِ انك لا تعلمين بما بيني وبين حماد ولا ريب عندي باخلاصهِ فاسمحي لي بمخاطبتهِ صريحًا فنسمع منهُ الخبر الصحيح فاجابتها والدتها الى ما ارادت فجلستا في غرفة منفردة وارسلتا الى الراهب فجاءها والخرج على ذراعه فلما جلس قالت لهُ سعدى عزمت عليك ان تخبرنا بحقيقة حالك ومن هو صاحب هذه الدرع وكان لعزمة الامراء عند العرب حق ان تطاع فنظر الراهب الى هند كأنهُ يستشيرها في الجواب فقالت لهُ قل ولا تخف

فمد يده الى الخرج واستخرج الخوذة وقال اذا كنتِ لا تعلمين الذي البستهِ هذه الخوذة بيدك فمن العبث ان اخبرك عنهُ

فخفق قلب هند وعلا وجهها الاحمرار وقالت نعم نعرفهُ فقل انت ما اسمهُ قال اسمهُ حماد يا سيدتي فارقت اسرة الفتاة اي ابراق ولولا حجاب التعقل والرزانة لرقصت طربًا لذكره ولكنها امسكت نفسها فاكتفى الرجل بما قرأه في عينيها من آيات البشر فشاركها في ذلك وانظر جوابها فقالت لهُ صدقت هو حماد فاين هو الآن

قال هو في خلوة لا يجسر على القدوم الى هذه الديار لاسباب لا يجهلها عامة غسان فضلاً عن خاصتهم

فقالت سعدى قل لنا اذن من انت فاني لا اظنك راهبًا فرفع القلنسوة عن رأسهِ وقال لا اظنكما تعرفانني ولكني اعرفكما بنفسي فاني عبدكما سلمان خادم سيدي الامير حماد

فاستأنستا به كثيرًا واخذت هند تسأله عن حال حماد وما مرّ به فقص عليها الخبر منذ خروجها فرارًا من غسان الى ان نجوَا من الاسد وسارا الى عمان وعادا منها الى ان قال وقد جئت متنكرًا بهذا اللباس وتركت سيدي حمادًا في بعض القرى في قلق شديد على والده وفي شوق ولهفة لمولاتي (واشار الى هند)

فقالت سعدى ألم يبلغكما خبر سيدك الامير عبد الله بعد.

قال (وقد حملق عينيه ومال بكليته لاستماع خبره) كلاَّ يا سيدتي فما هو خبره

قالت قد علمنا ان الامبراطور هرقل عفا عنهُ وامر بصرفه مصحوبًا بكتاب الامان

فانبسط وجه سلمان عند سماعه الخبر وود لو يكون طيرًا فيسرع الى حماد يبشره بذلك ولكنهُ استشار سعدى في الامر فقالت ارى ان تسرع الى مولاك بالخبر وطمئنهُ عن هند وقل له ان والدتها تهديك السلام ولكن احذر ان يعلم احد في الارض انك جئت هذا المكان او نطقت بهذا الكلام فليبحث هو عن والده وستتصل الاخبار بيننا عند الحاجة على مقتضى الاحوال وليكن هو مطمئن البال والايام بيننا .

وكانت هند تسمع كلام والدتها فلا تبدي ملاحظة ولم تكتف بهذه المواعيد البعيدة بل كانت تود ان تضرب أجلاً للقاء ولكن الحشمة امسكتها عن الكلام . اما سلمان فسرَّ كثيرًا لما آنسهُ في سعدى من الرضاء عن حماد ولكنهُ رأى قولها مختصرًا مقتضبًا لا يشفي غليلاً على انهُ اقتنع بما لقيهُ وما سمعهُ فلبس قلنسوتهُ وودعها وخرج الى فرسه وسار قاصدًا حمادًا . اما سعدى فلما تحققت بقاء حماد حيًّا ورأت هندًا قد انتعشت قواها وزال امتقاع لونها الذي كان السبب الاول في تحريك حنوها حتى سايرتها في ما دار بينها بشأن حماد مع ما كانت تظنهُ من موته او انقطاع خبره فلما تحققت بقاءه تمثل لها الامر مجسمًا وندمت على ما فرط منها من مجاراة هند بشأن حبها حمادًا على غموض حسبه مع ما تخشاه من ايقاظ الفتنة بين زوجها والحارث اذا منعت ثعلبة من ابنتها ثم تذكرت غدر ثعلبة وكره هند له فصوبت ردها طلبهُ ولكنها احست بصعوبة ذلك فلبثت برهة صامتة تفكر في الامر وهند تتأمل في ملامح وجهها وتنتظر ما يبدو منها فلما طال سكوتها توسمت فيها التردد فانقبضت نفسها وعادت هواجسها اليها فتركت والدتها وسارت الى غرفتها والقت نفسها على السرير حزينة تراجع في ذهنها حكاية سلمان وما قالت والدتها له فلم ترَ في قولها ما يشفي غليلاً فاحست ان والدتها انما كانت تسايرها ظاهرًا فعظم عليها الامر

فتاة غسان (تابع ما قبله)

وفيما هند في ذلك جاءت والدتها وكانت لاتزال منقبضة النفس فرأت الدموع تتلألأ في عيني ابنتها فهاج حنوّها ونسيت هواجسها ودنت منها وهي تبتسم وأخفت ما في نفسها وهند تنظر الى وجهها لعلها تستطلع شيئاً جديداً فلما رأتها تبتسم اطمأن بالها ولكنها ادركت انها انما فعلت ذلك حنوّاً فعمدت الى اثارة شفقتها التماساً لمساعدتها فتظاهرت بالغضب دلالاً وتيهاً وأطرقت هنيهة لا تتكلم

فقالت سعدى ما لي أرى الهواجس قد عادت اليك ألم يكفك ما سمعتهِ عن حماد

فلم تجب

فازدادت سعدى حنوّاً والقت يدها على كتف ابنتها وقالت لها ما بالك ساكتة يا هند الم تشكري الله على انعامهِ

قالت شكرتهُ كثيراً ولكني اراهُ لم يأذن بانقضاء زمن تعاستي لاني لم اكد اسمع ما سرّني حتى رأيت ما كدرني

قالت وما الذي يكدرك بعد ذلك

قالت يكدرني ان ارى حبل المساعدة كاد ينقطع

قالت وماذا تعنين بذلك

قالت اعني ما أقرأهُ على وجهك من آيات التردد ولا لوم عليك فقد عاملتني بما استحقهُ . قالت ذلك وقد وقفت تتشاغل بحل ضفيرتها وعنقها امام المرآة فرافقتها سعدى وهي تنظر اليها وتتوقع منها ابتساماً فرأتها لا تزال منقبضة فخافت ان تعود الى حالها من الضعف فهان عليها كل ما تريد وصممت على مساعدتها فعلاً فتظاهرت بالاستغراب وهمّت بها فقبلتها وضمتها الى صدرها قائلة انزعي عنك الظنون يا هند فاني على ما تريدين ولسوف ترين مني ما يسرّك

فانتعشت هند لما سمعتهُ ولكنها تظاهرت بانكار ذلك وقالت يكفيني املاً بلا عمل فاني اراك تسخرين بي

فضحكت سعدى حتى قهقهت وأظهرت المزاح قائلة ذلك خلق المحبين فانهم لا يستقرون على حال

فنظرت هند اليها شذرًا وشعرها لا يزال محلولاً واصابعها تخللهُ فلما رأت والدتها تضحك انبسط وجهها وعادت اليها الآمال فتبسمت ولكنها حوّلت وجهها نحو المرآة وتشاغلت بضفر شعرها

فمدت سعدى يدها الى الضفيرة وتناولتها وقالت وهي تتمُّ ضفرها دعينا من ضفر الشعور فاننا في ما هو ادعى الى الاهتمام

فقالت هند لا ارى الاهتمام بشيء آخر الاَّ عبثًا

فقالت أمن العبث ان تخلص من مطالب ثعلبة

فلما سمعت اسمهُ نفرت وانقبض قلبها ولكنها توسمت بابًا للفرج فقالت يا حبذا ذلك لو صح

وكانت سعدى قد فرغت من ضفر الشعر فامسكتها بيدها واجلستها الى السرير ونظرت اليها نظرة فهمت هند منها انها تريد الجد فاصغت اليها فقالت دعينا من الهواجس يا هند ولنبحث في الامر بالتروي

فقالت قولي ما تريدين واذكري وعدك

قالت لا اقول الاَّ ما يرضيك ولكنني اعلم انك عاقلة رزينة ولا اظنك ترتابين من حبي لك وانعطاف والدك نحوك واذا اتينا امرًا ساءك او سرَّك انما نأتيهِ التماسًا لراحتك

فخافت هند ان يكون وراء هذه المقدمات نصيحة تمنعها من حماد فلبثت صامتة وقلبها يخفق في انتظار اتمام الحديث

فقالت سعدى لا يسعني الاغضاء عن اهمالك البحث عن اصل حماد وفصلهِ فان الحب يعمي ويصم فانقدم اليك ان تستجمعي رشدك وتسأَلي عقلك هل هو مساعد لك على ما رضيهُ قلبك

قالت نعم يا اماه اني في كمال عقلي ولا ارى في عملي هذا خطأً ولا ريب عندي اذا خاطبتِ حمادًا واستطلعت اخلاقهُ واطوارهُ انك ترين فيهِ مثل ما رأيتهُ انا فهو شاب كامل الصفات كريم الاخلاق ولا بد من ان يكون ذا حسب ونسب فاذا لم يكن ملكًا ارضياً فهو ملاك سماوي ولا اقل من ان يكون اميرًا وزد على ذلك ان ما شهدناه من شهامتهِ وكرم اخلاقهِ يؤهلهُ لمصاهرة والدي وقد قبل المرءُ باصغر بهِ

لا يرديه فهي انهُ غير حسيب فهو لا ريب شهم كريم · قالت ذلك وعلامات الهيام ظاهرة على وجهها تخالطها ملامح الخجل

فقالت سعدى اذا كان الامر على ما تقولين فاني اهنئك بهذا الصيب ولكننا يجب ان نتدبر الامر بالحكمة حتى لا ينجم عن عملنا ما يضرُّ بمصلحة والدك او يأ ول الى حرب وانت تعلمين علاقته بابن عمهِ الحارث وما بينهما من المنافسة المموهة بالمجاملة فنخشى ان يأ ول عملنا هذا الى حرب تتقد نارها وتسفك الدماء من اجلها

فقالت أتريدين اذن ان ارضى بثعلبة و · · · ·

فقطعت سعدى كلامها قائلة كلاَّ لا اريد ذلك ولا ارضاه ولكنني اريد ان لا تستعجلي في الامر فان في العجلة ندامة

قالت وماذا افعل اذن

قالت اتركي تدبير ذلك اليَّ على ما تقتضيهِ الاحوال ولا ريب عندي انك ستنالين مناك على اهون سبيل ·

قالت ها اني قد القيت حملي عليك وجعلت قيادي في يديك فافعلي ما تريدين فقبلتها سعدى وطمأ نتها ثم تركتها وسارت الى غرفتها

الفصل الخامس والعشرون

التفتيش عن عبد الله

أما سلمان فعاد الى حماد وكان في مأ من خفي ينتظر عودتهُ بفارغ الصبر فلما لقيهُ استطلعهُ الخبر فاجابهُ وإمارات الانبساط ظاهرة على وجههِ وبشَّره بالعفو عن والده وبقاء هند على حبها ورضاء والدتها بذلك فلم يكن يوم اسعد على حماد من ذلك اليوم فابرقت اسرتهُ وتمثلت لهُ السعادة خادمًا مطيعًا وقضى بقية يومهِ يردد حديث سلمان عن هند وما ينطوي تحت كلام والدتها لكنهُ ما لبث ان عاد الى ذكرى والده وقد خاف عليهِ طول الغياب فاستشار حمادًا في امرهِ فقال ارى ان نبحث اولاً عنهُ فاذا التقينا بهِ تركنا تدبير ذلك اليهِ

فقال حماد أنسير الى بصرى متنكرين

قال لا خوف علينا بعد ما صدر من العفو ولكن ثعلبة ثعلب لا يركن اليهِ فامكث انت هنا ودعني اسير بنفسي الى منزلنا في غسام ومتى وصلت المكان علمت حقيقة الخبر

فقال وكيف تعلمهُ

قال اني ذاهب للبحث عن المخبأة التي تركناها بجوار منزلنا لا يعلم بها احد سوانا فاذا لم اجدها علمت ان سيدي اخذها فنعلم انهُ عاد من سفرتهِ فنبحث عنهُ في بصرى وجوارها والاّ فنعلم انهُ لم يعد بعد فاسير الى بيت المقدس للتفتيش عنهُ

فاستحسن حماد الرأي فباتوا ليلتهم ولما اصبحوا ركب سلمان لباس الرهبان وترك حمادًا في منزل رجل من بقايا الانباط الذين كانوا يقيمون في جنوبي البلقاء . وكان الانباط في الزمن القديم أُمة عظيمة ذات عز ومجد وكانوا واسطة عقد التجارة بين مصر والشام والعراق وبلاد العرب يقيمون شرقي العقبة بين مصر والشام وبلاد العرب ولا تزال بعض آثارهم باقية حتى الآن في ما يسمى بَاترا او بطرة ويغلب على الظن ان اصلهم من انباط ما بين النهرين . وما زالت دولتهم قائمة حتى غلبهم الرومانيون في اوائل القرن الثاني للميلاد فتشتت شملهم وتفرقوا في البلاد واختلطوا بقبائل العرب الاخرى . ومن طرق معائشهم التنجيم وقد حملوهُ معهم من بين النهرين (١)

وكان صاحب المنزل المشار اليهِ طاعنًا في السن لم يرزق اولادًا يعيش من زراعة بقعة من الارض صغيرة ولم يكن يحب الغساسيين لانهم على زعمهِ احدث نعمة من الانباط وان الانباط اولى منهم بالسيادة وسبب بغضهِ لهم الحسد وذلك طبيعي في من كان من سلالة الحكام ثم رأى السيادة في غير اهلهِ فانهُ لا يستطيع حبهم او الاذعان لهم الاّ قهرًا فاذا خلا بنفسهِ ندد في حكومتهم وعدد معائبهم وهو من أدلة الضعف في بني الانسان

وكان سلمان لما عاد بحماد من عمان قد عثر على هذا الرجل واستطلع حالهُ فعلم انهُ احسن ملجاء يلجأ سيدهُ اليهِ ريثما يعود اليهِ بخبر هند فلما عاد بخبرها كما تقدم واتفقا على ذهابهِ الى غسام سار اليها وهو مطمئن البال ولكنهُ غادر حمادًا على مثل الجمر في انتظار رجوعهِ

فلم يمض يومان حتى عاد سلمان ومعهُ التحف والنقود التي كانوا قد خبأوها بجوار

---

(١) الانسكلوبيذيا وغيرها

منزلهم فدفعها الى حماد وهو منقبض النفس كاسف البال فسألهُ عن أمره

قال اني خائف على سيدي من دسيسة ابن الحارث واخاف ان يكون قد غضب لما نالهُ من العفو فانفذ اليهِ رجالاً اغتالوه

قال وما الذي حملك على هذا الظن

قال اني تدبرت الامر واستطلعت الخبر من اهل بصرى سرًّا فعلمت ان الخبر بالعفو وصلهم من عشرة ايام وان سيدي خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت الى الحجاز رأسًا فهل تظنهُ سار معها

فقال حماد وكيف يعقل ان يسير الى الحجاز ونحن على موعد من لقائهِ في عمان فلا يبعد ان يكون قد رافق القافلة الى جوار عمان ثم عرج اليها

فقال سلمان ولكنهُ يعلم ان موعدنا فرغ اذ قد مضى الشهران او اكثر منذ افترقنا

فقال حماد لعلهُ اراد المرور بعمان ليتحقق عودتنا منها فلا يلبث ان يعلم بذلك حتى يعود فلنصبر قليلاً نتنسم اخبارهُ

فصمت سلمان وهو لا يزال خائفًا على سيدهِ ولكنهُ تظاهر بالاقتناع تخفيفًا عن حماد وكان لا يزال بزي الرهبان وقد غشيهُ الغبار فنزع ثيابهُ وغسل وجههُ وكان صاحب المنزل قد خرج في بعض المهام وترك كلبهُ يحرس المضارب ريثما يعود

فاغتنما تلك الفرصة واخفيا ما جاء بهِ سلمان من الاموال فجعلا بعضهُ في جيوبهما وبعضهُ بين الثياب

الفصل السادس والعشرون

الخطبة

تركنا هندًا في صرح الغدير وقد أمَّلت الحصول على حماد ولكنها كانت ترى اظلالاً من الريب تعترض آمالها لان ذكاءها ودقة نظرها اوحيا اليها شكًّا في رضاء والديها عن حماد اما هذه فكانت تحاول اقناع نفسها في صلاح ما وعدت هندًا بهِ ولكنها ما زالت ترى في ضميرها ما يعترض مقاصدها على انها كانت تتغلب على ذلك الضمير ارضاء لابنتها وتنتظر ما يأتي بهِ القدر

وفيما هي جالسة ذات يوم في الصرح جاءها بعض الخدم ينبئها بقادم من البلقاء فهرولت اليهِ لعلهُ جاء بخبر من جبلة وقد طال أمد غيابهِ فرأت فارساً ترجل وقبل يدها فعرفت انهُ من رجال زوجها فاستطلعتهُ الخبر فقال ان الامير جبلة قادمٌ اليكم في صباح الغد وهو يقرئك السلام

فقالت أهلاً ومرحباً فانا نستعد لاستقبالهِ ثم دخلت وقد علمت انهُ آتٍ ليسأَلها بشأن هند وثعلبة

فانقبضت نفسها وشعرت بحرج المقام وجعلت تفكر في حل ذلك المشكل وفيما هي غارقة في بحار الهواجس جاءت هند وكانت قد رأت الفارس وعلمت سبب مجيئهِ فخفق قلبها لما يعترض آمالها من الشكوك وتوقعت ان ترى والدتها في ارتباك فلما علمت بخلوتها دخلت بغتة فرأتها في ما تقدم من الانقباض فحيَّتها فانتبهت سعدى لحالها فحاولت الابتسام لتخفي ما يخامر قلبها فابتدرتها هند بصوت مختنق قائلة لا يشغلك شاغل يا أُماه فما في الامر ما يدعو الى هذا الاهتمام

فقالت سعدى لست في اهتمام يا ولدي ولكنني اشعر بانحراف في صحتي

فقالت صدقت ولكن سببهُ هند هذه

قالت حاشا وكلاَّ فانك تسليتي ومنشأُ سعادتي ألا ترينني حالما وقع نظري عليك انشرح صدري وانبسط وجهي

قالت ارى ذلك ولكنني أرى عليهِ صبغة التكلف فلا ترتبكي ولا تقهر نفسك فان كل حال تزول . وارادت هند ان تخبر والدتها وتستعيد وعدها لها قبل قدوم والدها لان على اجتماعهما هذا يتوقف مستقبلها

فقالت سعدى ما بالك تكلمينني بالرموز ألم تحققي حتى الآن اني على ما وعدت

قالت قد تحققت ذلك ولكنني اراني سببت لك تعباً وارتباكاً

قالت ان تعبك راحة فاقلعي عن هذه الظنون وهلمَّ بنا نتدبر الامر فنتفق على خطة نسير عليها . لأن والدك قادم غداً ولا أظنهُ الاَّ فاتحاً حديث ثعلبة فما ظنك فيما نجيبهُ بهِ

قالت انت تعلمين ما في قلبي فاجيبيهِ بمقتضى حكمتك أما انا اذا سئلت فلا جواب عندي غير السلب ولو مها كلفني ذلك

فقالت هي انهُ سألنا عن سبب هذا الرفض فهل اذكر لهُ حكاية حماد

قالت لا ادري ما تقولين ولكني اخبرتك بكنونات قلبي وقد وعدتني بتدبير الامر فافعلي ما تشائين

فسكتت سعدى وقد وطنت نفسها على مجاراة ابنتها وخرجت من الغرفة وامرت اهل القصر بضرب المضارب واعداد الذبائح لاستقبال جبلة وحاشيتهِ في صباح الغد

فاصبح الصباح وقام الخدم لاعداد ما يلزم ففرشوا البسط ونصبوا الخيام وذبحوا الذبائح واوقدوا النيران ولبست سعدى وهند أحسن ما لديهما وتهيأتا للاستقبال فلما كان الضحى ظهر الغبار من جهة البلقاء فعلم اهل القصر بمجيء جبلة ورجالهِ فخرجوا للاقائهم واطلت سعدى من بعض النوافذ المشرفة على ذلك السهل أما هند فاستلقت على سريرها وفرائصها ترتعد لهول ما تصورتهُ من غضب والدها اذا علم بما في نفسها ثم ما لبثت ان سمعت قرقعة اللجم وصهيل الخيل بجوار القصر فعلمت بوصول والدها وفرسانهِ فخفق قلبها ولكنها تجلدت واطلت من الشرفة فرأت الفرسان قد تحولوا الى الخيام المضروبة لهم هناك وترجل والدها امام الحديقة ودخل بلباسهِ الفاخر وقد لفَّ رأسهُ بكوفية والعقال حولها والتف بالعباءة فوق الطيلسان فاستقبلتهُ سعدى بوجه باش يخامره بعض الانقباض ثم جاءت هند فقبلت يدهُ فضمها وقبلها واستغرب ما رآهُ في وجهها من النحول فسألها عن سبب ذلك فاجابتهُ والدتها بانها تشكو من ألم عارض فساروا جميعًا الى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد فدخل ثعلبة ممسكًا هندًا بيدها حتى جلس في صدر القاعة واجلسها الى جانبهِ وقد تنبهت فيهِ عواطف الشفقة والحنو لما آنسهُ فيها من الضعف فما صدق انهُ خلا بها وبوالدتها حتى سألها عن شكوى هند منهُ فطأطأتاه والحتا عليهِ ان يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل وقد اوصى الخدم باصلاح ما يحتاج اليهِ رجالهُ من الزاد

أما سعدى فآنست في وجه زوجها انقباضًا لم تعهده فيهِ وخصوصًا عند مقابلتهِ هندًا بعد غياب طويل فعوَّلت على استطلاع السبب بعد الغداء والاستراحة ولكنها لم تستطع ذلك لانشغالهِ بمشاهدة غرف القصر ونزولهِ الى الاسطبل يتفقد افراسًا لهُ كان قد تركها هناك ولكنها لاحظت انهُ انما كان يتلاهى بذلك تخلصًا من سؤالها واستفهامها

فلما كان المساء جلسوا للطعام وكل منهم في هاجس فلم يدر بينهم حديث غير ما لا

بد منهُ على المائدة كالتماس الآنية او استبدال بعض انواع الطعام او الشراب او نحو ذلك

فلما فرغوا من العشاء تفرّق الخدم يهتمون بشؤونهم وبقي جبلة وزوجتهُ وابنتهُ في القاعة على حدة وكان جبلة متكئاً على وسادة وهند الى جانبهِ ووالدتها بين يديهِ

فنظر الى هند وتأمل وجهها ثم التفت الى سعدى وقال لها لقد اطلنا الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل انتابتني وكنت أعد النفس بالقدوم اليكم منذ ايام فلم استطعهُ الاّ اليوم وكنت احسب مجيئي هذا يفرج كربتي فلم أرَ الاّ ما يزيدني انقباضاً

فتطاولت سعدى بعنقها نحوه قائلة

ليس في هند ما يدعو الى الانقباض فقد يمرُّ على الانسان ايام يتوعك بها مزاجه لغير سبب يعرفهُ ولكني توسمت في وجهك انقباضاً منذ قدومك هذا الصباح وكنت اغالط نفسي واحسبني مخطئة أما وقد اقررت بهِ من فيك فارجو ان تنصح عن السبب

قال ليس في ما تشاهدينهُ من الانقباض ما يهمك الاطلاع على اسبابهِ فهو امر عارض لا يدعو الى بحث

فقالت لا اظن امرًا يهمك لا يهمنا ومهما كان من شأنهِ فان بالنا لا يهدأ الاّ بمعرفتهِ

فقال دعينا من الخوض فيهِ وقد يكون سحابة صيف تنقشع ولا تمطر

فاشتاقت سعدى الى استطلاع الخبر وعلمت انهُ منقبض من خبر سمعهُ ولم يتحقق صدقهُ . فقالت هب انك لم تتحقق ما سمعتهُ فاطلعنا عليهِ

قال جاءنا قادم من الحجاز يخبرنا بقدوم جند من العرب لمحاربتنا

فبغتت سعدى وقالت وما سبب قدومهم ولا نعرف بيننا وبينهم ما يوجب حربًا

فهزّ رأسهُ واعتدل في مجلسهِ وجعل يمشط لحيتهُ باصابعهِ وقال ان هؤلاء العرب عصابة قوية برئاسة نبي ظهر بينهم يدعو الناس الى دين جديد وقد بعث كتاباً يدعونا فيهِ الى دينهِ فوصل كتابهُ الى الحارث فمزقهُ وامتهن حاملهُ فشق ذلك على صاحب الدعوة فانفذ جندًا من رجالهِ لمحاربتنا فبثثنا العيون والارصاد لمراقبة مسيرهم ولا نعلم متى يصلون

« سيأتي البقية »

فبغتت هند عند ذكر الحارث وقالت في نفسها « قد كتب علينا الشقاء على يد الحارث وابنه فلا حول ولا » ولكنها نظرت الى والدها وقد ثارت فيها الحمية وقالت وما يخيفنا من قدوم هؤلاء العدنانيين ونحن بني غسان رجال اشداء لا نرهب القتال

فانشرح صدر جبلة لما اظهرته هند من الشهامة وقال نعم اننا لا نخاف حربهم ولكننا كنا في غنى عن حشد الرجال واعداد معدات الدفاع وحصوننا لا تزال مهدمة على اثر حروبنا مع الفرس سامح الله الحارث لما جرّه علينا من البلاء

فقالت سعدى يظهر ان هؤلاء العدنانيين انما يريدون قتال الحارث لاقتالنا

قال نعم ولكننا جميعاً تحت سيطرة الروم فاذا احتاجوا الى دفاع استنجدونا جميعاً ولا يسعنا الا الاذعان . فقالت هند أيخطئ الحارث ونحن نحارب عنه

قال ذلك ما لا بد منه اذا دعت الحالة اليه وسنرى ما يكون من امر هذا الجند ولكن الحارث جاءني بالامس وتداولنا في الامر ملياً واخذنا في حشد الرجال واعداد معدات القتال وعلى الله الاتكال

فلما سمعت سعدى باجتماع الحارث بزوجها ايقنت انهما تداولا في شأن هند وتوقعت ان تسمع حديثه من جبلة ولكنها علمت انه لا يذكر ذلك وهند حاضرة فتظاهرت بالملل وقالت اظنك تعباً من جراء السفر في هذا الصباح فهل تريد الذهاب الى الفرش . فادرك مرادها فاجاب دعوتها ونهض ونهضت هند ولم يفتها المراد من ذلك فانصرفت الى غرفتها بدعوى الرقاد وقد نظرت الى والدتها بطرف خفي كأنها تذكرها بوعدها فافترقوا وخلت سعدى بزوجها في غرفة الرقاد وقد اعدّ له الخدم ثياب النوم فبدّل ثيابه وبدلت هي ثيابها وكلاهما صامت يفكر في جهة والموضوع واحد

الفصل السابع والعشرون

كشف السرّ

فاتكأ كل منهما على سريره والسريران متقابلان وفي الغرفة شمعات مضيئة على مائدة وقد هدأ الليل واستولى السكوت على ذلك الصرح لذهاب الناس الى منامهم الا

ما كانوا يسمعونهُ من صهيل خيول في معسكر حاشية جبلة عن بعد

فبدأ جبلة بالكلام قائلاً عهدت اليك مهمة منذ ايام وكنت اتوقع قدومك الينا بخبر اتمامها فابطأتِ حتى استبطأ الحارث جوابي فجاء يستعجلني فيهِ وقد آنست منهُ تغيرًا لما كان يتوقعهُ من سرعة الاجابة وخصوصاً بعد ما سمعهُ من قدوم هؤلاء العدنانيين فانهُ يرى التعجيل في الاقتران قبل وصولهم

فاحست سعدى بما جرَّتهُ على نفسها من المشاق بما أكدت لهند من الوعود فترددت برهة في الجواب

فابتدرها جبلة قائلاً ما بالك لا تجيبينني ألعل في الامر مندوحة للتردد

قالت لا أعلم ذلك ولكنني اعلم ان هندًا لم ترتح منذ ذكرت لها هذا الامر

فقال وماذا كان جوابها

قالت لا سلبًا ولا ايجابًا

قال اذن هي راضية

قالت لا يدل السكوت على الرضاء في كل حال

قال وقد بغت وماذا اذن العلك فهمت ما يدل على الرفض

قالت لا ادري . . . . ولعلي مخطئة في ظني

فقال وقد استغرب جوابها قولي افصحي فاني ارى وراء توقفك ما يأول الى خطر جسيم

فقالت واي خطر تخافهُ

قال ألا تعلمين ان رفض هذا الامر يأول الى نفور بيننا وبين الحارث

فقالت وهي تتجاهل مراده واي علاقة بين الامرين ايكون الزواج قسرًا

فهبَّ من مجلسهِ وقد زاد استغرابًا وقال أبلغ من هند ان ترفض ما اختاره لها والداها

قالت لا تقل (والداها) بل قل (والدها) فقط

فحملق وقال وقد علا صوتهُ العلك مجاريةً لها على تعنتها يا سعدى

فاجابتهُ بصوت خافت قائلة لا لم اجارها في شيء ولكنني خفت عليها الموت فاذا كنت ترى ان تجود بهند فريسة لذلك الرجل زوّجها بهِ . قالت ذلك واطرقت وقد شرقت بدموعها

فبهت جبلة عند سماع تلك العبارة ولبث برهة يحسب نفسهُ في منام ثم قال وماذا تعنين يا سعدى ألعلك تتكلمين عن ثقة

قالت لم اذكر لك الآ ما تحققتهُ بعد جدال طويل واذا كنت لا تصدق مقالي فهذه هند ادعها اليك وخاطبها وجهًا لوجه فقد نفدت حيلتي فيها

فرجع جبلة الى صوابهِ وتذكر حبهُ هندًا وما يعجب بهِ من شهامتها وتعقلها ولكنهُ ما زال على ما يخافهُ من عواقب ذلك الرفض فقال لها ادعيها اليَّ لاخاطبها واسمع اعتراضها

فوقفت سعدى وهمت بالخروج الى غرفة هند ولكنها علمت ان مجيئها وجبلة في حال غضبهِ قد ينتهي الى عاقبة وخيمة فرأت من الحكمة ان تخفف من غضبهِ وتهدئ روعه قبل مجيئها فتقدمت منهُ والدموع ملء عينيها وقالت ها اني ذاهبة لاستقدامها ولكنني انبهك الى أمر ارجو ان لا يبرح من بالك

قال وما ذلك

قالت انت تعلم شهامة هند ورقة احساسها وخصوصًا بعد ما عانتهُ من الضعف على أثر حديثي معها بشأن ثعلبة وتعلم ايضًا ان ثعلبة كما نعرفهُ نحن ليس كفوءًا لها مع ما خبرناه من خساستهِ وغدره ولا تظنهُ يحبها بل هو يريد قتلها فاذا علمت ذلك تدبّر الأمر بالحكمة وخاطبها بالحسنى ولا تطمع في اكراهها لئلاَّ نسوقها الى حتفها فنندم حين لا ينفعنا الندم فمن الحكمة ان نأخذها باللين والمطل ريثما نتغلب على عواطفها

فقال جبلة لقد نطقت بالصواب ولكنني لا أراني قادرًا على التخلص من شرّ أتوقعهُ بسبب ذلك على اني لم افهم سبب رفضها اياه وهو ابن عمها ولا اعرف في غسان من هو اقرب نسبًا منهُ ولا أليق بمقامها فما سبب هذا البغض

قالت اما كرهها لهُ فسببهُ دناءتهُ وخساستهُ فقد عاشرتهُ اعوامًا طوالاً فلم تجد فيهِ شيئًا من انفة الرجال وكرم اخلاق بني غسان وطالما حدثتني بذلك عنهُ منذ اعوام وكثيرًا ما كنا نذكر سيئاتهِ بحضورها فلا يسعنا بعد ذلك اقناعها بنزاهتهِ وكرم اخلاقهِ

فقال جبلة لا انكر عليك ذلك يا سعدى ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا الحارث من المنافسة المستترة برداء القرابة تحت ظل المجاملة ولا ريب عندي ان رفض طلبهِ يجرُّنا الى حرب ونحن في حال تدعو الى اجتماع الكلمة لما سمعناه من اخبار الحجاز

فقالت اني موافقة لك على ما تقول ولكنني على ثقة مما قلتهُ لك واقولهُ ايضاً وهو ان اصرارنا على اقترانها بثعلبة يقودنا الى ما نندم عليهِ ساعة لا ينفعنا الندم فهي لا تحبهُ ولا ترضاه ولا يمكن ان ترضاه فهل يهون علينا ان نخسر هنداً وهي ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا أنضعها بين يدي ذلك الجبان الخسيس وهو لا يحبها قالت ذلك والدموع تتناثر من عينيها

قال اراك واثقة بعدم حبهِ لها ولو كان كذلك لم يطلبها

قالت انا متحققة ذلك مما سأقصهُ عليك في فرصة اخرى اما الآن فاني داعية هنداً اليك لتسمع كلامها شفقة لشفقة والتمس منك ان ترفق بعواطفها ما استطعت لان العنف لا يجدينا نفعاً

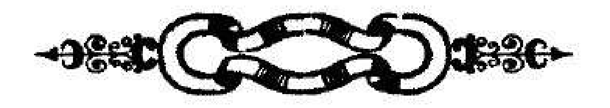
قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت غرفة هند فرأت الباب موصداً وآنست في الغرفة صوتاً فاصاخت بسمعها فسمعت بكاء يتخللهُ شهيق فعلمت ان هنداً تبكي فدارقت الباب وناديها باسمها فابطأت قليلاً ثم فتحتهُ فأدنت سعدى المصباح من وجه هند ونظرت اليها فاذا هي ذابلة الاجفان محمرة العينين كاسفة البال فانفطر قلبها لذلك المنظر المريع فوضعت المصباح على الارض وهمّت بها وجعلت تقبلها ودموعها تتساقط حنوّاً وشفقة وهي تقول لا تبكي يا ابنتي لا تبكي ولا تحزني فلا يكون الاَّ ما يسرُّك

فقالت كفاني يا اماه تعزية ومسايرة فقد سمعت غضب والدي باذني

قالت وما الذي اسمعك كلامهُ وانت هنا

قالت مررت بالباب فسمعتهُ ينتهرك وهو مصرٌّ على قولهِ وما ذلك الاَّ لتعاستي فاذا كان لا يزال على عزمهِ فاستودعك الله . قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقبلتها سعدى وقالت لقد أخطأ ظنك يا هند فان والدك يكاد يسلم معي برفض ثعلبة وهو انما ينتظر مخاطبتك في شأنهِ ليسمع الجواب من فيك فهيا بنا اليهِ فانهُ ينتظرنا في الغرفة . وارادت سعدى ان تدخل على زوجها بهند وهي باكية لعلهُ يرقُّ لها فيجاريها على مرامها.



الفصل الثامن والعشرون

موقف هائل

فاحتبت هند الانتظار برهة ريثما تجف دموعها فلم تمهلها فسارتا حتى وصلتا الغرفة وجبلة متكئ على فراشهِ وقد استبطأ امرأتهُ واحب البقاء متكئًا اظهارًا لما في نفسهِ من العتب على هند اما هي فدخلت مطرقة وقد تكسرت اهدابها وذبلت اجفانها واحمرت عيناها وتوردت وجنتاها واسترسل شعرها على ظهرها ومشت حتى اقتربت من سرير والدتها فوقفت وأسندت كتفها الى الحائط ذليلة كئيبة ولبثت مطرقة

فلما رآها جبلة على تلك الحال حنَّ لها ونسي غضبهُ ولكنهُ ما زال مكبرًا عملها فخاطبها قائلاً ما رأيك يا هند

فظلت صامتة تتشاغل باهداب ضفيرتها بين اناملها

فقال ما رأيك بابن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمهُ ارتعدت فرائصها وعاد البكاء اليها فامسكت نفسها عن الشهيق ولكنها لم تستطع امساك دمعها عن الانحدار فلما شاهد جبلة تلك الدموع تنقطر عن خديها شعر كأن قلبهُ يتقطر دمًا عليها

فقال ما بالك لا تجيبينني ونحن انما بعثنا اليك لنسمع الجواب من فيك قولي ما جوابك على طلب ثعلبة

فلم تعد تمالك عن الشهيق فتحولت من الغرفة وارادت الخروج فامسكتها سعدى بيدها وهمّت بارجاعها فألقت بنفسها الى الارض واخذت في البكاء حتى كاد يغمى عليها

فجعلت سعدى تخفف عنها واومأت الى زوجها ان يكف عن السؤال وجاءتها بماء رشتها بهِ وسقتها منهُ قطرة حتى هدأ روعها وجبلة صامت ينظر اليها وقلبهُ يكاد يتقطع وقد هان عليهِ كل صعب فقال لها قد فهمت ياهند انك لا تحبين ثعلبة فهل تحبين والدك وعشيرتك

قالت وهي تشرق بدموعها نعم احبك واحبها وان كنت ترى في تسليمي لذلك

الخائن راحة لك ولعشيرتك فاني راضية بالموت فداء عنك وعنها وهذه روحي بين يديك فافعل بي ما تشاء

قالت ذلك وترامت على والدها فضمها الى صدره والدموع تتساقط من عينيهِ رغماً عنهُ وجعل يقبلها ويخفف عنها وهو يقول لا تجزعي يا هنداني على ما تريدين فهوّني عليك واستجمعي حواسك . قال ذلك واجلسها الى جانبهِ فجلست وهي تجمع شعرها وترسلهُ الى ظهرها وكان قدمال الى الامام عند استلقائها على والدها ولما رأت في والدها هذا الانعطاف تذكرت ما لا يزال في طريقها من العقبات بشأن حماد لعلمها ان والدها سيعظم امر حماد اكثر ما أعظم امر ثعلبة فعولت على اغتنام تلك الفرصة وهو في حال الانعطاف لنيل رضاه عنها فعادت الى البكاء

فعجب لبكائها بعد مجاراتهِ لها في العدول عن ثعلبة وكان يظن ذلك كافيًا لزوال كل احزانها فلما رآها تبكي ظنها لم تفهم مراده فقال كفي البكاء فقد اغفلنا ثعلبة وطلبهُ فهدئي روعك . فلم تزدد الاَّ بكاء فادركت والدتها ما في نفسها فأومأت الى والدها ان يكف عن السؤَال هنيهة ودنت من هند وجعلت تمسح دموعها بمنديلها ونقبلها ثم امسكتها بيدها وخرجت بها الى غرفتها فلما خلت بها سألتها عن مرادها بذلك فقالت دعيني يا اماه دعيني ابكي على صباي فقد ادركتُ ما جررتهُ على نفسي من البلاء

فعلمت انها تشير الى امر حماد وما تخافهُ من غضب والدها اذا علم بحبها لهُ فقالت اشكري الله يا هند اننا قطعنا نصف الطريق بامان والله يساعدنا على الباقي

فقالت هند لم نقطع الاَّ السهل منها وقد بقي الوعر يا اماه

قالت ان الذي نجانا من ثعلبة لا يخل علينا بحماد طيبي نفسًا وقرّي عينًا

قالت لا يطيب لي عيش فقد زهقت روحي قبل ان اقطع السهل الهين وكيف وقد وصلنا الى العقبة التي لا ارجو اجتيازها فقد رأيت ما اعظمهُ والدي من امر ثعلبة وهو يعلم خساستهُ ويعتقد بانهُ ليس اهلاً لي فمن يتجرأ على ذكر حماد امامهُ وهو رجل غريب يقول انهُ لا يعرف اصلهُ ولا فصلهُ آه يا لتعاستي وسوء حظي

وكانت سعدى تعتقد مثل اعتقادها وربما خافت اكثر من خوفها ولكنها لما رأت حال ابنتها هان عليها ركوبه ذلك المركب الخشن فجعلت تخفف عنها وتنشط

آمالها وهند تبالغ في اظهار يأسها

فقالت سعدى خففي عنك وانهضي الى فراشك وعليّ تدبير ما تريدينهُ والك عليّ ان لا يصبح الصباح الاّ وقد رضي والدك بكل ما تريدين

فلما سمعت هند ذلك شعرت بانتعاش واحست كأن قلبها انفتح وقد انفرجت الازمة ولكنها استبعدت ذلك كثيرًا فالتفتت الى والدتها شذرًا وتبسمت تبسم طفل نال امرًا كان يتطلبهُ باكيًا فقبض عليهِ وهو لا يصدق انهُ نالهُ فلما رأتها سعدى في تلك الحال زادت انعطافًا اليها وابتسمت لها والدموع ملء عينيها وقالت هوّني عليك فقد قلت لك اني ضامنة لك ما تريدين ألا يكفيك ذلك

قالت يكفيني يا اماه ولكنني ارى والدي صعب المراس فلا اظنهُ يشفق على قلبي

قالت لا تستعظمي امرًا تريدينهُ والله قادر على كل شيء فاذهبي الى فراشك وها اني ذاهبة الى السعي في مرامك والله يفعل ما يشاء

الفصل التاسع والعشرون

الاستغراب

فسكن روعها وعادت اليها آمالها والفت حملها على والدتها وسكنت ثم نهضت ومشت الى الفراش وقد انهكها التعب وخارت قواها من هول ما قاستهُ تلك الليلة ولما رأت والدتها تهم بالخروج استحلفتها ان تبذل جهدها في اقناع والدها فاكدت لها الوعد وخرجت حتى اتت غرفة زوجها فاذا هو في انتظارها ليستطلعها سبب ما شاهد من هند فلما دخلت ابتدرها بالسؤَال قائلاً

انظنين هندًا تبقى على عزمها من رفض ثعلبة فقد رأيت اني جاريتها في امر ربما آل الى حرب دموية بيني وبين الحارث ولكنني فعلت ذلك مدفوعًا بشفقتي على الفتاة وانا ارجو ان اعود الى اقناعها في فرصة اخرى الا تساعدينني على ذلك

فابتسمت واظهرت الاستغراب قائلة انظنني جاريت هندًا في عملها هذا عبثًا الم أقل لك اني انما فعلت ذلك رغمًا عني وقد خفت على حياة ابنتنا ولو علمت ان

الاصرار ينفعنا شيئًا ولو بعد حين ما سمعت منها قولاً ولكنني رأيت ذلك لا يجدينا غير خسارة لا تعوض . أليست هند ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا وزهرة عمرنا اليست تعزيتنا في شيخوختنا الم نفاخر بها ملوك العرب ونفضلها على خيرة البنين اليست هي فتاة غسان ومضرب امثالهم اليست هي افرس فرسانهم واكرم كرامهم انسيت وقد رأيتها تبكي كالطفل انها تجاري فرسان غسان في حومة الميدان واذا ركبت جوادها تطاولت اليها الاعناق وحامت حولها القلوب ألم تكن هند اذا وقفت في حومة الوغى واستحثت الرجال على دفاع الاعداء انهضت هممهم واثارت حميتهم اغرّك منها ذلها وانكسارها الليلة فنسيت هندًا وما هي امثل هذه الفتاة يسهل التسليم بها لرجل لا يساوي قذة من نعلها . ثعلبة وما ثعلبة اليس هو ذلك الجبان الغر الذي رأيناه يحقد كالفيل ويحتال كالثعلب ويغدر كالعقرب انسيت يوم السباق وما كان شأنه مع ذلك الشاب الغريب يوم سبقه مرتين حتى اذا سابقه ثالثة عاد من حلبة السباق وفي يده قصبة السبق مبرية بري القلم الا تذكر انك رأيت القصبة مبرية

وكان جبلة في اثناء ذلك صامتًا وقد اعجب بفصاحة سعدى وانسجام حديثها فلما ذكرت القصبة تذكر انه رآها مبرية فقال نعم اذكر ذلك

قالت اندري سبب بريها فوالله وشرف بني غسان لو اطلعتك على سر الامر للعنت الساعة التي ولد فيها ثعلبة بني غسان ولوددت لو ان حمادًا مكانه لانه اشبه بشهامتهم وكرم اخلاقهم

فمال جبلة الى استطلاع السبب فقال وما سبب بريها فسرت سعدى لاصغاء زوجها الى حديثها فقصت له حكاية القصبة وبالغت بما اظهر حماد من الشهامة وكرم الاخلاق وما كان من دناءة ثعلبة وخساسته فلم تكد تفرغ من حديثها حتى انقبض وجه جبلة لما جرّه ثعلبة من العار على الغسانيين واحسّ بارتياح الى حماد فقال تبًا لثعلبة ورعيًا لذلك الشاب فيا ليته قتله ولم يسمعنا هذا الحديث عنه

فتبسمت سعدى من جبلة اصغاء لحديثها فقالت اما وقد فتح الحديث وجرّنا الكلام الى هذا الحد فاسألك مسألة ستكون جوابًا لسؤال سألتنيه الليلة

فقال وما ذلك

قالت أتدري ما الذي حمل ثعلبة على خطبة هند بعد ما علمته من تباعده عنها

قال وما تعنين بتباعده

قالت ألم تكن هند ابنة عمو منذ ولدت

قال بلى

قالت ألم يكن يجدر بو ان يخطبها لنفسو منذ اعوام وقد يخطب ابناء العم اطفالاً

قال بلى

قالت اتدري ما الذي امسكه عن خطبتها حتى الآن

قال وقد بهره قولها وتطاول بعنقو لاستكمال حديثها لا ادري وما ظنك بذلك

قالت لأنه يحسب نفسه ارفع منها مقامًا او لعله كان يتوقع ان نعرضها عليو فاذا قبلها اذ ذاك انما يقبلها كرمًا ومنة

قال جبلة وقد اقطب وجهة وتعاظم غضبة خسىء النذل وخسىء أبوه قبلة

قالت بل خسىء كل من يقول قولة فقد علمت ان ثعلبة لم يكن عازمًا على خطبة هند لو لم يحدث ما حرك غيرتة وهاجه على الانتقام واذا اذنت ان اكشف لك الغطاء فعلت

قال وقد مال بكليتو الى استطلاع السر نعم اني شديد الميل الى معرفة ذلك قولي

قالت ولكنني استحلفك بحبك هندًا ان تبقي على حبها وتشفق على صباها وتعذرها في ما رأيتة او تراهُ من حالها

قال لقد عذرناها من قبل فلا حاجة الى الاستحلاف

قالت انما استحلفك على امر لم تعلمة بعد

فازداد شوقًا وقال قولي لقد نفد صبري

قالت قد علمت حسد ثعلبة حمادًا على أثر ما نالة من قصب السبق عليو وقد تعاظم حسده لما رأى هندًا تلبسه تلك الدرع وهي انما فعلت ذلك بأمرك

قال نعم

قالت وقد رأيتك وانت رجل معجب بشهامة ذلك الشاب ولا يخفى عليك ان النساء اكثر اعجابًا بشهامة الرجال وخصوصًا من كانت مثل هند في مقتبل العمر

وريعان الشباب . قالت ذلك وهي تراعي ما يبدو من جبلة ولم تكن تتوقع الاّ استغرابهُ فحملق جبلة ونظر اليها والشرر يكاد يتطاير من عينيهِ وقال وماذا تعنين

قالت وهي تتردد بين ان تصرح لهُ او تبقى على الكتمان « اعني انهُ لما رأى هندًا معجبة بحماد ثارت في قلبهِ نيران الغيرة والحسد والانتقام و . . . . . »

فقطع عليها الكلام قائلاً اظنك تعنين اكثر من ذلك

فرأت سعدى ان تصرح بالحقيقة لترى ما يكون فقالت ربما اعني انهُ ظنها تحب حمادًا فاراد خطبتها ليحرمها منهُ فينتقم منهما جميعًا

فبهت جبلة وقد ارتاب من كلام سعدى بعد ما آنس من ترددها ولكنهُ استزادها ايضاحًا فقال هل كان ذلك منهُ على سبيل الظن فقط

قالت لا ادري اذا كان يتجاوز الظن

فقال اراك تدافعينني وتكتمين شيئًا آخر فافصحي عما في ضميرك

فسكتت وقد خافت التصريح

فالحّ عليها وهو في ريب من امرها وقال افصحي

فقالت وهب اني اكتم شيئًا آخر فما الفائدة من الافصاح

فادرك ان في ضميرها سرًّا تخاف افشاءهُ فرارًا من غضبهِ فقال وقد اشتد قلقهُ وحمي غضبهُ قولي افصحي فهل علمتِ يقينًا ان هندًا تحب ذلك الشاب

فاطرقت ولم تجب ولكنها اشارت بكتفها وحاجبها انها لا تعلم

فقال .١ بالك لا تجيبين ألعلها تحبهُ

فنظرت اليهِ وقد عولت على التصريح فلما رأت تقطب حاجبيهِ وحملقة عينيهِ خافت اشتداد غضبهِ فنهضت وتظاهرت بتأجيل الحديث الى وقت آخر وقالت وهي تهمُّ بالخروج « لا اعلم وسأبحث عن ذلك واخبرك »

فامسكها بيدها واقعدها وقال لها يكفي مدافعة فانك تعلمين فقولي ولا حاجة الى التسويف بعد ان فهمت ما فهمتهُ من خلال حديثك

فقالت فاذا كنت قد فهمت فلماذا تستعيدني ما قلتهُ

قال اذن هي تحبهُ وتريد الاقتران بهِ

قالت ربما كان ذلك . واعرضت عن جبلة متشاغلة باصلاح فراشها واظهرت

عدم الاكتراث

فحمي غضبهُ وامسكها بيدها وجذبها اليهِ بعنف وقال ما بالك تستخفين بغضبي كأنك لا ترين في الامر ما يستحق الاهتمام الا يهمك ان نقترن ابنتك برجل غريب لا نعرف أصلهُ ولا فصلهُ وقد يكون من السوقة

فنظرت اليهِ عاتبةً لما اظهره من العنف وقالت بصوت منخفض وهذا الذي حملني على الكتمان لعلمي انك ستتلقى الخبر بما اعلمهُ من تعلقك بشرف الغسانيين وانكارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم على ان حمادًا ليس من السوقة بل هو من امراء العراق بني لخم

فخجل لما كان من خشونتهِ في خطابها والغضب يمنعهُ من الاعتذار ولكنهُ أمسكها بلطف وقال لها ألا تنكرين انت ذلك ايضًا . وهبي انهُ امير فبيننا و بين العراقيين عداوة لا تؤذن بالمصاهرة

قالت لا اخفي عليك اني استعظمت الامر عند سماعه لاوّل وهلة ولكنني تلقيتهُ بالحكمة والصبر لارى حيلة في تدبيره ولو علمت انت حال هند كما علمتها انا لفعلت مثل فعلي ولكن ما الفائدة من الكلام وقد نسيت حنوّك وشفقتك فافعل ما تشاءُ واذا ماتت هند فاللوم لاحقٌ بك . قالت ذلك وهي تنظر اليهِ والدموع ملءُ عينيها

فلما شاهد ذلك منها سكن غضبهُ وصبّر نفسهُ ونظر اليها بطرف يكاد يدمع وقال وما الحيلة التي ترينها والحال كما قلت

قالت اذا اذنت ان ننظر في الامر بعين الحكمة دبرت لك حيلة ينصرف بها هذا المشكل على اهون سبيل والاَّ فالامر لك

فبهت وقال ما الرأي قولي

فجلست الى جانبهِ وخاطبتهُ باهتمام قائلة أما الرأي فهو ان نتظاهر بالرضاء عما ارادتهُ هند ثم ندبر حيلة نتخلص بها من حماد لا يكون فيها ضغط على عواطفها .

فقال وكيف ذلك

قالت سأُخبرها غدًا ان حمادًا اذا طلبها منك لا تمنعهُ منها ثم ابين لها ترفع مثلها عن الاقتران برجل غريب لم يثبت لنا نسبهُ وهي لا تنكر ذلك ثم احبب اليها ان يعمل عملاً نقترحه عليهِ يكون لهُ به فخر يغنيه عن النسب فاذا قبلت ولا اظنها

الاّ قابلة لعلي بعزة نفسها اقترحنا على حماد امرًا يقرب من المستحيل فاذا استطاعه كان اقترانه بهند امرًا مقضياً من الله سبحانه وتعالى فلا مندوحة لنا عن القبول به

فارتاح جبلة الى هذا الرأي وسأَلها عما تنوي اقتراحه فقالت سننظر فيه ونقرّ عليه ريثما يتبين الوقت

فسرّ لتعقلها واثنى على ما أظهرته من الروية والحكمة فقالت له عند ذلك دعني اذهب الى هند واطمئنها لئلاَّ تقضي الليلة ساهرة فتعود الى الضعف قالت ذلك وخرجت فرأت هندًا في انتظارها على مثل الجمر

اما هند فلما رأت والدتها قادمة نهضت لملاقاتها وهي تنظر الى وجهها تتفاءل بما تقرأه عليه من آيات البشر فرأتها تبتسم فسكن بلبالها فاستطلعها الخبر فطمأَنتها وأكدت لها ان والدها لا يمانعها في ما تريد فلم تصدقها حتى اقسمت بحبها لها فانبسط وجهها ولم تتمالك عن الابتسام وكان سرور والدتها اكثر من سرورها ولكنها ما زالت تتكر في الحيلة ثم ودعت ابنتها وخرجت ولم تنم هند تلك الليلة من شدة الفرح

الفصل الثلاثون

اليأْس من وجود عبد الله

تركنا حمادًا في انتظار خبر والده وسلمان يتردد الى بصرى وضواحيها يسأَل عنه حتى يئسا من العثور عليه هناك فقلق حماد لذلك كثيرًا وخاف من سوء يصيبه وكان سلمان في مثل قلقه فعاد ذات يوم من بصرى وكان قد ذهب اليها للبحث عن سيده ولم يقف له على خبر فوصل خيمة حماد فرآه غارقًا في بحار الهواجس فلما دخل ناداه حماد ما وراءك يا سلمان

قال ما زلت على ما فارقتني ولا اراني قادرًا على الصبر بعد هذا الانتظار فأْذن لي بالمسير الى بيت المقدس او عمان للتفتيش عن سيدي فقد مللت الانتظار

فقال حماد ألا ترى ان أسير انا معك

قال لا حاجة الى ذهابك فامكث هنا ريثما اعود

فقال هل تسير الى بيت المقدس ام الى عمان

قال أرى ان أسير الى بيت المقدس أتتبع خطوات سيدي منها حتى أقف على خبره فضلاً عما في الطريق من هنا الى عمان من الاخطار التي لم ننسها بعد

قال سر بحراسة الله ولا تطل الغياب فاني في انتظارك وانت تعلم حالي من القلق

فودعه وخرج على جواده وقد لبس ثياب السفر وسار قاصدًا بيت المقدس فوصلها بعد ايام فجال في شوارعها حتى انتهى الى خان علم من قيافة صاحبه انه عربي فدخل والتمس مبيتًا عنده فأعد له غرفة نزل فيها وارسل جواده الى الاسطبل ثم بدل ثيابه وجاء الى صاحب الخان فجلس اليه وجعل يحادثه في مواضيع مختلفة حتى تطرق الى حكاية هرقل وما كان من مجيئه الى هناك فآنس في الرجل علمًا ببعض الحكاية فقال له وهل رأيت القيصر يوم مجيئه

قال رأيته مارًا بموكبه يوم وصوله ثم تراكمت علينا الاشغال لتقاطر اهل القرى والبلاد الى بيت المقدس لمشاهدته

فقال وهل يرد عليكم كثير من العرب ام كل زائريكم من الروم والسريان واليهود من اهل هذه البلاد

قال قلما يرد علينا قوافل من العرب اما في هذا العام فقد جاءنا كثير منهم

فقال وما سبب ذلك

قال لان القيصر بعث الى امير من امراء الحجاز يقال له أبو سفيان فجاء برجاله وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعًا في هذا الخان ومكثوا مدة بيننا فانتفعت المدينة بقدومهم لما يبتاعونه من الطعام لهم والعلف لخيولهم ويظهر انهم من اهل الرخاء خلافًا لما تعودناه من فقر اهل الحجاز وقلة اموالهم كما هو مشهور من جدب ارضهم

فقال سلمان كثيرًا ما سمعت بابي سفيان هذا وعهدي به من اعظم امراء مكة وانه كثيرًا ما يقدم برجاله الى الشام وضواحيها للاتجار

فقال ولكنه قلما يأتي بيت المقدس اما في هذا العام فقد جاء بأمر من الامبراطور

قال وما الذي دعا الامبراطور الى استقدامه ومن يكون ابو سفيان حتى يهتم امبراطور الروم باستدعائه

فأحكى له حكاية الكتاب الذى ورد على هرقل وما كان من امره حتى انتهى الى سفره من بيت المقدس

فاراد سلمان ان يستطلع خبر سيده فقال اظن العرب الذين يأتونكم كلهم او اكثرهم من الحجاز وبندر ان يأتيكم احد من اهل العراق .

وكان الخاناني قد علم من لهجة سلمان انه عراقي فقال كثيرًا ما يأتينا تجار من العراق ايضًا ولكن قدومهم يكون غالبًا في أزمنة المواسم والاعياد عند ما يكثر الواردون الى القبر المقدس لان الناس يحجون الى اورشليم من جميع اقطار العالم فيأتي الباعة والتجار من سائر البلدان ايضًا لعرض سلعهم وبضائعهم واهل العراق يحملون الينا مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه وشيئًا من محصولات العراق كالتمر وغيره

فقال وهل جاءكم أحد منهم في هذه الاثناء

قال رأيت كثيرين ولكن لم ينزل منهم احد عندي الاّ اميرًا جاءنا يوم سفر ابي سفيان وسار معه

فتوسم سلمان من ذلك خيرًا فقال وهل عرفت اسم ذلك الامير

قال أظنني سمعتهم ينادونه عبد الله

فتحقق سلمان انه سيده بعينه فقال هل تعرف شيئًا عن هذا الامير بعد سفره

فأطرق الخاناني هنيهة ثم قال لقد أذكرتني من شأن هذا الامير ما ينفطر له القلب

فاقشعرّ بدن سلمان عند سماعه ذلك حتى ظهر الارتباك على وجهه وتطاول بعنقه نحو الخاناني وقال لقد شغلت بالي يا اخا العرب بما أشرت اليه فهل اصيب الامير عبد الله بسوء

قال كلاّ لم اسمع عنه شيئًا من هذا القبيل ولكنني علمت انه اصيب بفقد ولد له اكلته السباع في مسبعة الزرقاء

فعجب سلمان والتفت الى الخاناني باهتمام وقال اعترف لك يا سيدي ان امر هذا الامير يهمني كثيرًا لانه سيدي وانا انما جئت للتفتيش عنه فهل تتفضل بتفصيل حكايته وما تمّ له ومن انبأه بقتل ابنه

قال لا أخفي عليك شيئًا اعرفه من هذا القبيل فقد جاءنا هذا الامير يوم سفر

أبي سفيان ولحظت انهُ سار في ضيافتهِ فلما خرجت القافلة ارسلت معها بعض خدمة الخان ليشيعوها لعلها تحتاج الى ارشاد في اختيار بعض الطرق دون غيرها وكان مع القافلة جواد عثروا عليهِ شاردًا في بعض السهول أثناء مجيئهم الى الشام فلما همت القافلة بالمسير قدّم ابو سفيان ذلك الجواد للأمير عبد الله ليركبهُ فلما رآهُ هذا عرفهُ انهُ جواد ولدٍ لهُ كان قد فارقهُ في بعض جهات الزرقاء فالتبس عليهِ أمر الجواد وفراره وأحكى حكايتهُ هذه لابي سفيان فرافقهُ هذا مع بعض رجالهِ الى المكان الذي رأوا الفرس فيهِ بالغني انهم عثروا على بقايا فرسٍ آخر تحت شجرة واشياء اخرى استدلوا منها على ذهاب الغلام فريسة السباع فبكى ذلك المسكين بكاء مرًّا وادب ابنهُ وبالغ ابو سفيان بتعزيتهِ فلم يتعزّ

وكان سلمان أثناء هذه الحكاية مصغيًا وقلبهُ يخفق فلما وصل الخاناتي الى هذا الحد أحس سلمان بقشعريرة وقف لها شعره وقال للرجل وماذا تمّ لهُ بعد ذلك

قال سمعت انهُ لما تحقق موت ابنهِ لم يعد يحلو لهُ الذهاب الى منزلهِ في بصري فسار مع القافلة الى الحجاز

فقال سلمان وهل تحققت انهُ سار الى الحجاز

قال هذا ما سمعتهُ ولا أدري اذا كان قد عدل عنها بعد ذلك

فقال سلمان وقد ظهرت البغتة على وجههِ اني اعترفت لك باهمية هذه الحكاية عندي واشكر الله لنزولي عليك حتى سمعت هذا الحديث منك ولكنني أرجو ان تزيدني ايضاحًا ما استطعت

فقال الخاناتي لقد رأيت من اهتمامك وظهور البغتة على وجهك ما حرّك في الاهتمام لمعرفة مصير هذا الامير فلندعُ المكاري الذي قص الخبر عليّ بعد عودتهِ لعلهُ يزيدنا ايضاحًا قال ذلك ونادى المكاري وكان مشتغلاً ببعض شؤون الخان فجاء فسألهُ عما يعلمهُ من تفاصيل حكاية عبد الله

فاحكى القصة كما قالها الخاناتي مع بعض التفصيل حتى انتهى الى مسير القافلة بعد الرجوع من مسبعة الزرقاء فقال رأيت ذلك الامير عائدًا على قدميهِ يحمل سيف ابنهِ وعباءتهُ وكان قد عثر عليهما عند ضفة غدير هناك فاستأنس بهما واشتم رائحة ابنهِ منهما واما الجواد فكان مسوقًا وراءه كئيبًا كأنهُ عالم بمصير صاحبهِ فلما

وصلوا الى الطريق دعاه أبو سفيان للمسير معهُ الى الحجاز او ان يوصلهُ الى منزلهِ في بصري فقال انهُ لا يريد العود الى بصرى ثم تردد في الذهاب الى الحجاز ولكنهُ رافقهُ وساروا جميعًا وعدنا نحن ولا نعلم ما تمَّ لهُ بعد ذلك

فقال سلمان ألم تسمعهُ يذكر عمان وعزمهُ المسير اليها

قال لا أذكر اني سمعتهُ يقول شيئًا من هذا القبيل

فبهت سلمان برهة يفكر في ما سمعهُ وقد علم ان سيدهُ لا يصبر على ما ظنهُ من ذهاب حماد فريسة للسباع وخاف ان يكون قد حملهُ ذلك على مهاجرة الشام والمسير الى الحجاز مع أبي سفيان ولكنهُ رأى ذلك اذا فعلهُ سيدهُ لا يخلو من المسارعة وهو يعلم ان عبد الله عاقل لا يأخذ الامور بظاهرها فلبث برهة يفكر ثم استأذن الخاناتي في الذهاب الى غرفتهِ لينبصر في الامر بعد ان شكرهُ لما قصهُ عليهِ

فلما خلا في غرفتهِ اخذت تتقاذفهُ الهواجس وهو يفكر في الامر وقد انقبضت نفسهُ خوفًا مما قد يصيب سيدهُ من عواقب اليأس وعظم عليهِ الرجوع الى حماد بهذا الخبر المشوم فضلاً عن انهُ لا يفيدهُ شيئًا فقضى بقية ذلك النهار وطول الليل في مثل هذه الهواجس فلاح لهُ بعد اعمال الفكرة ان يتبع خطوات سيدهُ بنفسهِ فيسير الى عمان لعلهُ يقف على ما يجلو لهُ الحقيقة

فلما اصبح سار الى الخاناتي واطلعهُ على عزمهِ واستأذنهُ في مسير ذلك المكاري معهُ فاطاعهُ فركب سلمان والمكاري في ركابهِ وكلما مرَّا بمكان احكى لهُ المكاري واقعة حالهِ حتى تجاوزا طريق المسبعة ووصلا الى النقطة التي عاد المكاري منها فقال سلمان الا تسير معي الى عمان لعلنا نسمع هناك خبرًا جديدًا

قال اني في ركابك الى حيثما تريد ولكنني سمعت منذ ايام ان بالقرب من عمان جماعة من قريش جاؤوا لمحاربتنا فلا نأمن اذا رأونا ان نقع في ايديهم غنيمة باردة

فتذكر سلمان انهُ سمع مثل ذلك قبل خروجه من بصرى ايضًا فتردد في الامر ولكن نفسهُ لم تطاوعه على الرجوع قبل الوصول الى عمان فقرَّ رأيهُ على الذهاب اليها من طرق مجهولة لا يطرقها الاَّ القليل من الناس والمكاري يعرفها فسارا حتى انتهيا الى عمان فلم يجدا فيها اثرًا ولا خبرًا

فعاد سلمان يعسًا حزينًا لا يدري كيف يقابل حمادًا بهذا الخبر الابتر على انهُ كان يتوهم ان سيده ولو اطاع عواطفهُ في حال تأثرها وسار الى الحجاز لا يلبث ان يهدأ روعهُ ويعود الى البلقاء للبحث عن ابنهِ ولا اقل من يرجع الى بصرى بعد ان عني عنهُ فيتفقد ما اذخروه من المال والمثمنات في منزلهم بغسام ·

فقضى سلمان طول الطريق في عودتهِ وهو يفكر في ذلك وكثيرًا ما حدثتهُ نفسهُ ان يتأثر سيده الى الحجاز لو لم يعترضهُ الشك في مسيره اليها وعوّل اخيرًا على الرجوع الى حمادٍ والمداولة معهُ في هذه الشؤون فاذا تحقق ذهابهُ الى الحجاز سار للتفتيش عنهُ فيها

فلما وصلا الى منعطف من الطرق يؤدي الى البلقاء رأسًا اثنى على المكاري واكرمهُ وودعه وسار قاصدًا حمادًا

الفصل الحادي والثلاثون

حمّـاد في خيمته

لم يكد يتوارى سلمان عن حماد يوم خروجه الى بيت المقدس حتى أحسّ حماد بالوحشة لانفراده في تلك الخيمة بعيدًا عن حبيبتهِ قلقًا على والدهِ فجلس يفكر في ما مرّ بهِ ذلك العام من الاهوال وما رآه من حوادث الايام وتذكر حالهُ قبل قدومهِ البلقاء يوم كان خلي البال لا يعرف الهواجس فعلم ان السبب في ذلك كلهِ الحب فتذكر هندًا وما نالهُ من رضاء والدتها فرقص قلبهُ طربًا ونسي ما ينتابهُ من الشواغل والحب مع ما وصفهُ بهِ امام العاشقين بقولهِ

فعش خاليًا فالحبُّ راحتهُ عنىً * فأولهُ سقمٌ وآخرهُ قتلُ

فهو اذا رضي الحبيب تعزية للمحبين ينسيهم الهموم ويخفف عنهم الاحزان

فلم يكن لحماد تعزية في غربتهِ وهواجسهِ الاّ رضاء حبيبتهِ فاذا تراكمت عليهِ الاحزان تذكرها وتصوّر قربها فتنتعش جوارحه وتثوب اليهِ آمالهُ فينجلي صدره وتنبسط نفسهُ

فلبث في خيمتهِ برهة يتردد بين اليأس والرجاء ينقبض تارة و ينبسط أخرى حتى كان المساء فسمع خوار ثور بين الخيام فعلم ان مضيفهُ عائد من مرعاه فحسد اسذاجتهِ وقلة شواغلهِ ولبث يفكر في أمرهِ وود لو انهُ في مثل حالهِ خلي البال قليل البلبال لا يهمهُ من دنياه الاَّ ما يرجوه من غلة ارضهِ او نتاج ماشيتهِ ولكنهُ تذكر ان ذلك الشيخ لا يعرف الحب ولا شعر بلذتهِ فخيل لهُ انهُ اشبه بالحيوان الاعجم منهُ بالانسان

وفيما هو يتأمل سمع وقع خطوات بالقرب من الخيمة علم من خفتها انها خطوات الشيخ لأنهُ كان لا يمشي الاَّ حافيًا فاحتفر لاستقبالهِ فاذا بهِ قد دخل الخيمة والمنجل لا يزال في يدهِ وقد كسا لحيتهُ وعمامتهُ الغبار وانفتح قميصهُ عن صدره فبان الشعر متجعدًا كأنهُ نبت الربيع يعانق بعضهُ بعضًا فلما رآه حماد وقف لهُ وحياه اكرامًا لشيخوختهِ فالقى الشيخ المنجل عند باب الخيمة ودخل وعلى وجههِ ملامح البشر حتى كاد يبتسم وكان قد عاشره اياماً لم يرَ ثغره باسماً قط على انهُ قلما رآه منقبضًا او مهتمًا فلما رآه يبتسم احسَّ بارتياح وسرور ودعاه الى جانبهِ واخلى لهُ مجلسًا على البساط فابى الجلوس الاَّ على الارض فجلس وهو يحك احدى كفيهُ بالاخرى لينتزع ما لصق بهما من التراب فلما تفتت التراب عنهما جعل ينفض لحيتهُ البيضاء لينزع عنها ما علق بها من الاتربة

فبدأ حماد بخطابهِ قائلاً كيف انت اليوم ايها الشيخ ارجو ان تكون في خير وعافية

فنزع الشيخ عمامتهُ وتشاغل بنفرها لينفض غبارها وقال نحمد الله على خيراتهِ فقد سرني اليوم ان بقرتي ولدت عجلاً ابلق ولا يمضي عليهِ العام او العامان حتى استخدمهُ في الحراثة فيغنيني عن تربية البنين وهمومهم

فعجب حماد لسذاجة البداوة وقلة هموم اهلها فاراد مداعبتهُ فقال لهُ ايكفيك من دنياك رعاية الماشية وتربية العجول والغسانيون متمتعون بالسلطة والسيادة وكان حماد عالمًا بما يتقوله الانباط على الغسانيين كما تقدم

فضحك الشيخ مستهزئًا وقال لا يغرنك من دنياك يوم نعيم فانها لا تحسنُ يومًا حتى تسيء اياماً فلا تفرح للحارث الغساني من اجل يوم استبدَّ فيهِ فقد جاءه من ينزع عنهُ السيادة و يلحقهُ باجداده اصحاب سيل العرم الذين انما جاؤونا فرارًا من الفقر بعد ان كانوا يقيمون في ارض تستقي من مستنقعات يجمعونها من مياه الامطار وراء

سد من حجر فلما انهدم السد سال الماء فاغرق السهول ولم يعودوا يستطيعون بناء السد لضعفهم وقلة تدبيرهم فاجدبت ارضهم ففروا في جملة من فرّ منها الى هذه البلاد منذ قرون متطاولة وقدّر لهم الملك عن غير استحقاق فجاءهم الآن من ينزع الملك منهم ويكسر شوكتهم ويعلمهم ما لهم وما عليهم

فعلم حماد ان الشيخ يشير الى حكاية سيل العرم في جهات اليمن وما كان من تفرق بني قحطان بعده والغسانيون في جملتهم ولكنه لم يفقه ما اراده من قوله بقرب زوال ملكهم فقال له وما تعني بزوال ملكهم ونحن لا نزال نزدادون الاّ قوة ومنعة

قال ألم تسمع بالعدنانيين الذين قدموا من الحجاز في هذه الاثناء فقد جاؤوا جماعة كبيرة ليقتصوا من الغسانيين ويبيدوهم عن آخرهم

فقال وما اوجب الاقتصاص واي علاقة بينها والحجاز على مسافة ايام من الشام والناس هناك في شاغل باصلاح دينهم فقد ظهر فيهم من يدعوهم الى دين الله وقد سمعت بانه انشأ فيهم دولة جديدة دانت لها كل بلاد العرب فاهل الحجاز في شاغل عن هذه البلاد

فضحك الشيخ وقال كل ذلك من تدبير الله . واما ما اوجب مجيء العدنانيين فهو وقاحة الحارث الغساني وكبرياؤه فقد انبأني بعض المارين من هنا ان نبي قريش الذي ذكرته كتب الى الحارث كتاباً يدعوه فيه الى دينه فبدلاً من ان يقرأهُ ويتأمله ويرد الرسول ردًّا جميلاً مزق الكتاب واهان الرسول فشق ذلك على صاحب الرسالة فانفذ جندًا لحرب الحارث وفتح بلاده

فاهتم حماد بذلك الخبر كثيرًا لعلمه ان الحرب اذا قامت عرقلت مساعيه وحالت بينه وبين ما يريد فضلاً عما يخافه على هند من الخطر لان جبلة لا بد له من نصرة ابن عمه الحارث على انه لم يكن يخاف انهزامهم او خذلانهم لما كان يتوهمه من ضعف اهل الحجاز وقلة خيراتهم كما هو مشهور عن تلك البلاد منذ القدم ولكن خوفه على هند من عواقب الحرب همه كثيرًا فلبث برهة يفكر في امره ثم قال للشيخ وهل انت واثق بمجيء هؤلاء الحجازيين

قال لا ريب عندي من ذلك

قال الملك سمعت الخبر عن ثقة

قال سمعته من خبير وهمني أمره كثيرًا حتى تحققته اذ يسر في خذلان الغساسنة فقد قلت لك انهم اعداؤنا . وكان ذلك الشيخ النبطي يظن حمادًا يفرح بسقوط دولة بني غسان لانه من لخم ولم يدر من له في صرح الغدير

فلبث حماد صامتًا لا يدري ماذا يعمل وتذكر سلمان و والده فتراكمت همومه فالتفت الى الشيخ فاذا هو قد ذبلت عيناه وغلب عليه النعاس شأن المشتغلين مثل شغله على خلو بالهم وخصوصًا من كان في مثل سنه فانك بينما انت تخاطبه في شأن لا تلبث ان تراه ينام فتركه حماد واشتغل بهواجسه

ثم أفاق الشيخ مذعورًا لصوت ثيرانه وهمّ بالخروج من الخيمة وهو يقول لقد تقاتل الثوران فخرج حماد في اثره وكان الليل قد سدل نقابه فسارا حتى دنوا من مربط الثيران فاذا هي لا تتقاتل ولكنهما شاهدا بينها جملاً غريبًا فتقدم الشيخ اليه وامسكه بعنقه وابعده عن ثيرانه حتى دنا به من نار موقدة يستضاء بها وحماد يراعيه بعينيه ولم يكد الشيخ يتأمل ذلك الجمل حتى ضحك وقال وهذه ناقة من نوق اهل المدينة قد تخلفت عن جند الحجاز الذي قلت لك انهم جاؤوا لحرب الغسانيين

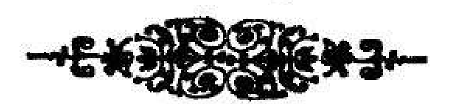
فقال حماد وما الذي دلك على ذلك

قال دلني عليه شكل الرحل فانه خاص باهل المدينة وكثيرًا ما رأينا من امثال هذه النوق مارة بنا الى الشام وغيرها

فقال حماد يظهر ان هؤلاء العدنانيين قد اصبحوا على مقربة منا

فقال الشيخ لا أظنهم قريبين فقد يكون بيننا و بينهم مسافة ايام ولعل هذه الناقة قد تاهت منذ بضعة ايام قال ذلك وهو يعقلها و يأتي لها بالعلف

فتركهُ حماد وعاد الى خيمته وقد تمثل له الامر بجسامته فعظم عليه ان يذهب أمله ادراج الرياح لاشتغال جبلة بالحرب فشعر باحتياجه الى سلمان فصبر نفسهُ ريثما يعود اليه بخبر والده



الفصل الثاني والثلاثون

سلمان وأخباره

وبعد ايام عاد سلمان كاسف البال لخيبة مسعاه في التفتيش عن سيده وكان حماد قد ملّ الانتظار فاستطلعهُ كنه ما علمهُ فاحكى لهُ ما سمعهُ ثم قال يلوح لي ان سيدي رافق أبا سفيان الى الحجاز اذ يظهر مما سمعتهُ انهُ تحقق خبر مقتلك فلم يبق لهُ وطر في الحياة ولعل ابا سفيان حبب اليهِ السفر ورغبهُ في المسير الى الكعبة فجاراه

فقال حماد لا أظنهُ يفعل ذلك قبل ان يأتي بصرى ويستخرج الخباة التي خبأناها في غسام

فقال وما أدرانا انهُ لم يأتِ اليها بعد ان استخرجناها او لعلهُ أرسل من يبحث عنها فلم يظفر بها وعلى كل حال ان سيدي ليس في فلسطين ولا البلقاء ولا عثرت عليهِ في عمان ويؤخذ من مجمل ما سمعتهُ انهُ سار الى الحجاز فهل تأذن لي في الذهاب الى مكة للتفتيش عنهُ

قال لو كنّا على يقين من ذهابهِ اليها لسرت انا بنفسي ولكننا انما نرجم بالغيب وزد على ذلك اننا في حال تدعو الى القلق من امر الحرب المنتظرة بين الحجاز بين والغسانيين وقد سمعتك تشير اليها في أثناء حديثك وكنت في ريب من امرها مع اني سمعتها من شيخنا النبطي منذ ايام

فقال سلمان أما مجيء هؤلاء الرجال فلا شك فيهِ لاني شاهدت معسكرهم شهادة عين بجوار عمان واما سيدي فالارجح انهُ سار الى الحجاز او لعلهُ أُصيب بما عاقهُ عن المجيء الى بصرى ولا يلبث ان يأتي اليها فاذا لم نرهُ بعد ايام علمنا انهُ سار مع أبي سفيان الى مكة

فلم يرَ حماد بدًّا من التربص لما سيظهر من هذا القبيل ولكنهُ عاد الى أمره مع هند وما عسى ان يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف ان يتغلب الفتور على قلبها فيذهب سعيهُ هدرًا

فقال عليك يا سلمان ان تتردد الى بصرى لعلك تسمع شيئًا عن والدي ولا

تنسَ البحث عن هند ووالدها فقد علمت ما دام الغسانيين من امو الحرب على حين غفلة وإخشى اذا حي وطيسها ان تذهب آمالنا كلها ادراج الرياح

فقال سلمان والقلق ظاهر على وجهه وما ادراك انني غافل عن هذا الامر وهو شاغل فكري ليلاً ونهارًا وكنت عازمًا على استئذانك في الذهاب الى بصرى في صباح الغد فقد سمعت الناس يتقوّلون اقوالاً لم اصدقها

فبغت حماد وقال وماذا عسى ان يكون نقولهم وعمن يتقولون قل ما الذي سمعتهُ

قال لم أسمع شيئًا يوجب قلقًا لاني على يقين من حب هند وثباتها في حبك

فازداد حماد اندهاشًا وقال هند? وما شأن هند وماذا يتقوّل الناس عنها قل يا سلمان

قال هدئ روعك فاني لا اخفي عنك شيئًا وخصوصًا ان ما سمعتهُ لا يوجب قلقًا ولا يجرُّ الى خوف

فقال حماد وقد نفد صبره قل ماذا يقولون

قال سمعت الناس يتحدثون في بصرى وضواحيها ان ثعلبة طلب الاقتران بهند

فلما سمع حماد اسم ثعلبة مقرونًا باسم هند وقف شعره واقشعرّ بدنهُ وقال وكيف طلب ذلك ومتى

قال سمعت انهُ طلبها بواسطة والده الحارث وان والدهُ خاطب جبلة فوعده

فصاح حماد وبماذا وعده .....

قال سلمان وهو يبتسم ما لي اراك قليل الصبر خفف عنك واصغ الى ما اقول فقد عهدتك صبورًا حازمًا

قال اني صبور على كل شيء الاّ على هند قل ما كان وعده

قال وعده بمخاطبة الفتاة او بالحري بمشاورة والدتها اذ لا تجهل ان اقتران البنات قلما يتوقف على ارادتهنّ

فقال حماد وماذا كانت النتيجة

قال لم أتحقق الخبر بعد فقد قال بعضهم انهُ خاطبها ولم تقبل وقال آخرون انهُ لم يخاطبها بعد ولكن صديقًا لي من اهل بصرى صادقتهُ على أثر هجوم ثعلبة على منزلنا يوم قبضوا على سيدي الامير واظنهُ أعلم الناس بحقيقة الواقع انبأني امس وقد

لقيتهُ في الطريق بجوار بصرى ان الحارث استبطأ جواب جبلة بشأن هند فسار اليو ثانية يستعجلهُ في الجواب على أثر قدوم هؤلاء الحجازيين لانهُ يريد التعجيل في الاقتران قبل انتشاب الحرب

فخفق قلب حماد كمن أخفق مسعاه ووقف وقد امتقع لونهُ وقال ما هذه الاحاديث يا سلمان فاني اراني في حلم انظن آمالنا ومساعينا قد ذهبت عبثًا وهل ترضى هند بابن عمها ثعلبة . قال ذلك والدمع يكاد يتناثر من عينيهِ

فانقدت الشهامة والغيرة في قلب سلمان وهمَّ بحماد فضمهُ الى صدره وقال لهُ خسيء الندل ان هندًا أرفع من ان تدنس قلبها بمحبتهِ وانت اعلم مني بانفتها وعزة نفسها وكرهها لثعلبة ويلوح لي ان البطء في جوابها ناتج عن تمنعها

فانتعش حماد لذلك الكلام ولكنهُ ما زال خائفًا من ان تؤخذ الفتاة قسرًا فقال حاشا لقلب هند ان يحب ذلك الخائن ولكنني اخاف ان تحمل على القبول بهِ مراعاة لعلاقة أبويها لما بينهما من النسب وما يخشى من عواقب الرفض فقد يصعب على هند ان ترفض ما يريده ابواها

فقال سلمان لا يصعب عليها ذلك ووالدتها نصيرة لها فقد آنست من هذه المرأة يوم قابلتها وانا في زي الراهب ما دلني على دهائها وقوة جنانها فهي اذا ارادت تحويل زوجها عن امرٍ لا يصعب عليها

قال حماد ومن ينبئنا ببقائها على ذلك ونحن لم نرَ من حديثها في ذلك اليوم ما يدل على اخلاصها لنا وزد على ما تقدم ان مجاراة جبلة في رفض ثعلبة لا يضمن لنا رضاه بسواه (يريد نفسهُ)

فادرك سلمان وعورة المسالك ولكنهُ أظهر الاستخفاف بهِ وقال دع ذلك اليَّ فاني ذاهب في صباح الغد لاستطلاع الخبر وتدبير الحيلة والله يفعل ما يشاء

فسكت حماد لا عن اقتناع ولكنهُ صبر نفسهُ ينتظر ما يأتي بهِ القدر



الفصل الثالث والثلاثون

وعند جهينة الخبر اليقين

وباتوا تلك الليلة وحماد لم ينم الاّ قليلاً لما تراكم عليهِ من الهواجس أما سلمان فقضى ليلتهُ يفكر في سبيل يوصلهُ الى المراد فنهض في الصباح التالي وفي نيتهِ الشخوص الى صرح الغدير لاعتقاده ان الخبر اليقين عند هند فلبس ثياب الرهبان وركب جوادهُ وسار حتى اذا أتى الصرح سأل عمن يقيم فيهِ فقيل لهُ ان جبلة برحهُ منذ ايام بعد ان جاءهُ لزيارة . فتقدم الى باب الحديقة فاستقبلهُ بعض الخدم وسألهُ عن غرضهِ فقال انهُ جاء بمهمة من رئيس دير بحيراء الى الاميرة سعدى وطلب مقابلتها فسألوها فاذنت بدخولهِ فلما خلت بهِ عرفتهُ فسألتهُ عن حماد فأنبأها بحالهِ وانهُ جاء يستطلع ما تمّ من امره فاستدعت هنداً وكانت في غرفتها تفكر في حماد وهي لا تعلم مقرهُ فلما سمعت بمجيء سلمان خفق قلبها واسرعت اليهِ وامارات البغتة تلوح على وجهها فلما رآها سلمان قام لها وسلم عليها وطمأنها عن حماد وسألها عن صحتها فطمأنتهُ وكان سلمان في أثناء الحديث يراقب حركات سعدى لعلهُ يلاحظ فيها ما كان يخافهُ من اخلافها فآنس منها ما حقق آمالهُ برضائها ولكنهُ ما زال قلقاً لما عساه ان يكون من أمر ثعلبة وطلبه فجعلوا يتجاذبون اطراف الحديث وتكلموا بين سلمان وسعدى فعلم سلمان ما كان من عدول جبلة عن ثعلبة ورضائهِ بحماد فسرّ سروراً لا مزيد عليهِ حتى رقص قلبهُ من الفرح وود لو ان لهُ أجنحة ليطير بها الى حماد يبشره بذلك

ثم قال لسعدى وما هو موعدنا من مخاطبة سيدي الملك بهذا الشأن

قالت نحن على موعد من مجيئهِ الينا بعد ايام فاذا كان يوم مجيئهِ يتقدم حماد في طلب هند فينال مبتغاه وكانت هند في أثناء ذلك مطرقة حياء لا تتكلم وقلبها يرقص طرباً . فقال سلمان ومن ينبئنا بذلك اليوم ونحن بعيدون عن هذا القصر

قالت نبعث معك من يعرف مقركم فاذا كان اليوم المعهود ارسلناه في طلبكم

قال حسناً وهمّ بالخروج فوقفتا لهُ فودعهما وخرج وهو لا يصدق انهُ سمع ما سمعهُ ولكنهُ لم يعلم بما سيقوم في سبيل سعيهِ من العقبات ورافقهُ خادم انتدبوهُ لهذه المهمة على ان يكتمها

ولا تسل عن فرح حماد بلقاء سلمان وما كان من سروره لما سمعهُ حتى تمثلت له السعادة عبدًا رقاً ونسي والده وضياعه لا عن عقوق ولكن الحب تغلب عليهِ فوعد نفسهُ بالبحث عن والده بعد ان يصير صهرًا للملك غسان فيكون اقدر على ذلك لما يرجوهُ من مساعدة عمهِ .

فلنتركه في فرحه ولنرجع الى جبلة وما كان من امره بعد رجوعه الى صرح الغدير فانهُ ما لبث ان توارى عن الصرح حتى انجلى له خطأهُ . وما كان من تهوره في مجاراة امرأتهِ بشأن حماد ولم يعلم كيف يجيب الحارث عن طلبهِ وقد عظم عليهِ ان يردَّهُ خائبًا بعد ان وعده لما في ذلك من ضعف الرأي فقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس فلاح له اخيرًا ان يكتم حقيقة الامر ويجعل جوابهُ تأجيل الخطبة الى ما بعد انقضاء الحرب على نية ان يبعث حمادًا في مهمة لا يعود منها واذا عاد انما يعود خائبًا فلا يستطيع طلبًا ولا ينال وطرًا

الفصل الرابع والثلاثون

ثعلبة

أما ثعلبة فدبر ما دبره وهو على ثقة من رضاء هند به ولو قسرًا ثم علم بضياع عبدالله وترجح لديهِ مقتل حماد مما نقله اليهِ جواسيسهُ الذين انفذهم في اثر عبدالله عند خروجه من بيت المقدس وذلك ما كان يتمناه فهمدت غيرتهُ على هند لانهُ انما طلب الاقتران بها ليمنعها من حماد فلما علم بمقتلهِ ود الرجوع عن طلبهِ لتبقى منغصة العيش فتخسر الاثنين معًا فاخذ يترقب فرصة يؤجل بها الاقتران ثم يسعى في سبيل ينتقم به من هند وكانت تحدثهُ نفسهُ انها اذا قبلت هي به اجابها بالتأجيل والوعود حتى تموت كمدًا الاَّ اذا علم بعد ذلك ان حمادًا يقتل فيعود الى طلبها

ولم يكن والده علم بحقيقة مراده فكان يستعجل جبلة في أمر الاقتران ظناً منهُ ان ذلك يسرُّ ابنهُ ويجعل عيشهُ سعيدًا فلما سمع بمجيء الحجازيين الى عمان سار بنفسهِ

الى جبلة وألح عليهِ بامر الاقتران قبل انتشاب الحرب كما تقدم ثم تواردت عليهم الاخبار باقلاع اولئك العرب من عمان وشخوصهم الى البلقاء . وبلغ ذلك ثعلبة فجاء الى والده وتداولا في اعداد المعدات وتحصين الحصون في حدود البلقاء فجرّهم الحديث الى هند والاقتران بها فاخبره والده انهُ استعجل جبلة في استجواب هند بشأن الاقتران وانهُ لا يشك بقبولها وأوعز اليهِ ان يستعد للاقتران على ابسط الطرق بلا احتفال الى ما بعد انتصارهم فيكون الفرح مزدوجًا

فصمت ثعلبة برهة كمن يفكر في أمر همهُ ثم قال ان حالنا الحاضرة يا أبتاه لا تؤذن لنا بالاحتفال كما قدمت فلا ارى ان نستعجل بالاقتران ولا بأس من تأجيلهِ حتى تنقضي الحرب . فعجب والده لجوابهِ بعد ما آنسهُ من الحاحه قبلاً ولكنهُ حمل ذلك منهُ على رغبتهِ في الحرب فاستحسنهُ وقال لهُ اراك تفضل الاشتغال بدفع الاعداء على نيل ما طالما كنت تتمناه وهي شهامة غسانية نذكرها لك

وكان الحارث يفضل التأجيل ايضًا ولكنهُ كان يلح على جبلة رغبة في إرضاء ابنهِ على انهُ خاف ان يكون في ذلك ما يسيء جبلة او يكدر العلائق بينهما فقال وماذا نجيب عمّك لو اجابنا بالقبول

قال نجيبهُ اننا في حال حرب لا تؤذن بالاقتران

قال ولكننا كنّا في مثل هذه الحال يوم جئتهُ وألححت عليهِ بطلب الفتاة وقد اعتذر اليّ بحال الحرب فاجبتهُ اننا نود الفراغ من الاقتران قبل انتشابها فكيف نعود اليهِ بهذا العذر ألا تظن في ذلك ما يحملهُ على اساءة الظن

قال لا يهمنا ساءه هذا الامر او سره فاننا نريد التأجيل

فعجب الحارث لطيش ابنهِ وتغافلهِ عن حقيقة العلائق بينهُ وبين عمهِ فقال لهُ ألا تعلم يا ولدي ان مثل هذه الظنون تسوق الى حرب بيننا وبينهُ فاذا كنت غافلاً عن ذلك فما انا بغافل وعلى كل فان المسألة دقيقة تحتاج الى دقة نظر وحسن اسلوب

فلبث ثعلبة برهة يفكر وقد انتبه لحرج المقام وكانت الغيرة والانتقام قد غشيا بصره فقال لوالده ولكن حال اليوم غيرما كانت عليهِ يوم استعجلت جبلة في الاقتران فقد كان الاعداء اذ ذاك في عمان وهم قد اقلعوا الآن من هناك وتحركوا نحو البلقاء

فاجعل ذلك سبباً للتأجيل

فرأى الحارث في كلام ثعلبة بعض العذر فعوّل على الالتجاء اليه في مخاطبة جبلة وفيما هما في ذلك جاءهما رسول من جبلة يستقدم الحارث للمداولة بشأن الحرب

فقال الحارث ها اني ذاهب الى البلقاء لأرى ما تمّ من رأي جبلة بشأن الحرب واذا خاطبني في أمر هند عمدنا الى التأجيل كما قدمنا فاشتغل انت بتدبير الجند واكتب الى الامراء ان يجمع كل منهم رجالهُ تحت رايتهِ ويتهيأ وا للحرب عند الحاجة واذا رأيت فيهم تقاعداً استحثهم واستنهض هممهم وادفع اليهم ما يحتاجون اليهِ من المال واستشر في ذلك البطريق رومانوس فانهُ قد اوعز اليّ ان اجمع عشائر غسان التابعين للواثنا ولا بد من انهُ قد كتب الى جبلة بمثل ذلك ايضاً فكن على استعداد وإن تكن حال امر اولئك الحجازيين لا تستدعي كبير اهتمام

فقال ثعلبة اني عامل على ما تريد ولكنني ارجو ان تتم ما تكلمنا فيهِ من تأجيل الاقتران فوعده بذلك وركب وركبت حولهُ رجال حاشيتهِ وسار قاصداً البلقاء



الفصل الخامس والثلاثون

جبلة والحارث

تركنا جبلة في حيرة من أمر الاقتران وتأجيلهِ وهو في طريقهِ من صرح الغدير الى البلقاء. فلما وصل البلقاء سمع بتحرك الحجازيين من عمان فقال في نفسهِ هذا عذر يساعدني على ما اريد فان زحف الاعداء الينا عذر كاف للاشتغال بهِ عن كل شاغل فكتب الى الحارث يستقدمهُ اليهِ لان البلقاء اقرب الى عمان من بصرى وألح عليهِ في المجيء وذكر في كتابهِ انهُ يريد المداولة معهُ بشأن الحرب توصلاً بذلك الى تأجيل الاقتران فسار الحارث اليهِ كما تقدم

فلما التقيا سلما وأسرعا الى خلوة تداولا فيها سرًّا

فقال جبلة قد دعوتك يا ابن العم للبحث في الوسائل التي يجب اتخاذها لدفع هؤلاء القادمين فقد علمت انهم تحركوا من عمان شمالاً فهم بلا ريب يقصدون هذه

الديار ولا يلبثون ان يأتونا وقد بعثت العيون يرافقون حركاتهم ليثبتونا بعسكرهم فاعدد رجالك وها اني قد اعددت رجالي

فقال الحارث قد شاهدت العشائر في الطريق يستعدون المسير اليكم واوصيت ولدنا ثعلبة ان يكتب الى العشائر الاخرى لتجتمع بجوار بصرى فاذا اجتمعوا وعلمنا معسكر الاعداء حملنا عليهم معًا ولا أظننا نلقى مشقة في دفعهم لقلتهم وفقرهم فقد علمت انهم حفاة الاقدام لا يلبسون الا شملات يلتحفون بها كما يفعل سائر اهل الحجاز لا يكاد يتميز اميرهم من صعلوكهم [1]

ويلوح لي اننا اذا رأينا منهم ما أتعبنا أرضيناهم بمال ندفعه اليهم ولا نظنهم جاؤنا الا طمعًا بذلك لعلمهم بخيرات الشام وغنى دولة الروم

قال ذلك ليوهم جبلة ان مجيئهم ليس مبنياً على سوء معاملته لحامل كتابهم اليه

فقال جبلة لا نرى ان نعرض عليهم ذلك الا بعد ان نرى منهم مقاومة ولكنني لا اظنهم يقفون امام جندنا يومًا واحدًا

ثم تذكر جبلة امر ثعلبة وهند فقال قد ذكرت ان ولدنا ثعلبة يهتم بمكاتبة العشائر فهل هو في بصرى الآن

قال نعم هو هناك وقد أسفت لهذه الحال التي ستحول بيننا وبين الاحتفال بزواجه بابنتنا هند

فقال جبلة (وقد سر بهذا العذر) بالحقيقة انه موجب للاسف على اني لا ارى مانعًا من تأجيل الاقتران الى ما بعد الحرب فان فرحنا اذ ذاك يكون مزدوجًا والاثنان ولدانا والامر معقود لهما منذ ولدا

فابتسم الحارث فرحًا لما ناله من تأجيل الاقتران عفوًا فقال لجبلة بورك فيك فقد كنت اميل الى ذلك واستحسنه واخشى اذا ذكرته لك ان تظن سوءًا فنشكر الله على توارد رأيينا ولا بد من ان يكون ذلك هو الصواب

فقال جبلة نعم انه الرأي الصواب وسأسير الى صرح الغدير فارى سعدى وأنبئها بما تمّ عليه الامر لئلا تكون مشتغلة في الاستعداد بعد ان خاطبتها في التعجيل على أثر تعجيلك فلا بد من ابلاغها خبر التأجيل ولا أحب ان يكون ذلك على يد احد سواي (وهو انما يريد المسير بنفسه للمداولة بشأن المهمة التي يريد ارسال حماد فيها)

---

(١) المقريزي

فقال الحارث افعل ما بدالك وفقنا الله لما فيه الخير ثم خرجا وسأل جبلة عن سار لتفقد حركات الاعداء فقالوا انه جاء فاستقدمه وعاد هو والحارث معهما الى مكان منفرد وكان الرسول ممن خالط الحجازيين واحسن تقليدهم فاختاره جبلة ليختلط بهم ويستطلع حالهم فانبأهما بانهم قاموا من عمان وساروا يريدون مؤتة عند الكرك [1] وانهم سيصلونها قريبًا

فقال الحارث أنظنهم يصلون الينا

قال جبلة ربما فعلوا ذلك . ثم تحوّل نحو الرسول فقال له وهل عرفت عددهم وقوتهم قال أظنهم لا يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل وليس معهم من العدة والسلاح الاّ شيء قليل لا يقاس بعدة رجالنا واسلحتهم

فضحك الحارث مستهزءً وقال أبثلاثة آلاف فارس جاؤنا من اقاصي الحجاز ليحاربوا الروم وجنودنا تتجاوز مئة الف [2] ومعها الخيول والسلاح

فقال الرسول وقد علمت انهم ادركوا ضعفهم وقلتهم وربما وقفوا هنيهة ريثما يستقدمون مددًا لهم من الحجاز

فقال الحارث أعلمت انهم بعثوا يستقدمون المدد

قال الرسول كلا ولكنهم تداولوا في ذلك والارجح انهم لا يفعلون فقد سمعت مداولتهم وانا جالس بين جماعة منهم كأني احدهم فقال قائل من بينهم « كيف نهاجم بلادًا لا يقل جندها عن مائة مقاتل وقد يبلغ المئتين فلنطلب المدد » فقام رجل من كبارهم اسمه عبد الله بن رواحة فقال لهم « يا قوم والله ان الذي تكرهون للذي خرجتم له خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الاّ بهذا الذي اكرمنا الله تعالى به فانما هي احدى الحسنيين اما ظفر واما شهادة » فسمعت الناس يضجون قائلين « صدق والله ابن رواحة » فلا اظنهم بعد ذلك يستمدون اهل الحجاز

فقال جبلة وهل سمعت شيئًا من اهل القرى التي مرّوا بها فلا بد من انهم تعرّضوا لهم وقطعوا اشجارهم وآذوهم

قال لم أسمع منهم تشكيًا ولقد عجبت لحال هؤلاء الحجازيين فانهم على فقرهم وما

(١) ابن الاثير (٢) السيرة الحلبية

الظاهر من ضلك احوالهم لم يوذوا احدًا من اهل القرى الاّ الذين اعترضوهم ولقد مرّ في دير بين عمان ومؤتة وسمعت حديث الرهبان بشأنهم فرأيتهم يثنون على حسن تصرفهم فقدمروا بهم ولم يكلموهم امرًا غير ما احتاجوا اليه من ماء او علف

فقال الحارث الظاهر انهم يلتمسون ثقة الاهالي حتى لا يكونوا عونًا عليهم أثناء الحرب

فقال الرسول لا اظن ذلك غرضهم ولكنني سمعت من رجل جالسته بالامس فاتخذني صديقًا وقص عليّ قصصًا كثيرة هو معجب بها عن النبي الذي قاموا بنصرته وما قاله لي انه لما خرج لوداعهم في ثنية الوداع خارج يثرب وسلم الالوية اليهم اوصاهم قائلاً « اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرّضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرًا ولا بصيرًا فانيًا ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناء » (١)

فاعجب الحارث وجلة بهذه الاقوال ثم قال الاول أما وقد اقترب هؤلاء من الملقاء فلنبعث الى دمشق نستعجل الجند الرومي وليكن لقاؤنا اياهم دفعة واحدة نصدهم ونعيدهم من حيث أتوا. فوافقه جبلة على ذلك ولكنه ما فتىء يفكر في هند وحماد وما صدق ان عاد الحارث من عنده حتى ركب قاصدًا صرح الغدير لا يصحبه الاّ فارسان فوصل القصر على غير انتظار فلما علمت سعدى بقدومه انشغل بالها ولكنها ما لبثت ان علمت بسبب مجيئه فخلا بها واطلعها على ما تمّ بينه وبين الحارث ثم قال وهل أنت على ما علمت من أمر ذلك الشاب أم تمكنت من تحويل هند عن عزمها فرجعت الى صوابها

قالت قلت لك قبل الآن ان من يحاول تحويل هند عن حماد فانه يلتمس امرًا مستحيلاً

فتنهد آسفًا لما فرط منه تلك الليلة من القبول بمشورة سعدى بشأن هند وحماد ثم قال فاليَّ بالحيلة التي وعدت بتدبيرها للتخلص من هذه الورطة



(١) السيرة الحلبية

الفصل السادس والثلاثون

قرطا مارية

قالت ارى ان نطلب اليه شيئاً صعب المنال يقدمه مهراً لهند فاذا لم يستطعه كان الجاني على نفسه وكنا براء من لوم هند وقد كلمتها بهذا الشأن فرأيت فيها ميلاً الى ذلك فهي تحب ان تعلو منزلة حماد في عيون اهلها فاذا اقترحنا عليه عملاً يعمله في سبيل الحصول عليها فانها تزداد افتخاراً به وكلما زاد ذلك العمل عظماً وخطراً

فقال وهل خاطبتها في ماهية ذلك الاقتراح

قالت كلاّ

فقال وهل عينتِ الاقتراح في ذهنك أم انت تنتظرين البحث في شأنه الآن

قالت أظنني عينته وسأعرضه عليك لعلك تستحسنه والاّ فاننا ننظر في سواه

قال وما هو قولي

قالت لا يخفى عليك ان جدتنا مارية بنت ظالم اخت هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الكندي هي جدة ملوك غسان كافة

قال نعم واعلم انها صاحبة القرطين اللذين يضرب المثل بهما

قالت لقد نطقت بالصواب نعم اياها اعني فلا يخفى عليك ان قرطيها اللذين ذكرتهما لم يلبس ملوك الارض مثلهما لان فيهما درّتين كبيضي حمام لم ير الناس مثلهما ولم يدروا ما قيمتهما (١)

قال نعم انهما ثمينتان

قالت أتدري اين قرطاها الآن

فبهت جبلة مدة ثم قال نقل لي والدي عن جدي عمن قبله ان جدتنا مارية اهدت قرطيها الى الكعبة في مكة على سبيل النذر ويظهر انها كانت وثنية ولولا ذلك لم تهد مثل هذه التحف الى الكعبة

(١) مجمع الأمثال للميداني

فقالت مهما يكن من امرها فان قرطيها لا يزالان في الكعبة (١)

قال نعم

قالت فأرى ان نقترح على حماد الاتيان بهما مهرًا لهند تلبسهما في زفافها فما قولك

فعجب جبلة بذكاء سعدى وحسن اختيارها ودقته. نظرها وتبسم وقد أبرقت اسرته كأنه رأى باب الفرج قد فتح فقال بورك فيك ونعم الرأي رأيك انه اقتراح لا يتأتى لبشر ان يأتي بمثلو لانه بعيد المنال واذا فرضنا ان حمادًا استطاعه فانه يكون اهلاً لهند فلا نمنعه منها فهل تظنين هندًا توافقنا في ذلك

قالت لا أظنها الاَّ موافقة والاَّ فيكون لنا عذر في رد حماد

قال ها قد تقرَّر الامر فحادثيه بذلك متى تشائين فاذا قبلت استدعي الشاب ونوبي عني في ابلاغه ذلك فانني في شاغل عن هذه الشؤون بما نحن فيه من امر الحرب المنتظرة

قالت حسنًا وخرجت

وكانت هند في أثناء ذلك تمشي في الحديقة وقد علمت بمجيء والدها وتيقنت انه انما جاء لهذا الشأن وخصوصًا بعد ان رأته اختلى بوالدتها فلبثت تخطر في الحديقة وقلبها يخطر في صدرها وافكارها تجول في ماذا عسى ان يقرَّ عليه القرار فلما رأت والدتها خارجة اسرعت نحوها وهمّت بالاستفهام فأومأت اليها ان تصبر ريثما يعود والدها فانه سيسرع الى البلقاء حالاً

وسارت سعدى الى الخدم فأمرتهم باعداد الطعام ثم خرج جبلة الى الحديقة متظاهرًا بالبحث عن هند فلما لاقاها قبلها وسلم عليها وهو يبش لها وعلامات الانبساط بادية على وجهه فوسمت بذلك خيرًا فمشت معه وهو يسألها عن صحتها وحالها ويحادثها بشؤون مختلفة الاَّ الاقتران فانه لم يذكره قط . أما هي فقد منعها الحياء عن ذكره

فبعد ان تناول جبلة الطعام ودَّع امرأته وابنته وعاد الى البلقاء ولم يكد يخرج من الحديقة حتى أسرعت هند الى والدتها تستطلعها الخبر .

---

(١) ذكر بعض مؤرخي الاسلام في عرض وصفه ملابس جبلة ان في تاجه لؤلؤتي قرطي مارية ولا يخفى ان ذلك لم يكن الا على سبيل التمثيل فقط اي ان يكون في تاج جبلة لؤلؤتان كبيرتان تشبهان لؤلؤتي مارية وخصوصًا انهم لم يذكروا احدًا استرجعهما من الكعبة

﴿ فتاة غسان ﴾

فأجابتها وهي تبتسم قائلة أُبشرك ببقاء والدك على عزمهِ فقد رد الحارث وابنة وقبل بحماد كما قلت لكِ ولكنهُ يرى وأرى أنا ايضاً ان نقترح عليهِ عملاً يسد ما يتقوله الناس من غموض أصلهِ وفصلهِ . فانهُ كما لا يخفى عليك بطل باسل لا يرى الواشي سبيلاً الى الطعن فيهِ الاَّ من جهة نسبهِ فاذا عمل عملاً تفرَّد هو فيهِ كان ذلك داعياً الى رفع منزلتهِ وسكوت الناس عن الطعن في اصلهِ

وكانت هند قد سمعت مثل ذلك من والدتها قبلاً فقالت ان ذلك يا أُماه مما يوجب لي الفخر ايضاً واعلم ان حماداً لا يتوقف في سبيل هند عن عمل يستطيعهُ الناس فهل قرَّ رأيكما على اقتراح تقترحانهِ عليهِ

قالت لقد رأينا ان يكون في اقتراحنا ما يرفع بهِ رأسك فضلاً عن شرفك

قالت وما هو

قالت رأينا ان نطلب اليهِ الاتيان بقرطَي مارية من الكعبة . وحكت لها حكايتها فبهتت هند برهة وقد هالها ذلك الاقتراح ولكن انفتها منعتها من اكباره فقالت لا أظن حماداً الاَّ نائلاً ذلك باذن الله

قالت هلمَّ بنا نستقدمهُ ونعرض عليهِ الامر

فلما سمعت باستقدامهِ رقص قلبها فرحاً بلقياه وقالت استقدميهِ والاتكال على الله قالت ذلك وقد شغلها الفرح بقرب مشاهدتهِ عن تقدير تلك المهمة حق قدرها

فنادت الخادم الذي رافق سلمان الى مقر حماد واوعزت اليهِ ان يستقدمهُ الى الصرح

الفصل السابع والثلاثون

﴿ حمَّاد وآمالهُ ﴾

تركنا حماداً وسلمان يفكران في عبدالله وهما بين الرجاء والقنوط من أمرهِ فقضى سلمان اياماً يتردد الى البلقاء وبصرى للبحث عنهُ فلم يقف لهُ على خبر حتى ترجح لديهِ اخيراً انهُ سافر الى الحجاز

وأما حماد فكان بين شاغلين عظيمين هند من جهة و والده من جهة اخرى وكلما رأى قادماً ظنه رسولاً من هند جاء يستقدمه اليها او مبعوثاً يبنئه بخبر والده

حتى كان اليوم الذي تقرر فيهِ استقدامه واتفق انه افاق في صباح ذلك اليوم منشرح الصدر واسع الآمال وكان قلما يصبح الأ منقبضاً كئيباً لما يتوالى على ذهنهِ من المخاوف تارة على والده وطوراً على حبيبتهِ حتى اثر ذلك في صحتهِ فرقّ جسمه قليلاً على انه كثيرًا ما كان يخرج للصيد او نحوه لترويح النفس ولولا ذلك ما نجا من غائلة المرض

فلما اصبح في ذلك اليوم على ما تقدم عجب واستبشر ولبث يتوقع خبرًا مفرحًا وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام وهو على غير ما كان عليهِ سيده من الانشراح والاستبشار ولكنه ما لبث ان رأى فارسًا قادمًا مسرعًا فعلم من جهة مسيره انه يقصد مضربهم فتفرّسه عن بعد فعلم انه من رجال صرح الغدير فتوسم بقدومهِ خيرًا فخف للاقائهِ فلما دنا منه عرفه وراّه يبتسم فعلم انه انما جاء لبشرى خير وقبل ان يصل الفارس الى سلمان ترجل ومشى و زمام الفرس بيده ومشى سلمان حتى التقيا فتصافحا وتعانقا فاستطلعه سلمان الخبر فقال جئت استقدم الامير حمادًا الى سيدتي الاميرة سعدى في صرح الغدير لأنها تريد مخاطبة في شأن

فقال سلمان وهل تدري ما هو ذلك الشأن . فضحك الخادم وقال لا ادري ولا بد من ان تكون اعلم مني بهِ واما اهل القصر عندنا فقد لاحظوا من بعض ما سمعوه سرًا وادركوه ضمنًا ان مولاتنا هند تخطب وكنا ننتظر ذلك اليوم فانه سيكون يومًا سعيدًا لم يرَ غسان اسعد منه لان مولانا جبلة كريم النفس سيخلع علينا خلعًا فاخرة و ينثر علينا الذهب نثرًا

فتبسم سلمان وقال وهل علمتم من هو خطيبها

قال نعم هو ابن عمها ثعلبة اذ ليس من ابناء عمها من هو أقرب منه اليها وقد طلبها ولكنني علمت من بعض الخدم انها لا تحبه ولا تقبل بهِ

قال سلمان وهل يمكنها رفضه

قال لا ادري والظاهر انها رفضته . وكان الخادم قد سمع بأمر حماد و رغبة هند فيهِ ولكنه تجاهل لئلاً يقال انه باح بالسر وود ان يكون سلمان البادئ بالخبر

واما سلمان فلم يعد يستطيع صبرًا على كتمان هذه الاخبار عن سيده ولكنه اراد معرفة ما دعا الى استقدام حماد فقال وهل سمعت امرًا حدث قريبًا في القصر

قال لم اسمع شيئًا ولكني رأيت سيدي الامير جبلة جاء بالامس فمكث عندنا بضع ساعات قضاها في المسارّة هو والاميرة ثم عاد الى البلقاء وفي حال خروجه استقدمتني سيدتي وانفذتني اليكم

فادرك سلمان ان مجيء جبلة لم يكن الاّ لامر الخطبة وترجح عنده انه رضي بحماد ولولا ذلك لم يكن ثمت داع لاستقدام حماد على اثر رجوعه حالاً فدخل على سيده وكان متكئًا على اثر عودته من صيد قريب وقلبه يطفح سرورًا ودلائل الانبساط ظاهرة على وجهه لسبب لا يعرفه احد فدخل عليه سلمان وحياه وهو يبتسم

فقال له ما وراءك يا سلمان اني اراك مبشرًا

قال عساها ان تكون بشرى خير يا سيدي

قال وما ذلك

قال ان أهل صرح الغدير بعثوا يستقدمونك اليهم فهل تذهب ام انت في شاغل الآن . قال ذلك وهو يضحك

فجلس حماد وهو يظنه مازحًا وقال لا ابالي دعاني اهل الصرح ام لا فاني اراني سعيدًا منذ فتحت عينيّ في هذا الصباح

قال وما يضرك ان تتم سعادتك فان انشراح صدرك ان هو الاّ فاتحة السعادة وهذا خادم القصر قد جاءنا فهل ادخله عليك ليبلغك بمهمته

فقال ليدخل

فدخل الفارس وهو لا يزال بلباس السفر فحيا الامير وانبأه بمهمته فقال حماد هل فارقتهم جميعًا في خير

قال فارقتهم يدعون لسيدي الامير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريبًا ليتم سرورهم برؤيته . فاستبشر حماد بما وراء ذلك

وقال اهدهم سلامي وقل اننا سنصبحهم غدًا ان شاء الله

فقبل الخادم يده وخرج فخرج سلمان لوداعه ودفع اليه عشرة دنانير وقال هذا ثمن عليق الفرس وسترى منا ما يشرح صدرك فسرّ الخادم بالهدية وبالوعد وودّ

ان تتم خطبة هند لحماد لما ظهر من سخائه ورقة جانبه خلافًا لثعلبة فانه لم يكن احد من أهل الصرح يحبه لعجرفته وبخله

فلما سار الخادم عاد سلمان الى حماد فرآه مطرقًا يفكر

فقال ما بالك يا سيدي يفكر العلة بغتت لتلك الدعوة على غير انتظار

قال كلا يا سلمان فقد كنت اتوقع خبرًا مفرحًا منذ الصباح ولكنني افكر في والدي وما تم به فانه طالما تمنى ان يزوجني ويفرح لي وقد كان يجب ان يسير هو معنا في هذه المهمة . ولكن من ينبئنا بمكانه

فقال سلمان دع عنك المواجس يا مولاي فقد تقرر في ذهني ان سيدي سار الى الحجاز ومتى فرغنا من مهمتنا هذه اذهب اليه بنفسي ولا ازال ابحث عنه حتى آتي به باذن الله فلنستعد الآن للذهاب الى صرح الغدير

قال أرى ان نبرح هذا المكان قبل الفجر حتى نصبح في الصرح كما قلنا للخادم .

قال حسنًا واخذا في الاستعداد وحماد كلما تصور هندًا خفق قلبه وهالة الموقف وتذكر اجتماعه بها في دير بحيراء . ولكنّ سروره لم يكن تامًا مخافة ان لا تكون دعوته على ما يؤمله من الفوز بما يتمناه ولكنّ الامل غلب عليه فتصور انه انما دعي لاتمام عقد الخطابة فقضى بقية ذلك اليوم في مثل هذه الافكار

الفصل الثامن والثلاثون

ساعة اللقاء

أما هند فلما عاد الرسول وانبأها بمجيء حماد في صباح الغد خفق قلبها ولبثت تعد الساعات والدقائق فقضت ذلك اليوم ولم تنم من شدة الفرح فلما اصبحت سارت الى والدتها وسألتها عن المكان الذي سيجتمعون فيه فقالت قد امرت الخدم ان يعدوا غرفة الضيافة ولا يدخلوا اليها احدًا في هذا اليوم وان يذبحوا الذبائح ويمدوا الاسمطة فلبست هند ثوبًا سماويًا جميلاً خاطته لها احدى خياطات دمشق وكانت قد خبأته لمثل ذلك اليوم ومشطت شعرها وضفرته وجعلت تتشاغل ببعض المهام اخفاء لما

ثار في قلبها من العوامل المتضاربة بين الفرح بلقيا حبيبها وهول موقفها ساعة اللقاء وخوفها عليه مما اعدوه له من امر الكعبة

وكانت سعدى قد انتدبت جماعة من أهل القصر لاستقبال القادمين قبل وصولهم فلما كان الضحى ودنا الوقت جعلت هند تطل من النوافذ تنظر الى ساحة الميدان التي جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر ووراءها الآكام والغياض وكلما رأت غبارًا او آنست اشباحًا ظنت حمادًا قادمًا فيخفق قلبها ويتورد وجنتاها حتى كانت الظهيرة فاذا بالغبار يتصاعد من بعض جوانب الافق ثم بان من تحته فرسان يسرعون وفي مقدمتهم فارس عرفت انه من أهل القصر وانه تقدم الجماعة ليبشر بقدومهم فازداد خفقان قلبها ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها حماد ملتثمًا بالكوفية فانكرته في بادئ الرأي اركوبه فرسًا غير فرسه . ثم غلب عليها الضعف النسائي فاصطكت ركبتاها واستعظمت ساعة اللقاء فتحولت عن النافذة ولكنها ما انفكت تنظر اليه خلسة حتى دنا من القصر وكانت والدتها واقفة الى جانبها وقد لحظت ما هي فيه من الهيام فقالت لها امكثي هنا ريثما استقدمك الى دار الضيافة

وخرجت الى الحديقة وقد ترجل الفرسان وتركوا خيولهم في عهدة الخدم ودخلوا الحديقة وفي جملتهم حماد ملتفًا بعباءته وقد حوّل اذيال كوفيته عن وجهه وارسلها الى كتفيه فبانت ملامح محياه وتقدم وسلمان الى جانبه حتى دنوا من سعدى فتقدم سلمان اليها واخبره انها هي الاميرة سعدى امرأة الملك جبلة فعلم انها والدة هند فسلّم عليها وهو يتوقع ان يرى هندًا فلم يرها فعلم ان الحياء منعها من القدوم للقائه وانها لا تلبث ان تأتي

فاستقبلتهما سعدى وسارت بهما الى غرفة الضيافة فجلسوا والخدم وقوف بين ايديهم فقالت سعدى هل يأذن الامير بماء ليغتسل ويبدّل ثياب السفر قبل تناول الطعام فاجاب وغسل يديه ووجهه وجاءه سلمان برداء حريري وكوفية فلبسهما وجلس وعيناه شائعتان نحو الباب وكلما سمع وقع اقدام او رأى شبحًا ظنه هندًا قادمة

أما سلمان فانه ترك سعدى وحمادًا في الغرفة وخرج يبحث عن هند وكان قد عرف غرفتها في مجيئه اليهم قبلاً كما علمت فاذا هي واقفة هناك تتلاهي بالاساور تديرها حول معصمها وافكارها تائهة وقد علت وجهها امارات البغتة فلما رآها تظاهر بالسعال ليستلفت انتباهها وقد كانت لعظم تأثرها لا تمرّ نسمة الاّ سمعت لها صوتًا

فكيف بسعال سلمان فانهُ ذعرها فالتفتت اليهِ فرأتهُ يبتسم فابتسمت ولكنها شعرت بقشعريرة خفيفة ثم مشت وهي تحاول اخفاء ما بها فتقدم نحوها وهو يحاذر ان يدخل الغرفة لئلا يكون دخولهُ مخالفاً لمقتضيات العادة فمشت هي نحوهُ وسلمت عليهِ

فقال هل رضيت مولاتي عن راهب الدير جامع النذور

فتبسمت ولم تجب

فقال ها قد جئتك باللص الذي سرق الدرع فهل تريدين مقاصتهُ ولكنني ارجو ان لا تحكمي عليهِ بالسجن

فتذكرت زيارتهُ اياها بثياب الرهبان فضحكت ولكنها ما زالت تنظر الى معصميها وتلاهي باساورها

فدنا منها وقال ما بالك لا تتكلمين يا مولاتي ألعلي أذنبت لاني تركت صاحب الدرع (او لصهُ كما تزعمين) وجئت وحدي . فهل استدعيهِ اليك

فلم تجب ولكنهُ كان يقرأ آيات السرور على وجهها

فقال اراك تتظاهرين بان مجيئهُ لا يهمك ولكنني اقرأ على وجهك عبارة يكاد ينطق بها لسانك فقد فهمت مرادك بدون ان تتكلمي فها اني ذاهبٌ لادعو الرجل اليك فرفعت نظرها اليهِ كأنها تلومهُ على هذه المداعبة أما هو فتحوَّل عنها ضاحكاً حتى دخل غرفة الضيافة فرأى سعدى وحماداً جالسين وليس في الغرفة سواهما فدنا من سعدى وقال وهو يتظاهر بالمزاح . ما بالي ارى هذه الغرفة قليلة النور كأنها بعيدة عن موقع أشعة الشمس

فقالت سعدى ألا ترى الاشعة داخلة من هذه النافذة

قال وهو يضحك لا أرى نوراً قط ويظهر لي ان شمسكم تشرق من الجنوب (واشار الى غرفة هند) فادركت سعدى مرادهُ فتبسمت واطرق حماد خجلاً ولكنهُ ودّ ان يلح سلمان باستقدام هند

فقال سلمان أراكم تضحكون من كلامي واراني اعلم منكم بمشرق شمس قصركم . ألا أذنت مولاتي بقدوم شمس هذا القصر بل شمس بني غسان الينا . . . . فاني أرى الاسمطة قد مدت وكأَني بكم تتهيأُون للغداء ولكن الطعام حرام علينا قبل مجيء سيدتي هند فانها محور انسنا ولا أظنك تنكرين علينا ذلك

فقالت سعدى . أراك لجوجًا يا سلمان ولا مأرب لك في الامر

فضحك سلمان وقال لا مأرب لي صدقتِ لا مأرب لي ولكنني اعبر عن عواطف اناس آخرين وإشار بطرف عينيهِ الى حماد فبسم حماد وقد توردت وجنتاه ونظر الى سلمان نظرة التوبيخ ..

فالتفت اليهِ سلمان وقال يظهر انك لا تريد مقابلة فتاة غسان فاذا كان هذا هو مرادك (أستغفر الله) مما كان اغنانا عن تكبد هذه المشاق وهجرنا الحيرة والعراق

فنظرت سعدى الى سلمان والرزانة والتعقل يتدفقان من وجهها وقالت لم يدعُ والدنا حمادًا الاَّ ليرى هندًا وتراه فانهما ولدانا ولا نجهل انهما يسرَّان بالمقابلة فلا تكن عجولاً ان هندًا لا تلبث ان تأتي ونتناول الغداء معنا

ثم وقفت وقالت وها اني ذاهبة لاستقدامها . وخرجت

فلما خرجت التفت حماد الى سلمان واراد معاتبته لما ابداه من الجرأة في خطاب الاميرة سعدى

فقال ولولا ذلك لطال زمن الوحدة ألعلنا جئنا لنأكل ونشرب

ثم عاد حماد الى الافكار في هند وقرب مجيئها وما سيكون من امرها ساعة اللقاء فما لبث ان سمع وقع اقدام علم من لين وقعها ان سعدى وهندًا قادمتان فتحفز للقيام أما سلمان فوقف بالباب فرآهما قادمتين فتبسم ونظر الى حماد

ثم وصلتا الى باب الغرفة فدخلت سعدى وهند تتبعها مطرقة

فوقف حماد ومشى لاستقبالها وهو مطرق ايضًا ولكنهُ لم يجرأ على مصافحتها ولا هي فعلت ولكن قلباهما كانا ولا ريب يختلجان فرحًا وكل منهما يتظاهر بالتجلد فتشاغل هو باصلاح ردائهِ وإرسال كوفيتهِ الى كتفهِ وتلاهت هي باصلاح قرطها في اذنها ولا تسل عن تورد وجنتيها وإصطكاك ركبتيها واختلاج قلبها . وحالما دخلت اشارت اليها والدتها ان تجلس على وسادة بالقرب منها فجلست وجلس الجميع ولبثوا برهة لا يتكلمون وحماد ينظر الى هند محاذرًا فرآها قد تغير حالها عما كانت عليهِ يوم دير بحيراء فذبل ورد وجنتيها وخف عضلها ولكنهُ رأى ذلك قد زادها جمالاً رهيبة وكانت هي تختلس النظر اليهِ ولا تكاد تصدق ان والدها رضي لها بهِ ثم يعترضها امر قرطي ماريا فتوجس خيفة

فقطعت سعدى الكلام قائلة وماذا تمّ من أمر والدك هل التقيتم بهِ ام عرفتم مقرهُ

فقال حماد كلاَّ يا مولاتي فقد شغل بالنا تأخرهُ ولم ندع مكاناً لم نسأَل فيهِ عنهُ والفضل في هذا السعي كلهِ لهذا الرفيق (واشار الى سلمان) فانهُ لم يأْلُ جهداً في البحث والاستطلاع فلم نقف على خبر يقين

فقال سلمان ولكنني ارجح ذهابهُ الى الحجاز لما سمعت من حكاية صاحب الخان واخذ يقص عليهم ما سمعهُ من الخاناتي في بيت المقدس وما كان من امر ابي سفيان وجواد حماد الخ

فاستفهمتهُ عن حكاية الاسد فقص عليهم ما لقوهُ في مسبعة الزرقاء وكانت هند في أثناء الحديث شاخصة حتى سمعت ما لاقياه عند تلك الشجرة من غائلة الاسد وما كانا فيهِ من الخطر فلألأَت الدموع في عينيها فلما رأى حماد منها ذلك اوشك ان يبكي لفرط ما آنس من رقة عواطفها . ثم أتمّ سلمان حكايتهُ حتى انتهى الى آخرها والجميع مصغون لا ينبس احدهم بكلمة

فلما فرغ من كلامهِ قالت سعدى يؤخذ من مجمل ما سمعناه ان والدكم سافر الى الحجاز مع ابي سفيان ولو كان باقياً في البلقاء لجاء للبحث عنكم بعد ان نال العفو الامبراطوري ثم تبسمت وسكتت كأَن في نفسها شيئاً تكتمهُ فبقي الجميع صامتين لعلها تقول شيئاً وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم وسأَل الاميرة سعدى اذا كانت تأذن بمد السماط لان وقت الغداء قد أزف فقالت هاتوا الطعام والتفتت الى حماد قائلة هلم بنا الى الغداء ونتمم حديثنا بعدهُ

فمدت الاسمطة وحملت الذبائح وجلسوا على المائدة وحماد يفكر في ماذا عسى ان يكون وراء تبسم سعدى

فلما فرغوا من الطعام عادوا الى الاستراحة وجلسوا ينتظرون حديث سعدى الاَّ هنداً فانها لم تكن معهم لان والدتها اشارت اليها ان تتخلف هنيهة ريثما يتحادثون في شأْنها

فلما استتب بهم الجلوس قالت سعدى أظنكم تنتظرون مني كلاماً ظهر لكم من تبسمي الآن اني اكتمهُ

فقال حماد هو ذلك يا مولاتي فاتحفينا بهِ

قالت تبسمتُ لما اتفق من ذهاب والدكم الى الحجاز وما نحن عازمون ان نعرضهُ عليكم مما يأول الى اجتماعكم بهِ هناك

فعجب حماد لكلامها ولم يفهم مرادها فقال وما ذا عسى ان يكون اقتراحكم

قالت لا يخفى على والدنا حماد ان ما عرفناه من شهامتهِ وكرم اخلاقهِ يكفي لاقتناعنا باستحقاقهِ هندًا وانهُ جدير بالحصول عليها دون ابن عمها . ولكننا معاشر العرب نحافظ على الانساب ونحترم القرابة ولا يخلو ان يكون قد بلغكم ان الحارث بن ابي شمر قد طلب هندًا لابنهِ ثعلبة وهو ابن عمها واولى الناس بها ولكننا آثرنا البقاء على ما ارادتهُ هند ورضينا بحماد لما آنسنا فيهِ من كرم الاخلاق وعلوّ الهمة وعدلنا عن ثعلبة على كونهِ ابن عمها

فخجل حماد لهذا الاطناب واختلج قلبهُ فرحًا لما توسمهُ من رجوع الامر اليهِ وتحقق امانيهِ فاطرق صامتًا

فقالت سعدى ولكن والدها رأى رأيًا اذا وافق عليهِ حماد كان فيهِ دفع لتقوُّل الناس وعتاب الاقارب وفخرٌ لنا جميعًا

قال حماد مري يامولاتي اني رهين اشارتك

قالت رأينا ان تعمل عملاً نقترحهُ عليك لا يعظم على باسل نظيرك فاذا فعلتهُ قطعت السنة المعترضين وزدتنا اعجابًا وفخرًا

فثارت الحمية في نفس حماد فقال قولي يا سيدتي اني فاعل ما تقولين وهل يثقل عليَّ امر ترضى بهِ هند

قالت نقترح عليك ان تلبس هندًا يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام

فقال الملك تعنين قرطيّ مارية

قالت اياهما اعني وهل تدري مكانهما

قال سمعت انَّ ماريا جدتكم اهدتهما الى الكعبة منذ اجيال فهل هما باقيان هناك حتى الآن

قالت اظنهما لا يزالان هناك وفي استخراجهما من جوف الكعبة بسالة واقتدار جديران بكم

فلما سمع سلمان ذلك اضطرب فؤاده خوفًا على سيده لعلمه ان الكعبة امنع من عقاب الجو قد يستحيل الوصول اليها

فقال هل تأذن سيدتي بكلمة اقولها

قالت تفضَّل

فقال هل تريدين ان تلبس مولاتي هندًا قرطي مارية عينهما ام قرطين آخرين مثلهما

قالت لا نلتمس شيئًا يقدَّر بالمال يا سلمان فاننا من نعم الله في سعة و بسطة عيش ولكننا نريد ان نفاخر اعمامنا باننا لم نرض لهند الاَّ رجلاً استخرج قرطي مارية من جوف الكعبة وهذا ما اضحكني لما سمعت حكاية الامير عبد الله وذهابه الى الحجاز فقلت في نفسي ان الله قد اذن بذهاب حماد ليلتقي بابيه هناك لان مقام ابي سفيان في مكة حيث الكعبة ايضًا

فالتفت حماد الى سعدى وملامح البسالة تجلى في وجهه وقال لقد طلبت امرًا يحقر كثيرًا في سبيل مرضاة هند ولسوف ترين منا فوق ذلك باذن الله واما سلمان فانه استعظم الطلب ولكنه لبث صامتًا احترامًا لمقال سيده

أما هند فانها كانت جالسة في غرفتها وهي تعلم بما ستقوله والدتها فلما تصوَّرت الخطر المحدق بهذه المهمة ندمت لمجاراة والدتها في ذلك وادركت انها انما دبَّرا حيلة للتخلص منه فعظم الامر عليها حتى بكت

وفيما هي في ذلك دخلت الخادمة تدعوها الى والدتها فمسحت دموعها وسارت والكآبة ظاهرة على وجهها فلما دخلت الغرفة ورآها حماد على تلك الحال اثر منظرها في نفسه وهاجت فيه حمية الرجال وقد ادرك انها انما تبكي جزعاً عليه فقال لها لا تجزعي يا هند انك ستلبسين قرطي مارية وتفاخرين بهما اهل الخافقين

فصمتت هند و لم تجب ولكن كلام حماد أثار فيها ساكن الغرام وهاج عواطفها فازدادت اعجابًا بشهامته وحنوه على ان خوفها عليه اعترض مجرى عواطفها فهبت الحرارة في جسمها كانك كشفت الغطاء عن نار متقدة في فؤادها فانبعث لهيبها الى سائر اطراف البدن وتلألأت الدموع في عينيها فاطرقت وجعلت تتلاهى بتثنية اطراف أكمامها مخافة ان يظهر اضطرابها لحماد

أما هو فلم يفته حديث قلبها ولا غفل عما تضارب في ذهنها من العوامل ولكنه اراد تشجيعها فالتفت الى والدتها وقال طالما ساقني المسير الى الكعبة لمشاهدة ما اسمعه عنها من حج الناس اليها من اقطار العالم وكثيرًا ما سمعت حديث والدي عن الاصنام القائمة فيها وما يقدمه لها العرب من الضحايا وقد قرأت في بعض الكتب انها قديمة البناء جدًّا وانها كانت حجاً يأمه الناس من اطراف الارض وقد بنيت في بادىء الرأي لعبادة الله ثم جعلها بعض العرب مجمعًا لاوثان حملوها اليها من انحاء شتى من العالم الوثني وفي جملة ذلك صنم حملوهُ اليها من هذه البلاد (البلقاء) اسمهُ هُبَل وكان قبل ان حملوهُ اليها من البلقاء يسمى (هَبعل) وهو لفظ عبراني معناه البعل اي الاله [1] يشبههُ في لغة الكلدان جيراننا بالعراق لفظ (بل) وقد حملوا اليها اصنامًا اخرى من مصر واشور وغيرها فاجتمعت فيها مئات منها فاصبح ذلك البيت مجمعًا الاصنام

فانتبه سلمان وكان تائهًا في بحار الهواجس خوفًا على سيده فلما وصل حماد الى حكايات اصنام الكعبة قال سلمان نعم ان الاصنام كثيرة في الكعبة ولكن كثيرين من عقلاء قريش لا يحترمونها وقد سمعت كثيرًا منهم يخاطب سيدي الامير عبد الله في بعض سفراتنا الى مكة بشأن تلك الاصنام فأكَّد له ان جماعة كبيرة من عقلاء مكة وهم من قريش انما يزورون الكعبة لعبادة الله وان الاعتقاد بالله قد اتصل اليهم بالتلقين من سيدنا ابراهيم ولكن بعضهم ضلَّ عن سواء السبيل بما زيّن لهم من عبادة الاوثان [2]

فقالت سعدى ووجهت خطابها الى حماد يظهر ان والدكم الامير قد سافر الى الحجاز قبل الآن

قال نعم يا مولاتي انه زارها مرارًا ولذلك ظننا انه سار اليها هذه المرة ايضًا

فقالت ان ذلك لما يؤكد ذهابه اليها الآن فعسى ان تلتقوا به هناك .

قال اني ارجو ذلك واتمناه لتتم به سعادتي . ثم فكر قليلاً وقال متى تظنين يا مولاتي اننا سنبرح البلقاء

قالت متى شئتم وخير البر عاجله

(١) اديان العرب قبل الاسلام في الهلال . . . . من السنة الخامسة (٢) تاريخ الأنبياء

قال ارى ان نودع سيدي الملك جبلة قبل السفر فنلتمس دعاءه بالتوفيق

قالت ذلك راجع اليك اما هو فقد فوض الينا ان نبلغك رضاه وما تمّ عليه الاتفاق فاذا شئت مقابلته فلا شك انه يسرّ بلقياك

كل ذلك وهند مطرقة وعيناها تكادان تدمعان لولم يشغلها حديث الكعبة فلما تحوّل الحديث الى والدها استحسنت رأي حماد في زيارته على امل ان يتحول عزم والدها عن اقتراحه . فقالت تفعل حسنًا بزيارة والدي قبل سفرك

فازداد حماد رغبةً في ذلك فقال غدًا نصابح مجلس الملك ان شاء الله فنسلم عليه ونودعه . هل تعرف الطريق الى البلقاء يا سلمان

فقالت سعدى سنرسل رجالاً يسيرون في ركابكم اليها

اما سلمان فما انفك منقبض النفس من امر هذه المهمة لعلمه انها شديدة الخطر جدًا ولكنه سلم امره الى الله

وقضوا بقية اليوم في صرح الغدير ولكن هندًا لم تهنأ بذلك الاجتماع لخوفها من الفراق العاجل وقرب الخطر الشديد على انها شغلت بحديث حبيبها ولهت برؤيته عن كل المخاوف فلم يكن يوم اسعد عليها من ذلك اليوم وودت لو انه يوم يشوع بن نون خوفًا من انقضائه ولا تسل عن حماد وسروره وقد سهل عليه المسير الى الكعبة امله بلقاء والده هناك

الفصل التاسع والثلاثون

الوداع

وفي الصباح التالي اصبحت هند كئيبة حزينة واحست بلهفة وجزع لم تشعر بهما قبلاً فكانت كلما نظرت الى حماد خيل لها ان احدًا يحاول اختطافه من بين ذراعيها فيضطرب قلبها وتسودّ الدنيا في عينيها فحدثتها نفسها لاول وهلة ان يتواطأا على رفض امر القرطين ولكن الانفة وعزة النفس اعترضتاها فصبرت نفسها متعللة بالآمال

فلما اشرقت الشمس كانت الخيول قد اعدت لركوب حماد وسلمان الى البلقاء مع بعض الفرسان من اهل القصر فنهض حماد لوداع هند ووالدتها وكانتا تنتظرانه

في غرفة الضيافة فدخل وهو في لباس السفر فوقفت له هند وركبتاها ترتجفان فمد يده اليها فمدت يدها فامسكها فاحسّ بها باردة كالثلج ونظر الى وجهها فاذا به قد امتقع لونه فلما خاطبها خطاب الوداع تناثر الدمع من عينيها بغتة وجذبت يدها من بين انامله بلطف واطرقت ولم تجب فعلم انها انما فعلت ذلك خوفًا عليه من هذا السفر الخطر ·

فالتفت اليها متبسماً وقال ما بالي ارى هندًا خائفة وعهدي بها تنافس اشجع الرجال وتسابق افرس الفرسان

فنظرت اليه بطرف عينيها وتنهدت تنهدًا عميقًا ولبثت صامتة ولسان حالها يقول « ان مسابقة الفرسان شيء ومفارقة الاحباب شيء آخر »

فادرك حماد مرادها ولكنه خاف اذا طال وقوفه ان يخرجه الغرام عما يليق به في ذلك الموقف فتحوّل لوداع سعدى ثم عاد الى هند فودعها وتبسم لها فتبسمت مجاراة له ولكن قلبها لم يفرج فقال لها ادعي لنا بسلامة العود فاذا عدنا كما اردنا كان حماد اهل لهند فلا تخشى هي ان تذكره ولا تخجل اذا ذكره سواها واما اذا لم · · · · ·

فقطعت هند كلامه على عجل وقالت وهي تتلجلج بكلامها لا تقل (اذا) فانك ستعود الينا سالمًا باذن الله ثم غلب عليها الضعف فتناثرت الدموع من عينيها وهي تحاول اخفاء عواطفها امام والدتها

أما سعدى فرأت من الحكمة ان لا تطيل الوقوف على هذه الصورة فقالت سر يا ولدي بحراسة الله وهو ينيلك بغيتك على اهون سبيل فتعود الينا سالمًا وقد التقيت بوالدك

فأثنى على لطفها وودعها وقبل يدها وخرج الى الحديقة وكان سلمان في انتظاره هناك وقد هيأ الموكب فلما خرج مولاه وسعدى وهند تشيعانه تقدم اليهما وودعهما وهو على غير ما آنساه منه صباح الامس من انبساط النفس والمجون ولكنه تظاهر بالامتنان والانبساط واركب حمادًا ثم ركب هو وباقي الموكب وخرجوا قاصدين البلقاء وهند وسعدى واقفتان تنظران اليهم اما هند فلم يكد حماد يدير عنان جواده حتى غلب عليها اليأس وشعرت بما دبره والدها فتحوّلت الى غرفتها واخذت في البكاء وجعلت تندب سوء حظها وحظ حماد فتبعتها والدتها وهي تخفف عنها

وتصبرها بالوعود

فقالت دعيني يا اماه ها قد نفذ السهم وقضي الامر ان حمادًا قد سار الى مكان لا يرجو عوده منه وقد كان الاجدر بكم ان ترفضوا طلبه بدلاً من ارسالو في هذه المهمة

قالت ذلك وهي تبكي

فقالت سعدى خلي عنك الاوهام ان حمادًا شجاع باسل وخادمه سلمان خبير بكل شيء فلا يعسر عليهما العود بالقرطين وفي ذلك فخر لك ولنا ومنجاة من اثقال ثعلبة وابيه على الافل .

فلما سمعت اسم ثعلبة تذكرت ما قاسته من مساعيه فهان عليها ما يقاسيه حماد في سبيل انقاذها منه فسكتت والهواجس تتقاذفها

أما حماد فما زال حتى اتى الملقاء وسلمان صامت لا يفوه بكلمة وكان حماد يبالغ في اظهار ارتياحه الى تلك السفرة وآماله في عواقبها

وكانت البشائر قد سبقتهما الى جبلة تنبئه بمجيء حماد والناس يحسبونه اميرًا جاء لغرض يتعلق بالحرب لان الروم كانوا قد خابروا كل القبائل المجاورة يلتمسون نجدتهم في حرب الحجازيين

أما جبلة فعلم انه جاء لامر يتعلق بخطبته فاذن بدخوله عليه في خلوة فلما التقيا به همّ حماد بتقبيل يدي جبلة فانحنى جبلة لتقبيله ثم جلسا وجبلة يرحب به فقال حماد قد جئت يا عماه اشكرك على ما تكرّمت به عليّ من الرضا والتمس دعاءك في ذهابي الى مكة فاني شاخص اليها على عجل

فقال جبلة رافقتك السلامة في المسير والاقامة وجعل الله مسيرك سعيدًا ولا حرمك ما تريد ولكني اوصيك يا ولدي ان تبقي ما دار بشأن هند مكتومًا حتى تعود لئلاَّ يسبب لنا ذلك مشقة وربما حال دون ما نحن ساعون فيه

فادرك حماد مراده فوعده بالكتمان ثم قال معي خادم بل هو رفيق يود تقبيل يديك قبل السفر لانه سيرافقني ويكون عونًا لي فهل يأذن مولاي بمثوله بين يديه

قال ليدخل

فخرج حماد ثم عاد وسلمان معه فتقدم سلمان الى جبلة وقبل يده ولبثوا هنيهة يتحدثون في ما لم يخرج عن الموضوع من تشجيع حماد وتحبيب الامر اليه ثم نهض حماد

وسلمان وودعا جبلة وخرجا يريدان خيمتهما عند الشيخ النبطي وكل منهما في هاجس
اما سلمان فلم يكن راضيًا بما رآه وسمعهُ ولكنهُ رأى حمادًا راضيًا بهِ مصممًا على تنفيذه فلم يشأْ تثبيط عزائمهِ وعوّل في باطن سره على ان يبذل جهده في مساعدته الى آخر نسمة من حياتهِ

الفصل الاربعون

السفر الى الحجاز

فوصلا الخيمة في المساء وكان النبطي قد استبطأهما لغيابهما يومين كاملين فلما عادا رحب بهما فنزلا وهما يفكران في امر السفر والاستعداد لهُ والعمدة في ذلك على سلمان فابتاع جملين لحمل الماء والثياب والزاد وسألا الشيخ النبطي عن رجل خبير بالطرق يرافقهما الى مكة باجرة ترضيهِ فسألهما عن سبب السفر فانتحلا سببًا اسكتهُ

فقال اما الدليل فاني ادلكما على رجل من اهل يثرب وهي المدينة التي جاء منها الحجازيون الذين قلت لكم انهم سيخرجون هذه البلاد من ايدي بني غسان وقد جاء في امس بمهمة من بعض امراء ذلك الجيش فدللتهُ على بعض الاماكن التي يمكنهم الحصول فيها على زاد لهم وسمعتهُ يقول انهُ لا يلبث ان يعود الى بلده فاذا رافقكما اليها كان لكم بهِ خير رفيق ومتى وصلتم يثرب هان عليكم الوصول منها الى مكة

فقال سلمان والظاهر ان صاحبك هذا من اتباع صاحب الدعوة الاسلامية بالمدينة

قال نعم هو مسلم وقد جاء في جملة المسلمين الى عمان وسيعود بمهمة خصوصية فهل استقدمهُ اليكم

قال سلمان استقدمهُ

فخرج من الخيمة ونادى « أبا سعيد » فسمعوا صوتًا يقول « لبيك يا اخا العرب »

فقال النبطي هلمّ اليّ

فجاء بدوي طويل القامة عريض الاكتاف خفيف اللحية يظهر من ملامح وجهه انه في الاربعين من العمر عاري الرأس والقدمين ملتحف شملة من نسج ابيض تغطي بدنه فيلف بعضها حول عنقه و يترك منها زائدة ينشرها على رأسه اذا اشتد عليه الحر وفي يده رمح ونبلة

فلما رآه سلمان عرف من شكل ملابسه وملامح وجهه انه حجازي من اهل المدينه فلما وصل ابو سعيد الى حماد بهره ما عليه من اللباس الفاخر من الخز والديباج والحرير فعلم انه امير ولكنه ظنه من امراء غسان فلم يهش له فابتدره النبطي قائلاً « ان الامير ليس من غسان كما قد يخال لك بل هو من العراق فلا تنقبض نفسك لرؤيته

فقال ابو سعيد لا بأس من ان يكون غسانياً فانا تجاورنا في منزلك فنحن الآن اخوة

فقال حماد بورك فيك يا اخا العرب ممن انت

قال من اهل يثرب

قال سلمان ان اهل يثرب اكثرهم من اليهود

قال نعم فيها كثير منهم فهل قدمتها قبل الآن

قال نعم جئتها منذ عشر سنوات

قال لقد تغيرت حالها عما كانت عليه في ذلك الحين باشراق نور الاسلام

فقال سلمان العل نبي الاسلام منكم ام من قريش في مكة

قال لا ليس منا ولكنا قمنا بنصرته وفتحنا له صدورنا ومنازلنا فهو يقيم في مدينتنا وقد سمانا الانصار

قال سلمان اذن انت سائر الى المدينة

قال نعم والى ابن انتم ذاهبون

قال الى مكة فهل ترافقنا اليها

قال الرجل يا حبذا لو كان ذلك في الامكان

فقال سلمان وهل يمنعك من ذلك بعد المسافة ام انت سائر في مهمة على عجل

قال نعم اني سائر في مهمة على عجل ولكن ذلك لا يمنعني من المسير الى مكة لو لم يكن اعداؤنا لنا فيها بالمرصاد

فقال سلمان واي الاعداء تعني

قال اعني بني قريش اعمام نبينا فانهم لا يزالون يتوقعون فرصة للفتك به وهو انما جاء المدينة مهاجرًا فنصرناه كما قدمت وقد تبعه اليها نفر من ذوي قرباه اما الباقون فلا يزالون في مكة وقد تحالفوا على عداوته وفي مقدمتهم ابو سفيان الامير التاجر الشهير

فقال سلمان في نفسه ان تلك مشكلة لم تكن من حسباننا وتصوران في الطريق بين المدينة ومكة خطرًا لما بين اهل البلدين من العداوة فنظر الى المدني وقال هب اننا تركناك في المدينة فهل في طريقنا الى مكة من خطر

قال لا خطر عليكم اذا سرتم في طريق معروفة ولو كنتم من دعاة الاسلام مثلنا لكان في مسيركم خطر ولكنكم غرباء سائرون في سبيلكم ولعل الافضل ان تسيروا في قافلة لانكم تكونون في كثرة فلا خوف عليكم من طارق باذن الله قال ذلك وصمت واطرق كانه يفكر في امر طرق ذهنه بغتةً

فنظر سلمان الى حماد كانه يستطلع رأيه بعد ما سمعاه من ذلك اليثربي فقال حماد ارى ان نرافق الرجل الى المدينة ثم ننظر ما يكون من امرنا ثم التفتا الى الرجل فاذا هو مطرق يتلاهى باصلاح ثنيات ثوبه فابتدره سلمان قائلاً ما بال اخي قريش مطرقًا يفكر العل رأيًا جديدًا فتح عليه به

قال لم يخطر لي رأي جديد ولكنني تذكرت امرًا ذا بال اظنه يهمكم ايضًا

فتطاول سلمان بعنقه وقال وما ذلك

قال تذكرت حديثًا سمعته من معسكرنا في عمان فاذا صح مسيرنا الى مكة قريبًا فتدخلونها آمنين مطمئنين

فلم يدرك سلمان كنه كلامه فقال وماذا تعني بمسيركم الى مكة

قال اعني ان نبينا (صلعم) سيحمل على مكة برجاله فيفتحها ويكسر اصنامها فتصير في حيازتنا فاذا دخلتموها كنتم آمنين

فقال وهل انت موقن بهذا الخبر وهل المسير اليها قريب

قال اني واثق بصدق الرواية ولكنني لم اتحقق الزمن الذي ينوي فيه المسير وعلى كل فاننا متى وصلنا المدينة علمنا حقيقة الحال فهلمّ الى الاستعداد

ثم تركهما وذهب فنظر سلمان الى حماد وقال له لم يسرّني الخبر كثيرًا لان وصولنا الى الكعبة وبحثنا فيها عن القرطين قد يكون اسهل علينا قبل ذلك الفتح منه بعده

فقال حماد لا أرى رأيك في ذلك اذ ربما كان لنا بعد الفتح سبيل اسهل وطريق اقرب وسنرى ما يأتي به الغد فعليك الآن اعداد حاجيات السفر من الجمال والمياه والزاد ونحوها

فقال سلمان ارى ان نركب خيلنا ونأخذ جملين لحمل الماء والزاد على ان يكونا ذخرًا لنا في حال الاضطرار الى الركوب لان الجمال اصبر على العطش من الخيل قال ذلك واخذ في الاستعداد

وفي صباح اليوم التالي استحضروا جملين وخادمين وحملوا احمالهم مما خفّ وغلا وتركوا ما بقي من الثياب وغيرها عند الشيخ الدهلي وساروا يطلبون الحجاز

ولما توسطوا الصحراء وبعدوا عن الملتقاء احس حماد بالوحشة وتمثل له خطر المسير وتحقق كلام سلمان ولكنه تجلد والقى اتكاله على الله

وبعد مسير بضعة ايام اشرفوا على جبال المدينة فقال اليثربي ها نحن على مقربة من يثرب ولا نلبث ان نشرف عليها

فقال سلمان اني اعرف المدينة وطرقها فقد نزلتها منذ اعوام

فقال اليثربي لا تلبث ان تشرف عليها فترى فيها تغييرًا طرأ عليها بعد نزول النبي فيها فقد بنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان لكثرة من هاجر اليها من اصحاب الرسول وغيرهم

وبعد هنيهة اشرفوا على المدينة فاذا هي في منبسط من الارض تحدق بها البساتين والغياض فقال اليثربي هذه يثرب فهل تنزلان فيها ريثما تصطحبان من يرافقكما الى مكة

او تريان رأيًا آخر

قال حماد اني افضل النزول هنا مدة لاشاهد المدينة واهلها وارى صاحبكم واصحابهُ بعد ما ملأت اذني من احاديث حروبهِ واوصافهِ

فانحدروا حتى ساروا على مقربة من السور لا يستغشهم احد ممن رآهم لان بينهم احد الانصار وقد ظن كثيرون انهم انما جاؤوا يلتمسون الاسلام لكثرة من كان يفد على المدينة من القبائل في تلك الايام واكثرهم كانوا يجيئون رغبة في الاسلام

فلما دنوا من السور قال سلمان ارى ان نضرب خيامنا هنا فنستريح هنيهة ثم نترك دوابنا ومضينا في عهدة الخدم وندخل المدينة خفافًا

فقال اليثربي اما انا فلا استطيع صبرًا عن المسير الى المدينة الساعة لاني في مهمة فارجو ان نلتقي هناك

فقالا سر بحراسة الله

فودعهم ومضى

فلما خرج التفت سلمان الى حماد وقال لهُ اراك راغبًا في دخول المدينة

قال نعم

قال ولكني لا أرى ذلك

قال ولماذا

قال لاننا لم نترك البلقاء ونتجشم الاسفار لنقيم في هذا المكان فضلاً عن الخطر الذي قد يتهددنا لمجرَّد دخولنا المدينة

فقال واي خطر علينا من ذلك

قال اخاف ان يرانا هناك احد من عيون أبي سفيان فاذا رآنا في مكة عرفنا فيحسبنا من المسلمين فيعرقل مساعينا

قال اذا رأينا ابا سفيان قلنا لهُ ان عبد الله والدي او ربما رأينا والدي معهُ فنأمن الخطر

قال لو كنا على يقين من وجود سيدي والدك عنده لهان علينا المسير ولكننا انما قلنا ذلك على سبيل الظن

فلبث حماد برهة يفكر فتذكر والده وخطيبته وحالهُ فرغب في اتمام مهمتهِ بالمسير

الى مكة فقال اراك مصيبًا في رأيك فالافضل لنا ان نسير الى مكة لنبحث عن القرطين فاذا ظفرنا بهما هان علينا كل ما نريده

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فارسلا خادمًا يبتاع زادًا وعلفًا فعاد عند الغروب فأكلا واطعما الجملين والجوادين

وباتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد باكرًا فملأوا القرب وركبوا يريدون مكة وكان سلمان لا يعرف الطريق اليها . ولعله كان يعرفها ونسيها ولكنه كان لا يزال يذكر طريقًا تؤدي الى مكة عن طريق آبار بدر غربي المدينة فنضل المسير الى تلك الآبار ليبيتوا عندها ثم يملأون قربهم ويسيرون نحو مكة . اما حماد فلم يكن يعلم شيئًا من تلك الطرق وكان اعتماده على سلمان في كل شيء

الفصل الحادي والاربعون

البحيرة

فساروا طول ذلك النهار سيرًا بطيئًا لعلمهم ان الآبار غير بعيدة عنهم وانهم بائتون هناك لا محالة فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة فحلوا الاحمال وجلسوا للطعام ثم توسدوا العشب تحت شجرة كبيرة يلتمسون القيلولة واشتغل الخادمان برعاية الجملين

فلما فاقا عند العصر والتفتا فلم يريا الجملين ولا راعييهما فبغت سلمان ونهض للحال ونظر الى ما حوله فرأى كل شيء في مكانه كما فارقه فاخذ يتشوف عن التلال لعله يرى اثر الجملين فلم ير لهما اثرًا ولكنه رأى اثر خفافهما على الرمال فهمّ بتتبع الاثر وقال لحماد تربص هنا ريثما ارى ما تمّ لهما فمكث حماد وسار سلمان حتى غاب عن النظر ومالت الشمس نحو المغيب ولم يرجع سلمان فقلق حماد كثيرًا وخاف ان يدركه الظلام وهو منفرد في تلك الارض

وفيما هو في ذلك رأى اشباحًا تقترب فتفرسها فاذا هي ثلاثة من الابل ومعها الخادمان وسلمان فعجب للجمل الزائد فلما وصلوا استطلعهم الخبر

فقال سلمان أرأيت هذه الناقة

فنظر حماد اليها فاذا هي مشقوقة الاذنين فعجب لحالها وقال وما خبرها وما الذي جرى لها

قال هذه هي الناقة التي يسميها الحجاز بون البحيرة فان من عوائدهم التي قد اخذت تتلاشى بعد ظهور الاسلام ان الرجل منهم اذا ولدت ناقته خمسة ابطن وكان الاخير ذكرًا بحر اذنها اي شقها وامتنع من زكاتها واطلق سراحها لا يمنعها من ماء ولا مرعى فكأن خادمينا رأيا هذه الناقة سائبة فارادا القبض عليها فهمّ لها احدهما فنفرت منه فظن انه اذا ركب احدى ناقتينا ادركها فتعقبها بها فلم يدركها فاستنطاه رفيقه فركب الجمل الآخر ولحق به حتى لحقت انا بهما فرأيتهما قد قبضا عليها بعد جهد شديد وعادا وقد وبختهما على ما ارتكباه فوعدا ان لا يعودا الى مثل ذلك مرة اخرى

الفصل الثاني والاربعون

آبار بدر

فعجب حماد لحكاية البحيرة ولكنه تاسف لضياع الوقت حتى دنا المغيب ولم يصلا الآبار فقال ارى يا سلمان ان نترك هذه الناقة وشأنها لاننا لسنا في حاجة اليها ولا عندنا من علف نطعمها اياه ولنهتم بالمسير لكي ندرك الآبار فهل نحن بعيدون عنها

فقال سلمان اننا على مسافة قصيرة فهلم بنا اليها قال ذلك وامر فركبوا جميعًا وساروا يقطعون السهول والاودية حتى خيم الغسق وقد نفد ماؤهم ولم يصلوا الآبار فقلق سلمان وخاف ان يكون قد اخطأ الطريق فساق جواده الى اكمة أطل منها على على منخفض علم مما يحيط به من الجبال انه المكان المقصود ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك لبعد المكان وظلامه فعاد الى حماد وانبأه بما كان فاتفق رأيهما على ان يتركا الخادمين والجملين هناك ويسيرا هما على الفرسين ليتفقدا المكان فاذا كان هو بعينه شربا وسقيا الفرسين لان الخيل لا تصبر على العطش ثم يناديان الخادمين

فهمزا الجوادين فسارا في ارض وعرة والجو هادئ لا يسمع فيه غير وقع الحوافر

على تلك الصخور وكان الظلام آخذاً في الاشتداد ولكن القمر كان قد ارسل أشعة ضعيفة تبشر بقدومهِ قبل طلوعه فلما وصلا الى قمة الجبال المحيطة بمكان الآبار اخذا في الانحدار وهما ينتظران طلوع القمر بفارغ الصبر ليساعدهما على تعيين المكان فوصلا الى منبسط الوادي ونظرا الى ما حولهما فاذا هما في واد مظلم تحفُّ بهِ الجبال من اكثر جهاتهِ لا يسمع فيهِ صوت ولا يهب فيهِ ديار وكان القمر قد طلع لكن اشعتهُ لم تدرك اسفل المكان بعد فتحقق سلمان انها آبار بدر ثم استنار الوادي فتأملهُ سلمان فاذا هو هو بعينهِ ورأى الاماكن التي كانت تقام فيها السوق كل عام وكانت تجتمع اليها القبائل للبيع والشراء والاخذ والعطاء ولكنهُ آنس في المكان وحشة وهجراً كأنهُ هجر منذ اعوام ثم خطر لهُ ان الليل يريهِ ذلك فاخذ يبحث عن محل الآبار وحماد في أثناء ذلك صامت لا يبدي حراكاً

وترجلا عن الفرسين وسارا يقودانهما وقد تهيبا وندما لتلك المخاطرة وكان اعظمهما ندماً سلمان لانهُ ساق سيدهُ الى الخطر ولكنهُ تجلد وسار وحماد الى جانبهِ لا يتكلمان حتى وصلا الى حفر متفرقة فاستترا وصاح سلمان هذه هي الآبار قد ادركناها وكانا قد اعدَّا ما يستقيان بهِ من دلو اونحوه فالقى سلمان الدلو فسمع صوتهُ يصادم قعر البئر والبئر فارغة فعجب لذلك ثم ما لبث ان سمع حركة ورأى حيواناً وثب من البئر وفرَّ فتأملهُ فاذا هو يشبهُ الثعلب او الكلب فازداد استغرابهُ وبغت حماد وقال ما هذا يا سلمان ايخرج من الآبار ثعالب

قال اني في غاية الاستغراب من هذا الاتفاق . ان المكان هو هو بعينهِ وقد نزلت فيهِ منذ ست سنوات وشربت من مائهِ ورأيت الناس يستقون منهُ فلا ادري ماذا جرى لهُ فيلوح لي ان انزل في هذه البئر فاني اراها غير عميقة لعلي استطلع من امرها شيئاً ونزل قدماً ثم الثانية حتى ادرك القعر فاحس كأنهُ واقف على عظام فمد يده وامسك العظام بيده فاذا هي مدفونة كلها او بعضها بالتراب واستخرج شيئاً منها فتصاعدت عنها روائح كريهة ولمس عظاماً طويلة ومستديرة وكروية على اشكال شتى فاقشعرَّ جسمهُ لانهُ علم من اشكالها انها عظام آدميين فصعد للحال وقد هالهُ الموقف لم يشأ ان يخبر حماداً بذلك لئلاَّ يخاف وتاقت نفسهُ لاستجلاء حقيقة الامر عن تلك الجماجم والعظام ولكنهُ كتم ذلك واوعز الى حماد بالعود فعاد حماد وهو ينتظر ان يسمع شيئاً

جديدًا فلم يفه سلمان بكلمة فظلاً سائرين في ذلك المنخفض وحماد ينتظر حديث سلمان وسلمان يفكر في غريب ما رآه والليل هادئ لا يسمع فيه الأصوت وقع الحوافر فلما ابطأ سلمان في الحديث هم حماد بالسؤال عما رآه واذا بصوت جمل يهدر عن قرب فوقفا وانصتا ليعرفا جهة الصوت فاذا هو جمل منحدر من اعلى الجبل من الجهة التي جاءا منها اولاً فظناه احد الخادمين قادمًا لخبر جديد فلبثا واقفين ينتظران ما يكون واذا بالراكب في لباس غير لباس الخادم فتأملاه فاذا هو رفيقهما اليثربي فلما دنا منهما ناداهما فعرفا صوته فاجابه سلمان فتعارفوا

فلما وصل اليثربي اليهما قال ما الذي جاء بكما الى هذا المكان

قال سلمان جئنا نلتمس الماء

قال أتلتمسون الماء من هذا المكان وقد أصبح مجتمعًا للرمم ومعرضًا للجيف

قال سلمان لا اعرفه الا مستقى فيه ماء عذب وقد عجبت لما تقول وخصوصًا بعد ان رأيت الجماجم بنفسي ولمستها بيدي

فبغت حماد لذلك وقال أتقول الصدق يا سلمان

قال نعم يا مولاي قد لمست الجماجم والسواعد والافخاذ بيدي وكتمت ذلك عنك لئلا تهيب

قال حماد لقد عرفت سرّ سكونك كل هذه المدة وإنما اتوقع خطابك بعد نزولك الى قاع البئر ثم التفت الى اليثربي وقال وما الذي حوّل هذا الماء الى رمم وعظام

قال ان لذلك خبرًا طويلاً سأقصه عليكما متى جلسنا فقد جئتكما بالماء ووضعته عند خادميكما وراء هذه الاكمة وقد تستغرب بان مجيئي اليكما في هذا الليل على غير موعد بيننا واما السبب في ذلك فاني مللت في انتظاركما اليوم بباب المدينة فلما استبطأتكما جئت افتقدكما فلم اجدكما فعلمت من قرائن مختلفة انكما سرتما نحو هذه الآبار ولما كنت عالمًا بجفافها حملت اليكما قربة ماء وسرت اقتص خبركما حتى جئت الى خادميكما فقالا لي انكما تطلبان الماء من هنا فجئت اليكما على عجل كما تريان

قال ذلك واشار اليهما ان يتبعاه فركبوا وساروا جميعًا وكل منهم يتأمل هيبة ذلك المكان بعد ما علموا من امره حتى وصلوا اعلى الوادي وتحولوا نحو الخادمين وكانا في انتظارهم فلما وصلوا ترجلوا جميعًا وجلسوا على دكة فتناولوا الطعام وشربوا

وسقوا الخيل والجمال وسلمان وحماد ينتظران خبر بدر بفارغ الصبر

فلما استتب بهم الجلوس قال حماد اراني في قلق لا مزيد عليهِ فهل تتكرَّم علينا بخبر تلك الآبار

قال ان خبرها غريب يطول شرحهُ فاذا كنتم مستعدين لاستماعهِ الليلة قصصتهُ عليكم والاَّ فاني اقصهُ عليكم في الغد

فصاحا معًا بل تقصهُ علينا الليلة فان القمر قد ابدر وتاقت نفوسنا الى السمر الاَّ اذا كان في ذلك ثقلة عليك

قال اني شديد الرغبة في قص هذه الحكاية لانها تبين كرامة نبينا (صلعم) وبها يفتخر المسلمون كافة بعون

ثم جلسوا واخذ اليثربي يقص حكايتهُ وحماد وسلمان منصتان والجمالان يتطاولان عن بعد لاستماع الخبر

الفصل الثالث والاربعون

سبب الغزوات

قال اليثربي اعلموا اني اقص عليكم خبر اعظم واقعة حدثت في الاسلام وقد شهدها رسول الله (صلعم) بنفسهِ منذ نحو خمس سنوات وكنت في جملة المحاربين فرأيت وسمعت ما تشيب لهولهِ الاطفال

فقال سلمان ومن هم الذين حاربتموهم هناك

قال هم بنو قريش من اقرباء الرسول ولكنهم اعداؤهُ

قال . وكيف يكونون اقرباءهُ ولا يقومون لنصرتهِ بل يكونون اعداءهُ

قال ان لذلك خبرًا طويلاً لا استطيع بسطهُ الليلة ولكنني اذكر ملخصهُ تمهيدًا لذكر واقعة بدر التي نحن في صددها فارعوني سمعكم

قالوا كلنا آذان فشنف مسامعنا

فقال لا يخفى عليكم ان نبينا (صلعم) لما قام يدعو الناس الى الاسلام لم يجبهُ الاَّ نفر من قريش وظل اعامهُ واكثر ذوي قرابتهِ على دين آبائهم واكثرهم انما رغبوا عن هذا الدين القويم خوفاً على تجارتهم ان تكسد لما في تأييد الاسلام من احتقار الاوثان وإبطال عبادتها فيحط قدر الكعبة فيقل الحجاج اليها ومعاش قريش وسائر اهل مكة من التجارة ولا تجارة الاَّ بالحجاج فضلاً عما يتمتع به القرشيون من السيادة والنفوذ بيقاء الكعبة فانهم حجابها ولهم بذلك فخر وسؤدد .

فهذه الاسباب وغيرها حملت بني قريش على مقاومة نبينا (صلعم) ولكنهُ لم يحرم انصاراً شدوا ازرهُ وصدقوا بدعوتهِ ومنهم جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها على انهم لم يستطيعوا حمايتهُ من الاذى فهاجر وهاجروا معهُ الى مدينتنا يثرب التي كنا بالقرب منها البارحة فاستقبلناه بكل اكرام فنزل بيننا على الرحب والسعة وسررنا بهذا الشرف العظيم

ولا يخفى عليكم ان المدينة واقعة في الطريق بين مكة والشام فمن اراد تجارة او سفراً بينهما لا بد لهُ من المرور بها فاخذ (صلعم) من يوم نزولهِ المدينة يجمع الصحابة الذين هاجروا معهُ وهم المهاجرون والمدنيون الذين نصروهُ وهم الانصار ويخرج بهم للغزو او يرسلهم ويقيم فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام او غيرها بتجارة او اموال خرج برجالهِ ليغزوهم وما اصابهُ من مال او غيره وزعه على رجالهِ

الفصل الرابع والاربعون

غزوة بدر الكبرى

ففي السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى وسببها ان ابا سفيان بن حرب رجل قريش واكبر زعمائهم كان قادماً من الشام في ابل لقريش عليها اموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً او اربعون من قريش وكلهم من اعداء الاسلام وفي جملتهم عمرو بن العاص وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام

للاستفناء في طريقها الى مكة فلما علم رسول الله (صلعم) بمروره انتدبنا للخروج عليهم فعلم ابو سفيان بذلك فانفذ بعضاً من رجاله الى مكة يستنفرون الناس للقدوم الى الآبار لحماية اموالهم فكان الرجل منهم اذا وصل الى مكة وقف على بعيره وقد جدّعهُ وحوّل رحلهُ وشق قميصهُ وهو يقول « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ان اموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد واصحابهُ لا ادري ان تدركوها الغوث الغوث » فتجهز القرشيون سراعاً لم يتخلف من اشرافهم الاَّ من عجز عن المسير فبلغ عدد السائرين الف رجل ومئة فرس وسبعمائة بعير واما رجالنا فكان عددهم ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً وسبعين بعيرًا وفرسين . فسارت رجالنا من المدينة يتقدمهم النبي حتى وصلنا الى مكان اسمهُ الصفراء فبعث من يتجسس خبر ابي سفيان فقيل لهُ انهُ بالقرب من بدر فجمعنا في جلسة وجمع اصحابهُ المهاجرين معنا وشاورنا جميعاً وكان قد استطلع قوة العدو واطلعنا عليها وقال ما تقولون هل نحاربهم فاجابوا جميعاً بصوت واحد وقلب واحد موافقين وسأل الانصار فقالوا « فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضتهُ لخضناه معك وما نكره ان تكون تلقى العدو بنا غدًا لعل الله يريك منا ما تقرُّ بهِ عينك فسر بنا على بركة الله »

فلما سمع كلامهم اثنى عليهم وسار وسرنا جميعاً وكان ابو سفيان قد نزع الى الخديعة في اثناء تلك الفترة فسار من بين الآبار حتى تجاوزها والعير معهُ فلقي رجال قريش في مكان يقال لهُ الجحفة فخاطب اشراف قريش قائلاً ان العير والاموال قد نجت فارجعوا الى مكة وكان في جملة اولئك رجل اسمهُ ابو جهل لعنهُ الله عليهِ فأبى الاَّ ان يمرَّ بالآبار فساروا حتى دنوا من الوادي اما نحن فسرنا نطلب الآبار فنزلنا عندها ومنعنا الاعداء منها فتقدم زعيم الانصار منا وهو سعد بن معاذ وقال « يارسول الله نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيهِ ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله واظهرنا الله عليهم كان ذلك ما احببناه وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام ما نحن باشد حبًا لك منهم ولو ظنوا انك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك » فاثنى الرسول عليهِ خيرًا فبنينا لهُ عريشاً

وبعد قليل راينا غبار قريش ثم ظهرت رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح

يتقدمهم امراؤهم في افخر اللباس وكانوا اهل بذخ وترف وقد اخذت بهم الخيلاء والفخر فلما دنوا منا عسكروا امامنا ثم ارسلوا رجلاً منهم يحزرهم اي يقدّر عددهم فجال بفرسه قليلاً وعاد فأنبأهم بقلة عددنا فتشاوروا في الامر طويلاً وفيهم من يشير بالرجوع وكانوا بين ان يرجعوا او يهاجموا لان الماء في حوزتنا فاذا اشتوا كانهم هلكوا عطشاً فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم وقلتنا فاقروا على الهجوم فخرج منهم افراد طلبوا البراز فبارزناهم فقتلنا بضعة من كبارهم فهجم آخرون منهم وهجم بعض منا والتقى الفريقان وكان يوماً عظيماً خاف فيه المسلمون خوفاً شديداً لما رأوا من قلتهم وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول وقد رأى احتدام الحرب « اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الارض اللهم انجز لي ما وعدتني » قال ذلك وهو ينظر الى رجاله ويدعو لهم بالنصر وقد سمعت دعاءه بأذني لاني كنت في جماعة من الانصار مع سعد بن معاذ واقفين بباب العريش نحرس رسول الله (صلعم) خوفاً عليه من كرة العدو . ولقد رأيت ما كان من فتك المسلمين بالمشركين ما ينشرح له الصدر وخصوصاً لما رايت ابا جهل زعيم القرشيين مجندلاً يتخبط بدمه وكان اشد الناس عداوة لنبي الله ورأيت غيره من امرائهم مقتولين منهم حنظلة بن ابي سفيان وشيبة وعتبة وامية وغيرهم ورأيت اشد المسلمين فتكاً في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول فقد رايته يخترق الجماهير وفي صدره ريشة نعامة يتمازيها عن غيره

ومن غريب ما شاهدته من بسالة المسلمين في ذلك اليوم واستهلاكهم في نصرة الاسلام ان معاذ بن عمرو بن الجموح كرّ على ابي جهل المتقدم ذكره وكان محاطاً بزمرة من رجاله فاخترق الناس اليه فضربه ضربة اصابت ساقه فهجم عكرمة بن ابي جهل على معاذ بضربة قطعت يده فطرحها عن عاتقه ولكنها ظلت معلقة بجلدة من جنبه فما زال معاذ يقاتل كل ذلك اليوم ويده تجر وراءه فكنت انظر الى ذلك واشعر كأن يدي في مثل ذلك اما هو فلم يكن يبالي فلما آذته يده وعاقته عن الحرب جعل رجله عليها وتمطى حتى انفصلت فتركها وعاد الى الحرب . وكان في جملة جند المشركين العباس بن عبد المطلب فانه كان لايزال متردداً بين الاسلام وما كان عليه اجداده فلما حمل القرشيون على بدر حمل معهم مكرهاً فاسر في جملة من اسر ولكن اسره لم يطل لان النبي امر باطلاقه حالاً

ولم يمضِ زمن حتى رأينا المشركين همّوا بالفرار فقبضنا على جماعة كبيرة منهم ولما انقضت الحرب امر رسول الله ان يؤتى بجثث القتلى الى القليب فجيء بها فتكومت كومًا وفيها جثث نخبة امراء قريش وهي التي رايتم بقاياها في الآبار الليلة ثم جمعت الغنائم ففرّقت فيها على السواء وحملت بشائر النصر الى المدينة واخبار الويل الى مكة وقد كانت هذه المعركة قاضية على مشركي قريش اذ قتل فيها جماعة من الدّاعداء الاسلام واشدهم بطشًا وفي جملتهم ابو لهب عم الرسول وكان شيخًا كبيرًا لم يحضر الحرب فلما بلغتهُ نكبة القرشيين اشتد الامر عليهِ فمات بعد تسعة ايام

فاصبح زعيم القرشيين بعد هذه المعركة ابا سفيان الذي ذكرتهُ لكم وهو مشهور وكثيرًا ما يسير الى الشام فلا يخلو ان تكونوا قد رأيتموه هناك

فقال سلمان نعم رأيتهُ غير مرة وهو اشهر من ان يذكر

فقال وسترونهُ قريبًا عند وصولكم مكة فانهُ عاد اليها منذ بضعة اسابيع

فلما سمعا ذكر أبي سفيان توهما ان يكون عبدالله معهُ ولكنهما كتما ذلك

ثم قال اليثربي واصبحت الآبارُ بعد تلك المعركة مهجورة وقد القوا الجثث فيها فانتنت وبطل موسمها السنوي من ذلك الحين

هذه هي حكاية الآبار فاشكروا الله انكم لم تلقوا فيها وحشًا ضاريًا او نحوه فلنبت الليلة هنا ولنعد في الغد الى المدينة نمكث فيها يومًا ثم تسيرون منها في قافلة الى مكة والاَّ فاختاروا لانفسكم

فاعجب حماد بشهامة ذلك الرجل وغيرتهِ عليهم ورغبتهِ في انقاذهم وقال اننا والله شاكرون لحسن صنيعك جزاك الله خيرًا وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع ان نكون طوع بنانك نسير معك حيثما سرت ولكننا نرى سرعة المسير الى مكة لعلنا نلتقي فيها بأبي سفيان قبل خروجه منها

فقال اليثربي العلكم تعاملونهُ معاملة التجار فان لهُ علاقات كثيرة مع تجار الشام

قال سلمان لا علاقة تجارية بيننا وبينهُ ولكننا نفتش عن صديق لنا سار برفقتهِ من بيت المقدس

فقال اليثربي انصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير فهل تنتصحون بها

قالا نعم ويكون لك علينا الفضل

قال انصح لكم اذا لقيتم احداً من المسلمين في المدينة او غيرها وعرض ذكر ابي سفيان فلا تذكروا علاقة بينكم وبينه فان ذلك يوقع عليكم شبهة وربما يلحق بكم من جراء ذلك ضرر

فقال سلمان لقد اخلصت النصيحة واردت بنا خيراً فشكراً لك على ذلك ونحن لو لم نتوسم فيك الاخلاص لما فرط منا ذكر هذا الرجل على انا لم نقل اننا اصدقاؤه وانما قلنا ان صديقاً سار برفقته

فقال اليثربي ومهما يكن من الامر فقد نبهتكم الى ما لا يخلو من فائدته

قال حماد لا ريب من ذلك عندنا فنشكرك عليه شكراً جزيلاً

وكان قد مضى معظم الليل وغلب النعاس على الجميع فنهضوا للرقاد فلما اصبحوا خيرهم اليثربي في الذهاب معه الى المدينة او الذهاب الى مكة توّاً فاثنوا عليه واعتذروا بانهم يؤثرون المسير توّاً الى مكة على نية ان يمروا بالمدينة في عودتهم فاطاعهم واوصاهم وصايا تتعلق بسفرتهم وودعهم وعاد الى المدينة وتركهم يستعدون للسفر الى مكة

الفصل الخامس والاربعون

﴿ بكر وخزاعة ﴾

فلما خلا حماد بنفسه تذكر حالة مع هند وما هو ذاهب من اجله وكان في اثناء حديث اليثربي عن ابي سفيان يهمّ بالاستفهام عن والدِه ثم يخاف العاقبة فيمتنع واخيراً صبر نفسه ريثما يصل مكة ويلتقي بابي سفيان

وفي صباح اليوم الثاني ركبوا وساروا لا يلوون على شيء فامسى المساء وقد ادركوا بقعة من الارض يكسوها المرعى وفي احد جوانبها شجرة تحتها عين ماء عذب اعتاد المارة الجلوس اليها التماساً للراحة من وعثاء السفر اثناء مرورهم بين مكة والمدينة

فجلسوا الى الشجرة واوقدوا ناراً يستضيئون بها او يستخدمونها في معالجة طعامهم

تلك الليلة . حتى اذا اكلوا جلسوا يتسامرون ريثما يتغلب عليهم النعاس فلما انقضى الهزيع الاول من الليل هموا بالرقاد وقد امروا الخادمين ان يتناوبا السهر خوفًا من طارىء يفاجئهم ولم يكد يغمض لهم جفن حتى افاق سلمان فسمع ضوضاء عن بعد فالصق اذنه بالارض فتبين له ان بضع عشرات قادمون من مكة مسرعين ومعهم الخيول وعلم انهم نازلون عند تلك العين لا محالة فخاف ان يكون عليهم من نزولهم بأس فالتفت الى حماد فاذا هو لا يزال نائمًا فتردد بين ان يوقظه او ان يتركه نائمًا وفيما هو يتردد أفاق حماد من تلقاء نفسه فرأى سلمان جالسًا على فراشه فبعث وناداه واستطلعه الخبر

فقال كنت عازمًا على ايقاظك لو لم تستيقظ من تلقاء نفسك

قال سلمان وما سبب ذلك

قال اني اسمع اصوات خيول واناس قادمين من جهة مكة فاخشى ان يكونوا سائرين في حرب وربما اوقعوا بنا سوءًا

فقال حماد وما الرأي اذن .

قال الرأي ان نتواطىء على كلام نقوله لهم يضمن لنا النجاة فقال وما هو

قال يغلب على الظن ان القادمين من اهل مكة الذين لم يؤمنوا بالنبي الجديد وانهم يريدون المدينة لحرب او لاستطلاع فهم من اعداء المسلمين وعلينا نحن ان نتجاهل امر الاسلام ونتظاهر باننا انما جئنا نريد الاعتمار في مكة

فقال حماد وما معنى الاعتمار ان ذلك لا أثر له في ديننا

قال هو الحج الى الكعبة والكعبة حج يؤمها الناس من اقاصي الارض على اختلاف الملل والنحل فاذا قلنا اننا غرباء قاصدون زيارة الكعبة لا يستفشوننا

فقال حماد افعل ما بدا لك وكن انت المتكلم عني

ولم يكادا يتمان الحديث حتى جاء خادمه سلمان ينبئهم ان الجمع قد اقترب وانهم يقصدون ذلك الماء

فلبثوا تحت جنح الظلام ينتظرون وصولهم وقد زادوا نارهم وقودًا استئناسًا بالنور

فلم يمض قليل حتى وصل الماء فارسٌ ملثم فلما اقترب من النار نادى من القوم

النزول ههنا

فقال سلمان عرب من لخم ومن انت

قال عرب من خزاعة وما الذي جاء بكم الى هذا المكان

قال سلمان جئنا لزيارة البيت الحرام

قال هل مررتم بالمدينة

قال مررنا بها عن بعد ولم ندخلها

وما اتمّ كلامهُ حتى وصل رفاقهُ وفيهم الفارس والراجل فترجلوا جميعًا ودنوا من الماء فتفرس فيهم سلمان يسبر عددهم فاذاهم نحو الاربعين يتقدمهم رجل بلباس فاخر لم يستطع معرفتهُ لشدة الظلام وكان هذا الرجل هو وجيه القوم يأمرهم وينهاهم فعلم سلمان انهُ رئيسهم وكان قد امرهم ان ينصبوا خيمة بالقرب من تلك الشجرة فاخذوا في ذلك وسلمان ينظر اليهم ثم لاح لهُ ان يستطلع حقيقة حالهم من زعيمهم فدنا منهُ وحيّاه فرد الفارس التحية والارتباك ظاهر على وجههِ ولكنهُ التفت الى سلمان وقال قد انبأني دليلنا انكم من لخم فهل انتم قادمون من العراق

قال نعم يامولاي

قال ونحن نعلم ان اللخميين في العراق من اهل النصرانية

قال نعم ونحن كذلك

قال وكيف تقول انكم جئتم لزيارة البيت الحرام والنصارى يحجون الى بيت المقدس

فبغت سلمان ولبث برهة صامتًا لا يدري بماذا يجيب وظهر الارتباك على وجههِ ولكنهُ تجلد وقال وهل تقفل ابواب الكعبة دون النصارى اذا جاؤُها معتمرين

قال كلاَّ فان الناس يقدمون اليها من اقاصي العالم على اختلاف الملل والنحل ولكن النصارى قلما يجيئونها وزد على ذلك ان الوقت ليس وقت الحج فاصدقني الخبر

قال سلمان ليس في حقيقة خبرنا ما نخشى بيانهُ ولكنني رأيتكم جمعًا كبيرًا فارتبنا من امركم فاذا علمنا من انتم افدناكم عن حقيقة امرنا

وفيما هو يقول ذلك جاءهُ رجل يقول ان الخيمة قد نصبت والمائدة أُعدّت فالتفت الى سلمان قائلاً اذا شئت ان تضيفنا على الطعام اتممنا الحديث فاننا نحتاج

بعد طول السفر الى الراحة

فقال فلنترك اتمام الحديث الى صباح الغد

قال حسنًا وافترقا فسار سلمان الى سيده فاذا هو لا يزال جالسًا على فراشه ينتظر عودته بخبر القوم فلما رآه عائدًا استطلعه الخبر فأنبأه بما كان واستمهله الى الغد يستطلع الحقيقة

فبات تلك الليلة على حذر ولما اصبح الصباح خرج سلمان الى مضرب القوم فاذاهم اكثرهم من الفرسان وتأمل لباسهم وحالهم فاذاهم من اهل الحجاز ففكر في امرهم فرأى ان يصطحب سيده لان يسيرا معًا الى رجل الامس فاصطحبه وسارا

فلما وصل الخيمة استأذنا في الدخول فاذن لهما فدخلا فوجدا الرجل جالسًا على وسادة مقطب الوجه كأنه يفكر في امر مهمة فلما وقع نظره على سلمان وقف له ورحب به فبالغ سلمان في الاعتذار لما سببه له من المشقة بتلك الزيارة ولكنه قدم سيده في الجلوس فادرك صاحب الخيمة انه سيد له فرحب به بنوع خاص واجلسه الى جانبه ثم التفت الى سلمان وقال لأرى ضيفنا في هذا الصباح عراقيًا ايضًا

قال سلمان نعم يا سيدي انه امير من امراء العراق وانا خادم له فهل يتفضل سيدي بالافادة عن اسمه

قال اني عمر بن سالم الخزاعي من بني كعب سائر في[1] جماعة من خزاعة نريد المدينة

فقال سلمان العلكم من اهل مكة

قال نعم نحن نقيم في مكة ولكننا سائرون الى المدينة في مهمة فهل انتم قادمون منها

قال كلاّ يا مولاي لم نكن في المدينة ولكنا مررنا بها عن بعد

قال يا حبذا لو انكم دخلتموها

فتعجب سلمان لتمنيه هذا وعهده باهل مكة اذ ذاك اعداء لاهل المدينة على اثر ما كان من مهاجرة النبي واصحابه منها

فقال هل تأذن لي بسؤال يزيل عني الالتباس

قال تفضّل

---

(١) السيرة الشامية

قال قلتم انكم من اهل مكة تقصدون المدينة وقد بلغنا ان بينكم وبين اهل المدينة عداوة

قال صدقتم ولكن بين اهل مكة جماعة كبيرة هم على دعوة اهل المدينة اي انهم مسلمون ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفًا من كبار قريش ان يصيبوهم بسوء [1] على انني سالتكم عن حقيقة امركم فلم تجبني فهل انتم سائرون الى مكة للحج حقيقة

قال سلمان اما وقد آنسنا فيك ما آنسناه من كرم الخلق وحسن الوفادة فاني اطلعك على جلية امرنا لعلك تكون لنا عونًا في ما نحن فيه

قال وما ذلك

قال نحن يا سيدي كما قلت لك من اهل العراق وهذا الامير حماد سيدي وقد جئنا قاصدين مكة للتفتيش على الامير عبد الله والد مولاي هذا فقد قيل لنا انهُ جاء الحجاز برفقة ابي سفيان منذ اشهر فهل تعلم عنهُ شيئًا

قال اذكر اني شاهدت ابا سفيان بعد عودته من الشام هذا العام ولكنني لم اعلم شيئًا عن الامير عبد الله فربما كان معهُ ولم أرهِ

فقال سلمان هل يخبرني سيدي عن سبب قدومهِ الى المدينة وهو من اهل مكة فاني اخاف ان يكون وراء مجيئكم ما يدعو الى حرب تقفل بها ابواب مكة دوننا

قال أما سبب مجيئنا الى المدينة فهو اننا من خزاعة كما اخبرتكم وقد كانت قبيلتنا في خصام مع قبيلة اخرى يقال لها بنو بكر فكان النزاع بيننا لا يفتر حتى ظهر الاسلام وكانت الغزوات فجاء المسلمون منذ عامين الى الحديبية بالقرب من مكة ومعهم سهام بريدون الاعتمار فخاف اهل مكة ان يكونوا عازمين على حرب فمنعوهم من دخولها ثم كانت خصومة انتهت بعقد أُبرم بين المسلمين وقريش يقضي بهدنة وسلام فدخل بنو بكر في عقد قريش ودخلنا نحن في عقد المسلمين ثم رجع المسلمون واطمأنت قلوبنا فلما دخل هذا العام رأينا من بني بكر خروجًا عن العقد فتعرضوا لنا وقتلوا منا بعضًا ورأينا بني قريش يضافرونهم على ذلك فاعتبرنا هذا العمل نقضًا للعهد الذي كان معقودًا بينهم وبين المسلمين وكاني بالقرشيين ساعون الى حتفهم بظلمهم فقد كانت

---

(1) السيرة الحلبية

مكة آمنة مطمئنة فعرضوها للهجمات المسلمين لاننا لما استفحل الامر علينا و رأينا القرشيين يعاونون البكريين علينا جئنا بهذا الجمع نريد المدينة لنبلغ ذلك الى صاحب الرسالة الاسلامية

فقال سلمان وما ظنك به بعد ذلك

قال اظنه يحمل على مكة برجاله فيفتحها عنوة و في فتحها عزٌّ للمسلمين

فقال سلمان يظهر انكم على دعوة صاحب الرسالة فهل انتم مصدقون لما جاء به

قال لقد جرَّنا الحديث الى امور طالما وددنا كتمانها ولكننا اصبحنا في حال لا نرى معها بدًّا من التصريح فاننا نرى صاحب هذه الدعوة صادقًا في دعوته ولا نظنه الا غالبًا ومما يدلنا على ذلك نصرته في حرو به حيثما توجه

فعاد سلمان الى ما هم فيه من امر القرطيين والامير عبد الله فاخذ يفكر في وسيلة يستخدم بها تلك الفرصة فقال اما وقد آنسنا منك هذه الشهامة فهل ترى ان تهدينا الى سبيل نتصل به الى ابي سفيان للبحث عن مولاي الامير عبد الله

قال وما الذي عساي ان افعله في هذا القبيل

قال توصي بنا رجلاً من خاصتك نثق باخلاصه وتعقله ليدربنا في مكة لاننا غرباء والغريب اعمى ولو كان بصيرًا

ففكر عمر ساعة ثم قال لي في مكة عمٌّ شيخ يقيم في الكعبة نهارهُ كلهُ وهو واسع الاطلاع نافذ الكلمة لدى ابي سفيان فاذا لقيتموه واستعنتموه في شأن هداكم الى سواء السبيل واسمهُ حرب فاذا دخلتم مكة وجئتم الكعبة اسألوا عن حرب الخزاعي فاذا لقيتموه رأيتم فيه شيخًا طاعنًا في السن فقولوا له ان ابن اخيك عمر بن سالم يقرئك السلام واذا وصفتم له حالنا وما شرحته لكم من امر خزاعة وبكر علم انكم صادقون في قولكم فاسألوه ما شئتم فانه خير مرشد لكم في ما تريدون

فنهض حماد عن ذلك واثنى على عمر وودعاه وانصرفا الى خيمتهما

وبعد قليل نهض الركب الخزاعي ويمموا المدينة وقد سرَّ سلمان لتلك الصدفة وامَّل ان ينال بها خيرًا



الفصل السادس والاربعون

مكة المكرمة

وفي ظهيرة ذلك اليوم ركبوا يريدون مكة فوصلوها بعد مسيرة يوم فدخلوها فرأوا اهلها في هرج ومرج لا حديث لهم الاَّ ام خزاعة وبكر فساروا في طرقها لا يستغشهم احدٌ لكثرة الواردين على الكعبة من الغرباء وإرادوا المسير الى الكعبة في ذلك اليوم فقال سلمان هلمَّ بنا الى خان ننزل فيه بجمالنا واثقالنا ثم ننزل الكعبة او انزل انا وحدي اتجسس الاخبار واعود اليك فقصدوا خانًا بالقرب من الكعبة نزلوا فيه فبدلوا ثيابهم وتناولوا طعامًا واستراحوا بقية يومهم وسلمان يفكر في وسيلة تكفل لهم نجح مسعاهم

فلما اصبحوا في اليوم التالي قال سلمان امكث هنا يا مولاي ريثما اتدبر الامر بنفسي وآتيك بالاخبار واذا ابطأتُ عليك فلا ينشغل بالك

قال حماد سر بحراسة الله

فخرج سلمان وقد تزيَّا بزي اهل الحجاز لا يريد بذلك تنكرًا ولكنه خاف ان يكون غريب لباسه موجبًا لاستلفات الانظار اليه فوصل المسجد الحرام فدخل من بعض ابوابه فرأى في ساحته جماعة كبيرة عراة يطوفون [1] وفيهم الواقف والجالس والراكع ورأى في بعض الجوانب جماعات جالسين يتحادثون ويتشاورون فسار هنيهة فرأى في وسط الساحة بناء مربعًا تجلله استار من القباطي علم من طواف الناس حولها انها الكعبة تجللها الاستار فلم يجسر على الطواف حولها او الدنو منها ولكنه نظر الى داخلها عن بعد فرأى فيها احجارًا قائمة علم انها الانصاب ورأى حول الكعبة وفوقها اصنام هائلة رأى بعض الناس يحلقون ويغتسلون حولها فاذهله كل ذلك وقال في نفسه اذا لم يكن في قيام الاسلام غير هدم هذه الانصاب وإبطال عبادتها فلكفى به فضلاً

ثم تأمل في بناء الكعبة واخذ يفكر في امر القرطين وكيف يمكن ان يكونا هناك

---

(١) السيرة الحلبية

وإذا وجدا فابن يمكن ان يكون موضعها فلم يزدد الاّ ابهامًا ولا زادتهُ تلك الزيارة الاّ يأسًا

ثم تحوّل نحو الجماهير لعلهُ يرى ذلك الشيخ فطاف المكان يسأل عنهُ باسمهِ فقال لهُ بعضهم انهُ خرج الى منزلهِ بالامس لتوعك اصابهُ فسأل عن منزلهِ فقيل لهُ انهُ في مر الظهران بضواحي مكة (١)

فخرج الى مر الظهران وفيما هو في طريقهِ اليها يسأل عن الطريق ويستفهم عن الرجل رأى اهل مكة في هرج يجتمعون جماعات ثم يتفرقون كانهم في خوف من امر ذي بال فعلم انهم يتحدثون بامر اهل المدينة ومر بجماعة منهم كبيرة قد تألبوا امام منزل فخيم قد ربطت حولهُ الخيول فعلم انهُ بيت امير كبير فسأل عن صاحبهِ فقيل لهُ انهُ منزل ابي سفيان فلما سمع اسمهُ شكر الله وصوله اليهِ تلك الساعة على غير انتظار واخذ يتفرس في وجوه الناس لعلهُ يرى سعيد بينهم فلم يجدهُ فسأل بعض الوقوف عنهُ فاخبره بعضهم انهُ فارقهم بقرب عمان وانهُ لم يروه من ذلك الحين فأسف لذلك اسفًا شديدًا واظلمت الدنيا في عينيهِ وتشاءم من تلك الصدفة ولكنهُ تجلد وسار في طريقهِ الى مر الظهران وهو غارق في بحار الهواجس فوصل المكان بعد العصر فسأل عن منزل حرب فدلوه عليهِ فجاءهُ وهو لا يرجو ان يصيب منهُ خيرًا

فسأل عن الرجل فقيل لهُ انهُ مصاب بمرض شديد فلا يستطيع ان يخاطب احدًا فعاد على عقبيهِ كاسف البال وقد اخذ منهُ اليأس مأخذًا عظيمًا لا يدري كيف يلاقي حمادًا

فوصل الخان والليل قد سدل نقابهُ فرأى حمادًا في انتظاره على مثل الجمر فتظاهر بالتجلد ولم يخبره بخبر والده ولكنهُ انبأه بمرض حرب ووعده بان يواصل السؤال عنهُ حتى يشفى من مرضهِ على انهُ لم يكن يرجو شفاءهُ لشيخوختهِ وعجزه ولكنهُ القى اتكالهُ على الله وصبر نفسهُ

وقضى سلمان شهرًا يتردد على بيت حرب يسأل عنهُ ويدعو لهُ بالشفاء وعلم سلمان بعد ذلك ان الشيخ آخذ في التقدم نحو الشفاء فعادت اليهِ آمالهُ

---

(١) السيرة الشامية

فسار اليه ذات يوم وهو يرجو ان يقابله ويشكو اليه امره وفيما هو في الطريق رأى اهل مكة في قلق شديد فمر بمنزل ابي سفيان لعله يتنسم خبراً عن سيده فرأى المنزل قفراً فسأل عن السبب فقال له مخبر ان ابا سفيان لما سمع بقدوم المسلمين على مكة خرج اليهم وربما اعتنق دينهم لانه خرج خائفاً فسأل سلمان عن جند المسلمين فقيل له انه قادم وقد صار على مقربة من مكة

فتفرس سلمان في اهل مكة فرأى علامات الفشل ظاهرة على وجوههم فسمع بعضهم يمدح الاسلام وينقم على ابي سفيان وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم ونكثهم عهد بني خزاعة فعلم ان الامر عائد للمسلمين لا محالة فخرج من مكة حتى جاء مر الظهران واراد السؤال عن حرب فرأى الناس يهرعون والنساء يولولن وينادين بالويل والثبور فالتفت فرأى الغبار يتصاعد عن بعد فصعد على اكمة في ضواحي مكة يرى ما يكون فرأى الغبار قد شف عن جند متكاثر تتقدمهم الفرسان بالرايات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين وكان ذلك في شهر رمضان فعسكر الجند على مسافة من مكة وعاد سلمان الى الخان خوفاً على سيده من غائلة ذلك الفتح وفيما هو سائر في الطريق رأى كوكبة من الفرسان يتقدمهم ابو سفيان عائداً من سفرته وهو يدعو الناس الى الاسلام بالتحذير والتهديد مع النصيحة فلم يسمع الا ازدراء واحتقاراً وسمع رجاله ينادون « من يدخل منزل ابي سفيان او منزل العباس بن عبد المطلب فهو آمن من سيوف المسلمين ومن يدخل المسجد او يدخل منزله ويغلق بابه فهو آمن » فاطمأن بال سلمان

فسار وهو يزاحم الجماهير في الاسواق فرأى اسراباً من القرشيين يتأهبون للقاء المسلمين وفيهم الفارس والراجل فلم يكد يصل الخان حتى فرغ صبره فدخل فرأى حماداً قد لبس ثيابه استعداداً للخروج فقال له ما بالك يا سيدي ؟

قال استبطأتك ورأيت الناس في هرج فخرجت لارى ما يكون

قال لا تعجل فقد علمت ما لم تعلم اجلس لاقص الخبر عليك قال قل وما ذلك

قال قد بلغك خبر الخزاعيين وما كان من نكث عهد قريش وقد كنا نتوقع قدوم المسلمين بسبب ذلك لفتح مكة فتحقق ظننا لان المسلمين جاؤوا وهم الآن في

ضواحي مكة واظنهم يهاجمون غداً وقد علمت ان ابا سفيان سار الى المسلمين وسلم وعاد يدعو الناس الى الاسلام بعد ان كان من الدّ اعدائه كما تعلم وسمعت رجاله ينادون بالامان على كل من يدخل منزله او منزل العباس عم صاحب هذه الرسالة او يدخل المسجد او يغلق بابه فنحن اذا اغلقنا بابنا كنا في مأمن والا فلنذهبن الى المسجد فانه خير ملجأ فما الرأي

قال حماد ارى ان نغلق بابنا ولكننا نكون مع ذلك في خطر اذ ربما يعتدي علينا احدٌ سهواً فالمسير الى المسجد اولى فهل انت تحقق هجومهم على المدينة غداً

قال لا ادري ولكنني ساخرج صباحاً وآتيك بالخبر اليقين

الفصل السابع والاربعون

فتح مكة

وباتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد فبكر سلمان الى اكمة الامس فاشرف على جيش المسلمين فسار اليه يستطلع الخبر فلم يكد يبلغه حتى رآه قد اصطف ومشى يتقدمه الفرسان واصحاب الرايات وفيهم قبائل اسلم وغفار واشجع وسليم وغيرهم فتأمل عددهم فاذا هو يزيد على عشرة آلاف وشاهد في الوسط موكباً هائلاً وفي وسطه راحلة عليها رجل معتجر بشقة حمراء (١) وعلى رأسه عمامة سوداء حرقانية واضعاً رأسه على رحله وشاهد على الرحل وراءه رجلاً رديفاً فعجب لذلك واشتاق لمعرفته فرأى قادماً من جهة الجيش فسأله عن هذا الموكب فقال انه موكب رسول الله وان الراكب هو الرسول نفسه قد جعل رأسه الشريف على رحله واردف اسامة بن زايد خادمه (٢) تواضعاً فعجب سلمان لذلك المشهد البهج وقال في نفسه لا عجب اذا نصر من كانت هذه خلاله ثم سأل الرجل عن عزمهم على الفتح فقال له انهم سائرون الى مكة من اعلاها في تلك الساعة وان فرقة منهم سائرة بامارة خالد بن الوليد من اسفلها فهرول سلمان باسرع من لمح البصر فاعترضه جموع القرشيين يتأهبون للدفاع وفيهم الفرسان

(١) البخاري (٢) السيرة الشامية

ولكن الفشل كان يخلى على وجوههم وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعور يستقبلن الرجال بالاناشيد وفي ايديهنّ الخمر يضربن بها وجوه الخيل تحريضًا وتوبيخًا فلم يزدد من تلك المناظر الّا رهبة وخوفًا وتحقق اذ ذاك ان المسلمين فاتحوها لا محالة فما زال سائرًا حتى اتى الخان فقال هيا بنا سيدي الى المسجد فانهُ خير ملجاء لنا

فاقفلا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا في بعض جوانبهِ فرأوا الناس هناك زرافات ووحدانًا وقد استولى عليهم الخوف

وبعد ساعات قليلة ضج الناس في المسجد وهم يقولون « محمد اقبل رسول الله صلى الله عليهِ وسلم » فتحقق سلمان ان الفتح قد تمّ للمسلمين فوقف ومعهُ حماد في موقف يرى النبي وهو داخل المسجد فما لبث ان سمع الناس يكبرون ورأى النبي داخلاً على قدميهِ ووراءه رجل من اصحابهِ آخذ بزمام ناقتهِ فطاف حول الكعبة سبعًا وفي كل مرة كان يأخذ الحجر الاسود بمحجنهِ والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم فاشار اليهم ان اسكتوا (۱)

وكان في المسجد ثلاثمئة وستون صنماً لكل حي من احياء العرب صنم قد شدوا اقدامها بالرصاص فجاء النبي وفي يدهِ قضيب فجعل يهوي على كل صنم منها فيهوي على وجههِ او قفاه وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقًا (۲)

وكان سلمان وحماد ينظران الى ذلك ويعجبان ثم رأياه جاء الى صنم كبير الى جانب الكعبة كان قد عرفا انهُ هبل الاكبر فكسره وكان في الكعبة صور شتى للانبياء وفيها صورة ابراهيم واسماعيل وعيسى ومريم عليهم السلام فامر بها فمسحت كلها (۳)

ولما تكسرت الاصنام وامحيت الصور جلس النبي في ناحية المسجد وعلى رأسهِ شيخ وقور علم بعد ذلك انهُ ابو بكر الصديق ثم امر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلّى فيها ركعتين

ثم وقف على باب الكعبة والناس وقوف صامتون كأن على رؤوسهم الطير فقال « لا اله الا الله وحده لا شريك لهُ صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيرًا من الاحكام منها « لا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث اهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها والبينة

---

(۱) السيرة الحلبية (۲) السيرة الشامية (۳) السيرة الحلبية

على المدعي واليمين على من انكر ولا تسافر المرأة ثلاثة ايام الاّ مع ذي حرم ولا صلاة بعد العصر و بعد الصبح ولا يصام يوم الاضحى ويوم الفطر » ثم قال « يا معشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والناس من ادم من تراب » ثم قال « ماذا تقولون وماذا تظنون اني فاعل فيكم » قالوا « خير أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت » فقال « اقول قال كما اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين اذهبوا فانتم الطلقاء » (١) وقال اقوالاً اخرى ادهشت حماداً وسلمان لما حوته من الحكمة والموعظة فنظر سلمان الى حماد وقال والله اني لأعجب لاناس قاوموا هذا النبي وهذه تعاليمه واقواله ولا ريب عندي ان سلطانه سيتسع حتى يغطي الارض ويمحو دولتي الروم والفرس

ثم التفت حماد فرأى القرشيين يعتنقون الاسلام وهم يصلون ويهنئ بعضهم بعضاً وقد هدأت الاحوال وآب الناس الى السكينة وانطلقوا الى منازلهم واشغالهم فخرج سلمان وحماد الى الخان

فلما استتب بهما الجلوس هناك التفت حماد الى سلمان فقال له لقد شغلتنا بهذه الاحوال عما جئنا من اجله ولقد نظرت الى الكعبة فعظم عليّ امر القرطين ولم افهم ابن موضعهما ولا كيف استطيع الوصول اليهما وخصوصاً بعد هذه الحروب ودخول مكة في حوزة المسلمين

فقال سلمان الم اقل لك يا سيدي ان عمك سامحه الله قد اقترح عليك امراً مستحيلاً ولكننا سنسأل الشيخ الخزاعي ونرى رأيه في الامر وليس بعد الجهد حيلة

فقال حماد وقد فاتنا استطلاع امر والدي من ابي سفيان

فتنهد سلمان ولم يجب

فعجب حماد لسكوته فقال له ما بالك لا تجيب

فقال بماذا اجيبك وليس في الجواب فائدة

فقال الملك سألت عنه ولم تظفر به

قال نعم يا مولاي ان سيدي ليس مع ابي سفيان فقد علمت انهم فارقوه عند عمان ولم يروه من ذلك الحين

---

(١) السيرة الحلبية

فانقبضت نفس حماد لذلك الخبر وبهت مدة لايتكلم ثم قال والدموع تكاد تترقرق في عينيه ارى يا سلمان ان الله قد اعدَّ لنا ايام تعاسة ولا تنقضي والظاهر ان نجم سعدي قد افل يوم خروجنا من الملقاء قال ذلك وتساقطت الدموع من عينيه على الرغم منه .

فتجلد سلمان وقال له تشجع يا سيدي ولا تيأس فان الله لايتركك ولا يهملك وانت ايضاً تسعى في ما يؤول الى رفع منزلتك رغبة في ارضاء فتاة انت تحبها وهي تحبك .

فلما سمع كلمات سلمان تذكر هنداً وحبها وما آنسهُ من ضعف الامل في الحصول عليها فلم يتمالك عن البكاء . وسلمان ساكت لا يرى ما يعزيه به فقال له ان البكاء شأن النساء يا سيدي وعهدي بك — حازم باسل لا تجزعك حوادث الايام فاصبر ان الله مع الصابرين

قال انا اعلم يا سلمان ان البكاء عار على الرجال ولكن الحب . . . . . آه من الحب آه من ثعلبة آه من جبلة . وسكت

فاخذ سلمان يخفف عنه ويؤمله بما سيسمعونه من الشيخ الخزاعي فسكت

الفصل الثامن والاربعون

اليأس

وفي صباح اليوم التالي خرج سلمان الى مر الظهران يطلب ذلك الخزاعي فعلم انه نقه من مرضهِ والتمس مقابلته فادخلوه عليه فاذا هو شيخ هرم قد احناه الكبر حتى ابيض شعر لحيته واسترسل على صدره وتجعد وجهه وغارت عيناه وغطاها شعر الحاجبين فحياه سلمان فردَّ التحية واشار اليه ان يجلس الى جانبه ففعل .

فبدأ سلمان بالسؤال عن صحته ثم استطرد الى آخر الفتح ثم عرفه بنفسه وما جاء من اجله فرحب به

فقال سلمان قد جئناك يا سيدي نستطلع امراً يهمنا كثيراً ولا نرى احداً سواك يستطيع مساعدتنا فيه

فقال مرحبًا بك قل ما بدا لك

قال رجوان يكون كلامنا سرًّا لا يعرف به احد سوانا

قال قل لقد وقعت على خزانة اسرار

قال نحن نعلم ان احدى ملكات غسان واسمها مارية أهدت الكعبة قرطين ثمينين منذ نحو قرنين فهل تعرف شيئًا من ذلك

ففكر الشيخ قليلاً ثم قال نعم يا ولدي اني اعلم ذلك

قال سلمان فهل تعلم مكان هذين القرطين الآن قال ان حكاية هذين القرطين اصبحت في خبر كان لان الكعبة قد هُدِمت وبنيت مرارًا بعد اهداء زينك القرطين وآخر مرة هدمت فيها كانت منذ نحو اربعين سنة وبناها عبد المطلب جدّ نبينا صلى الله عليه وسلم الذي شاهدتم فتحهُ مكة امس وهو الذي تولى رفع الحجر الاسود حينئذٍ ووضعهُ في مكانهِ قبل ظهور دعوتهِ ببضع سنين فقد كانت القبائل مختلفة على من يحمل ذلك الحجر الشريف ويضعهُ في مكانهِ وحاولت كل قبيلة اكتساب ذلك الشرف لما تحكّموا هذا النبي في ما بينهم وهم لا يعلمون شيئًا من كرامتهِ فاشار بوضع الحجر في ملاءة واسعة واوعز الى كل قبيلة ان تحمل بطرف من اطرافها وبذلك انحسم الخلاف والخلاصة ان القرطين لا يعلم احد بمكانهما الآن والارجح انهما بيعا الى احد المتجولين والبحث عنهما يعدّ من قبيل العبث

فتكدر سلمان لذلك الامر والتفت الى الشيخ قائلاً فهل تظن البحث عن القرطين عبثًا

قال هذا ما اراه على ان دخول الكعبة لمثل هذا الغرض امر مستحيل اليوم بعد دخولها في حوزة الاسلام

فانقبضت نفس سلمان ولم يعد يستطيع البقاء هناك فنهض فودّع الشيخ وخرج الى حماد وكان ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما رآه استطلعهُ الخبر فاطلعهُ على حديث الشيخ وهو يكاد يبكي لشدة الاسف ولكنهُ اقترح حديثهُ بعبارات التعزية وأملهُ بوسيلة يتخذها للتعويض عن هذين القرطين امام هند على ان ذلك لم يكن ليخفف شيئًا من قلق حماد

❋ مؤلفات جرجي زيدان منشىء مجلة الهلال بمصر ❋

(١) « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الأيام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه ماية رسم واربع خارطات ثمنهُ ٤٠ غرشا صاغًا واجرة البوسطة ٥ غروش

(٢) « تاريخ الماسونية العام » منذ نشأتها الى هذه الايام ثمنهُ ٣٠ غرشًا واجرة البوسطة غرشان

(٣) « التاريخ العام » الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصًا مصر ثمنهُ ٨ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(٤) « الفلسفة اللغوية » فيها بحث تحليلي الالفاظ العربية ثمنها ١٠ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٥) « جغرافية مصر » (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصًا القاهرة ثمنها وحدها ٣ غروش ومع الخارطة ٥

(٦) « اسير المتمهدي » رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان

(٧) « المملوك الشارد » (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغفور لهُ محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٨) « استبداد المماليك » (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الماضي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٩) « ارمانوسة المصرية » (طبعة ثانية) رواية تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(١٠) « فتاة غسان » تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلاميتهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام الجزء الاول . ثمنهُ عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(١١) « جهاد المحبين » رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

(١٢) « رد ربان » ردٌّ على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنهُ غرش واحد

(١٣) « مجلدات الهلال الاول والثاني والثالث والرابع والخامس وما بعده » مجلدة تجليدًا حسنا وموسومة عاء الذهب ثمن الواحد منها ٥٦ غرشًا واجرة البوسطة ٥ غروش صاغ

(١٤) « ملخص تاريخ اليونان والرومان مزين بالرسوم ثمنهُ ٣ غروش والبوسطة عشرون بارة

(روايات الهلال ومطبوعات مطبعة الهلال · منها)

(١) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من الكتب العربية من اول عهد الطباعة الى الآن تأليف المستر ادوارد فانديك عدد صفحاته سبعمائة صفحة وثمنهُ خمسون غرشًا واجرة البوسطة خمسة غروش

(٢) « استراتونكي » (تأليف صموئيل افندي بي) وهي الرواية الاولى من روايات الهلال غرامية تاريخية حصلت حوادثها في زمن خلفاء الاسكندر المكدوني ثمنها خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٣) (لصوص فيينيا) هي الرواية الثانية من روايات الهلال تعريب ادارة الهلال . جزءان ثمن الجزء الواحد خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٤) الالمام في من تارض حاشية من ملوك الاسلام للعرسري ثمن النسخة اربعة غروش واجرة البوسطة نصف غرش

(٥) « انتصار المحبين » وهي رواية غرامية ادبية تأليف يوسف افندي زيدان ثمن النسخة خمسة غروش واجرة البوسطة غرش